حسن أوريد

رباط المتنبي

رواية



حسن أوريد

رباط المتنبي

حسن أوريد

رباط المتنبي

رواية



المركز الثقافي العربي

الكتاب

رباط المتنبي

تأليف

حسن أوريد

الطبعة

الأولى، 2019

عدد الصفحات: 352

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-908-1

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com



إلى فاتن فيفاني

فلا عبرتْ بي ساعةٌ لا تُعِزُّني
ولا صحبتني مهجةٌ تقبل الظلْما

المتنبي

Though this be madness, yet there is method in 't

Shakespeare, *Hamlet*

القسم الأول

كانت الليلة بالرباط ماطرة من ليالي الشتاء، مصحوبة بعواصف شديدة تهتز لها دفات النوافذ، وتصدُّني عن القراءة المركزة. كان الجو العاصف وانتقالي بين حين وحين إلى المدفأة لأزوِّدها بالحطب يقطع حبل التركيز. أسكن شقة مطلّة على محطة القطار وسط مدينة الرباط. تأتي الخادمة محجوبة صباحاً لتهيّئ لي الفطور وترتيب البيت وتحضير الغداء وتغادر بعدها. كنت أصْرف حياتي في التدريس بكلية العلوم السياسية ويشغل ذلك وقتي أغلبه، لما يقتضيه من قراءات، ومواكبة الأحداث وتتبع لأبحاث الطلبة وتهييء للمحاضرات. إلى ذلك، أقدّم دروساً عن العالم العربي بالدار البيضاء، لطلبة فرنسيين من معهد بوردو للعلوم السياسية. كنت لذلك أتابع ما تطفح به تبعات «الربيع العربي» وما أفضى إليه من انتكاسة. صَدَفتُ عن الحياة العامة وقد جاوزت الخمسين من عمري كي أخلص للفكر والأدب والكتابة.

لم أعد أرتبط إلا بعملي الأكاديمي وما يستتبعه من قراءات ولقاءات فكرية. كنت مقترناً بامرأة، واعترى علاقتنا بعض الفتور. تزاول مهنة الطب، وفضّلتْ، إخلاصاً لمرضاها، أن تبقى بالدار

البيضاء حيث تمارس مهنتها، ومنها تنتقل إلى الرباط، وأنِفتُ من جانبي أن أغيّر نمط حياتي وعاداتي في سنّي فأستقر في الدار البيضاء.

سمعت فجأة طرقاً على الباب. تمليتُ لأتأكد مِن الطْرق، ثم شفع الطارق برنين الجرس. نهضت. لففت روب دو شامبر، وفتحت الباب. كان البوابَ با براهيم. استغربت أن يقصدني في ساعة متأخِّرة. بادرني بالدارجة مع لكنته السوسية:

- الأستاذ شي واحد تحت العمارة ك يطلبك.

- شكون؟

- قال لي بو طيب.. وما عقلت ش على اسمو كامل.

استغربت أن يقصدني طارق في ساعة متأخرة من الليل. وبعد لأيٍ أذنت للبواب أن يفسح للشخص. نزل من المصعد ولم يعد بعدها. بقيت أنتظر بعتبة الباب إلى أن انفتح باب المصعد وتقدَّم رجل في مثل سني، يرتدي جاكتة جلدية، وقبعة «بيريه»، ويحمل حقيبة صغيرة. يبدو كمن حلّ من سفر. سلّم علي باليد وشفع بالحديث:

- أهلاً وسهلاً.

راعني أن لهجته لم تكن مغربية، وكانت أقرب ما تكون إلى العراقية.

خشيت أن يكون هناك خطأ في العنوان. بادرت الشخص بالسؤال حتى أتأكد من وجهته:

- اشْكون اللي بغيت بالسلامة؟

- الأستاذ.

هو ذا لقبي. نطقها بلكنة عراقية مع مدّ التاء ونطق الذال المعجمة على خلاف المغاربة الذين يختلسون المد ولا ينطقون الذال المعجمة. مَن الذي ألقى بعراقي إلى هنا؟ أهو نازح فرّ من هجير الوضع المضطرب ببلاده؟ أهو عراقي مقيم بالشام وقد فرّ من الحرب الأهلية المضطرمة بسوريا؟ أجبته وأنا أداري استغرابي:

- أمتأكدٌ أنت من بُغيتك؟

- أي نعم.

- هل لك أن تحدِّد هويتك؟

- أنا أبو الطيب المتنبي.

كدت أصرخ في وجهه:

- وأنا سيف الدولة.

تأدبت ولم يبدر مني ابتسام أو استهزاء، فعقّبت لأدرأ أي لبس محتمل:

- الشاعر؟

- بعينه.

- مالئ الدنيا وشاغل الناس؟

- تماماً.

- تريد أن تقول إنك قارئ لشعر أبي الطيب وحافظ له.

- كلا، أنا الشاعر، وقد حللت بعصركم هذا، في بلدك هذا.

استجمعت قُواي وقلت له كي أصرفه نهائياً:

- أنا لا أؤمن بالمعجزات، وأعتبر معجزة أحمد هي تلك التي توسّع فيها المعري. أمّا أن ينسلخ شخص عن زمنه ليحل بزماننا، فليس لي من الاعتقاد ما يقر بذلك. آسف.

وتأهبت لأغلق الباب. دفع الباب بجُماع يديه ثم بادرني:

- على رِسْلك. لِمَ تستعجل؟ هبْ أني منتحل لشخصية أبي الطيب، أتمنعني القِرى وتحرمني الضيافة؟

- إذاً قُل إنك منتحل لشخصية أبي الطيب. قُل إنك متطفّل. وبيتي ليس مأوى للنازحين والمتلصِّصين على كل حال.

- اسمعْ، لا يفيد أن تُغلق الباب. لقد أتيت البيت من بابه، تأدُّباً، وحتى لو أغلقت الباب، فسأمرق إلى داخل بيتك، وأدخله من غير استئذان. أنت تعرفني شاعراً، ولا تعرفني إنساناً، ولو أن شعري مرآة لنفسي. تلطفْ خيرٌ لك. تعرفني إذ أقول:

مَـن أطـاق الـتـمـاسَ شـيء غِـلابـاً
واغـتـصـابـاً لـم يـلـتـمـسْـهُ سُـؤالا

- أعرف بيت المتنبي.

- وأنا المتنبي، وقد عبَرت الأزمنة وطوّفت الأمكنة لكي أخلو بك، وهي حظوة، ولم أكن لأخصك بها، لولا ما أعرفه عنك من معرفة، وشغف بالأدب، وقراءة لشعري.

- قرأت بعضاً من شعر المتنبي وحفظته لمّا كنت يافعاً، وكنت حينها أؤمن بسلطان اللغة، وأؤمن بالعرب، وأؤمن بيقظتهم ونهضتهم وقضاياهم، أما الآن فلم أعد أؤمن بسحر اللغة ولا بسلطان البلاغة بل بقوة الفكر. والفكر لم يعد شأن العرب، ولم أعد أؤمن بشيء يميزهم أو يبعث على الأمل منهم وأنا أرى ما آلوا إليه.

- لك ذلك، ولكن دعنا نتحدث لا في ردهة الشقة بل في بيتك كما يليق بشخصين محترمين.

ترددتُ للحظة، فقد يكون الشخص منتحلاً لشخصية المتنبي،

إلا أنه يبدو على معرفة، وهندامُه يبعث على الاطمئنان. أفسحت له في الدخول. أدخلته الصالون حيث كانت التماعات الحطب في المدفأة تبعث الدفء.. دعوته للجلوس، واستأذنته في شراب:

- قهوة أم شاي. شاي أسود؟ أخضر. بليمون أم...

- لا تُزعجْ نفسك، دعنا نتسامرْ لبعض الوقت.

- أنا لا أسهر الليل. لدي نظام صارم لا يمكن أن أتزحزح عنه. ثم إن سِنّي وما أعاني من أمراض يأبى علي الخروج قيد أنملة عمّا استنته من نظام.

- أحب الذين يأتمرون بقواعد في حياتهم ويُسيّرونها بالصرامة. كذلك كنت أفعل.

- وهل صدفتَ عن ذلك؟

- كيف تجرؤ على هذا السؤال وأنت تعرفني وتحفظ لي. لا تريد أن تصدّق أني أبو الطيب المتنبي الجُعفي الكِنْدي، وتحسبني منتحلاً لشخصه، وقد أكون حافظاً لشعره... أنا ما حللت بساحتك إلا لأني أيقنت بأن لا أحد حمل رسالتي في زمنك هذا، وأن الكثيرين حفظوا شعري، وشرحوا قريضي، وعارضوا قولي، وتأثروا منهجي ولم ينفذوا إلى روحي.. وهذا الذي جعلني أقطع مراحل الزمان إلى هذا الرباط الذي أنت معتكف فيه، كي أتحدث من خلالك لهذه الجموع المُكبة على وجوهها من غير هدى.

- حسناً. كان يخلق أن تفعل ذلك مع واحد من بني جلدتك، فلست عربي الأرومة؟

- هذا شأن يخصني، وينبغي لصدرك أن يتسع لي في هذه الفترة التي سألازمك فيها.

- أنا لم أُدخلك إلا تأدُّباً حتى لا تبقى على عتبة الباب، وحتى لا أمنعك الضيافة في هذا الجو المطير. ليس بنيتي أن أستبقيَك أو أبقيك.

- وليس بنيتي أن أرحل.

- لا تدفعْني للحسرة على ما فعلت..

- علينا أن نعيش سوِيّة لبعض الوقت. عليك أن تصطبر علي وأصطبر عليك... لن أتمادى في إزعاجك. اذهب إلى غرفة نومك كي تستريح من نَصَب يوم متعب. موعدنا الصبح، سأستلقي ها هنا بالصالون. لا تُلقِ بالاً إلي. دثار خفيف يكفيني، ثم أخذ ينشد:

تـمـرّسـتُ بـالآفـات حـتـى تـركـتُـهـا
تـقـول أمـات الـمـوتُ أم ذُعـر الـذُّعْـر

وأقــدمــتُ إقــدامَ الآتــي كــأنّ لــي
سوى مُهجتي أو كان لي عندها وِتْر

دعاني إليك العلمُ والحِلمُ والحِجى
وهذا الكلام النظمُ والنائل النثر[1]

وجـنّـبـنـي قـربَ الـسـلاطـيـن مـقـتُـهـا
وما يقتضيني من جماجمها النسر

وإنـي رأيـت الـضُّـر أحـسـنَ مـنـظـرا
وأهـونَ مـن مَـرْأى صـغـيـر بـه كِـبْـر

لمّا فرغ من الإنشاد، أتيته بخُف ودثار، ثم أغلقت دونه باب الصالون. انثنيت إلى الحمّام ونظرت في المرآة. أنا هو أنا، ليس بي

(1) الحِجى: العقل.

من خَبَل. لطمت خدي كي أتأكد أني يقظ أحس بما يموج ويروج، وأني لست حالماً أو بي مسّ أو أصابتني هلوسة. ثم تفطنت أنَّ عليَّ أن أغلق باب الشقة ونكَّرْتُ المفتاح حتى إن كان الرجل لصّاً تعذّر عليه أن ينفلت، وقصدت غرفتي، ونمت نوماً مضطرباً.

استيقظت على عادتي باكراً واستحممت بدوش بارد كما أفعل دوماً، صيفاً أو شتاء. كان بيت الصالون مغلقاً ولا ينبعث منه نور. قدّرت أن ضيفي نائم. . . استرجعت في ذهني قصة الأمس، وغلبني الضحك. كيف لشخص أن يحسب نفسه المتنبي، وكيف له أن يوقن بذلك، ويحمل الناس على ذلك. وخمنت أن ما يعيشه أهل العراق وسوريا من محن قد انعكس على نفسياتهم وأصاب بعضهم بالاضطراب، وليس بدْعاً، والحالة هذه، أن يحمل شخص يتلظى ممّا أصاب بلاده ونفذت إليه أوصابه على أنه المتنبي.

حضّرت القهوة من آلة القهوة التي بغرفتي، ثم انكببت على مكتبي بغرفتي أسطر يومياتي. أبدأ عادتي بما يعتور حياتي من أحداث وما تخلّلها من رؤى وعنّ لها من خواطر، تكون كلها مادة لما يعتمل في ذهني من أفكار، ولكني يومي ذاك أبْلستُ ولم أُحِر ما أكتبه. حلَّ ببيتي المتنبي. حلَّ ببيتي شخص يزعم أنه المتنبي. استضفت المتنبي. . جمل سمجة لا تحمل دفقاً ولا يسري فيها الدفء. أخذت أرتشف من فنجان القهوة وأستعيد حبل ما جرى. ألا أكون تحت تأثير هلوسة؟ هل حقاً طرق أحد الباب أمس؟ هل

هي أعراض جانبية لما أتناوله من أدوية؟.. يمكن أن أزيح الارتياب بأن أفتح باب الصالون كي أبدِّد الشك وأقف على الرجل... ولكني لم أجرؤ.. لا.. لست تحت تأثير هلوسة. حلَّ رجل أمس بالبيت يزعم أنه المتنبي. وفجأة سمعت صوتاً مرتفعا في الصالون. هرعت وفتحت الباب، ووجدت الرجل وهو ينشد:

فلما أنخنا، ركزنا الرما ... ح بين مكارمنا والعُلا
وبتنا نُقبّل أسيافنا ... ونمسحها من دماء العِدا
لتعلم مصر ومن بالعراق ... ومن بالعواصم أنّي الفتى
وأنّي وفيتُ وأنّي أبيتُ ... وأنّي عتوتُ على من عتا
وما كل من قال قولاً وفَى ... ولا كل من سِيم خسْفا أبى
ولا بد للقلب من آلة ... ورأي يُصدّع صُمّ الصفا
ومن يكُ قلبٌ كقلبي له ... يَشقُّ إلى العِز قلب النّوى

نظرت إليه نظرة دهشة وهو يتلو الشعر، ببيجامة هي لي. هل انتقل إلى الصُّوان وأخذ بيجامتي من دون إذني؟ أم أن له بيجامته تشبه تلك التي في الصُّوان؟ تركته وشأنه حتى أنهى تلاوته. كان بادياً أن الرجل لم يكن في حالة عادية. قلت له وقد أنهى تلاوته:

- أبا الطيب، سأتصرّف معك وكأنك أبو الطيب، ولكني أريدك أن تعرف أنني أعيش هنا في شقة وليس في بادية السماوة، وأنْ ليس لي ولا لك الحق أن نزعج من يسكنون معنا في العمارة، وأن البيوت هنا هي للسكينة، فلا يجوز أن نرفع صوتنا حتى لا نزعج أحداً.. لست أشك في جمال شعرك، وقوة نظمك وجزالة لفظك، هذا على

افتراض أنك أبو الطيب المتنبي، لكنه بالنسبة إلى ساكني الشقة، وإلى من ينتهي إليهم قولك، وبالطريقة التي تلوتَه، صخب وضجيج، وهو يقع تحت طائلة القانون والليل لمّا ينجلِ.

ردّ بخبث:

- وأي ليل؟

- لا أكنّي. أعني الليل الذي يخلد فيه الناس للراحة.

- وهل تتأذون من الشعر؟

- لا نتأذى منه لأنه غاض إلّا من بعض الفلتات. نتأذى من الصخب، وشعرك لو ينتهي إلى آذان ساكني العمارة، فلن يحسبوه إلا صخَباً، ولن يَعُدّوه إلا لغواً، لأن آذاننا أنِست ألواناً من القول مخالفة لقريضك.. ولعلّ الناس هنا، وقد عرفوا عزلتي، وأنسوا بنمط حياتي الهادئ، لو يسمعون صوتك، سيظنون بي الظنون، وسيحسبون أنْ قد مسّني مسّ.

- بسبب شعري؟

- نعم.

- أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

- لن ينظر مبصر إلى أدبك، ولن يصيخ سامع لكلماتك.

- ألهذا هان شعري؟

- أو أسْففنا.. قم واغتسل. ثم بدّلْ لباسك، وسأهيّئ لك قهوة.

- لا أشرب القهوة.

- أنا لا أعني الخمرة... ينبغي أن تفهم أن لغتك لم تعد

لغتنا، وأن علينا أن ننقل لغتك في رفق، كما يُحوّل التيار من فولتاج إلى آخر. لا بدَّ من مُحول كي نفهم عنك.

- ألا تفهمون قولي؟

- حتى لو فهمناه، فهو لن ينفعنا في شيء.

- أحضوري يزعجك؟

- يمكن أن أسِرّ لك بشيء، وهو أني أمرُّ بفترة جفاء مع قرينتي، لأنها تعيرني بالجنون، وقد يكون فيما زعمتْ جانب من الصحة، ويبدو أنك أكثر جنوناً مني، لأنك لم تجد مكاناً لتحل فيه غير هذه الشقة الضيقة والتي زادتها الكتب ضيقاً على ضيق، ولا زماناً تنزل فيه غير هذا الزمان وقد تفرّق العرب شِيَعاً وتربّصت بهم الدوائر، وتراشقوا بينهم، وأضحوا كما يقال كالأيتام في مأدبة اللئام، ولم تجد أنيساً غير أعجمي، أو ترد الدقة، بربري ليس من بطون العرب ولا فخذاتها ولا من ذؤابتها، ممّا تواتر في أقوالكم.

- قلت لك هذا شأني، أحُلّ على من أريد.

ثم أخذ ينشد:

ومِن الرُّشدِ لم أزرك على القر

ب، على البعد يُعرف الأنامُ

- أعرف، إنما عن قريب ستأتي الخادم، وينبغي أن تتصرف تصرف شخص عادي. لا أريدها أن ترتاب في شأنك ولا في شأني. فلو عرفتْ ما أعرف، لحسبتني أنا المجنون.. أرجوك. فلبعض الناس علي صورة وتصور، ولا أريد أن يَشينه تصرف يبدر منك. سنزعم أنك ضيف، ضيف عادي، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

أخذتُ أُنشد من قصيده:

ليس عزماً ما مرّض المرء فيه
ليس همّاً ما عاق عنه الظلام
واحتمال الأذى ورؤية جانبيـ
ـه غذاء تضوى به الأجسام

استرسل من جانبه منشداً:

ذلّ من يغبط الذليل بعيش
رُبَّ عيش أخف منه الحِمام
كل حِلْم أتى بغير اقتدار
حُجّةٌ لاجئٌ إليها اللئام
من يهنْ يسهلِ الهوان عليه
ما لجرح بميت إيلام
ضاق ذرعاً بأن أضيق به ذر
عاً زماني واستكرمتني الكرام

فتحت نوافذ الصالون. كانت الشمس قد انقشعت بعد ليلة ليلاء من العواصف والأنواء. . كان أبو الطيب المتنبي قد اغتسل وارتدى ملابسه. كنا وإيّاه واقفين نرمق المارة من شرفة الصالون. أنعشنا البرد. .

- الرباط مدينة جميلة، قال المتنبي.
- ولكن بها وخَم، وليس يطيقه من أنِس جو الصحراء مثلي.
- وإنك لبدوي؟
- أي نعم، ولولا هذه البداوة لما أحببت شعرك في شرْخ شبابي. .
- وها أنت ذا، ترى، قد سكنتك في كهولتك. .
- الحقيقة أني صدفت عن شعرك لسنين، وأخذتني صروف الحياة، ووجّهتني إلى أشياء أخرى، وأعرضت عن اللغة العربية وما يرتبط بها من آداب لأنها لا تسمن ولا تغني من جوع. وكنت في ضائقة ولم ينقذني منها إلا إلمامي بالفرنسية والإنجليزية، فبهما أتبلّغ[1].
- وهل اللغة العربية عبء؟

(1) تبلّغ: بلغ الكفاف من العيش، والبُلغة ما يُبلغ الكفاف.

- توشك أن تكون كذلك. كادت أن تنتعش قبل فترة، لأن أصحابها كانوا حاملين لتصور ولمشروع، ولم يعودوا حاملين لشيء، فانعكس ذلك على لغتهم. منهم من هجرها وفضّل عليها اللغات الأوروبية، لأنها لغات العيش والعمل والتقنية والتفكير، ومنهم من راغ إلى ترجمة حرفية، في لغة ركيكة لا نسغ فيها، لا هي عربية في مبناها، ولا هي أجنبية في ظاهرها، ومنهم من فضّل لسانه الدارج.. أما الذين يَلحنون فحدِّث ولا حرج.

- وإذاً لن يقرأ أحد شعري.

- لم يعد قومك يتمثلون شعرك، ويخطئون حينما يستشهدون بك. ولا يحسنون اللغة العربية، ويخطئون في قواعدها.. كانت الجموع في منتصف القرن الماضي تخرج متظاهرة في دمشق أو بيروت وهي تحمل لافتات مستشهدة بشعرك: «عش عزيزاً أو مت وأنت كريم». انتهى كل ذلك.. كان شعرك يُدرَّس ويُدرَس كما لو هو تهجُّد أو ما يعبَّر عنه في الأدبيات الكنسية بـ Catéchisme، لتعبيرك الجزل، ومعانيك الفخمة ولغتك الباذخة. وكم أحببت قصيدتك:

أزورهم وسوادُ الليل يشفع لي
وأنثني وبياض الصبح يُغري بي
حُسْنُ الحضارة مجلوبٌ بتطرية
وفي البداوة حُسنٌ غيرُ مجلوب
ليت الحوادثَ باعتني الذي أخذت
مني بحِلمي الذي أعطت وتجريبي

فما الحداثة من حِلم بمانعة
قد يوجد الحِلم فيَ الشبّان والشيب

والحداثة في لسانك ليست هي الحداثة في فهمنا. فأنت تعني بها غضارة العمر، ونحن نعني بها ما انتهى إليه بنو البشر من معرفة وتِقانة وحسن تدبير وفهم، ولو أننا نجد العنت الشديد في تعريفها وفي أقوم السُّبُل لبلوغها.

ظلَّ ذهنه منصرفاً إلى قوله لا إلى قضيتنا الكبرى، وهي أن نعيش وفق ما انتهت إليه التجربة الإنسانية، فعقّب:

- وما الذي يروق لك في هذه الأبيات؟

أجبت لأني أيقنت أن اهتمامه منصرف للقول لا للفعل:

- حسن الطبع، والاستنكاف من التكلُّف، وهذه الحِكم المنبعثة من روح جيّاشة ونفس سليمة.

ثم أضفت:

- هيا بنا إلى الداخل بالشقة، فقد أثقل علينا البرد بالشرفة.

ودخلنا الصالون. أغلقت باب الشرفة.

جلسنا متقابلَين في صوفا الصالون وقد سرى فينا الدفء بفضل التدفئة. سألني ما الذي تغيّر منذ رحيله.

- لا شيء. أجبت وأنا أداري ابتسامة. وقعت أحداث جسام، دون أن يتغير شيء. لم تتغير البنية الذهنية التي كانت سارية منذ عهدك.

- كيف؟ لا أفهم؟

- العرب كما تركتَهم، قبائل تتناحر، وغاية الدين أن يَحُفَّ

المسلمون شواربهم، والجهل مستشرٍ، والأعراب كما عهدتهم:

فقر الجَهول بلا قلب إلى أدب
فقر الحمار بلا رأس إلى رسَنِ
ومدقِعين بسُبروت صحبتهم
عارين من حُللٍ، كاسين من درنِ[1]
خُرّابُ بادية غرثى بطونهمُ
مكْنُ الضِّباب لهم زادٌ بلا ثمن[2]
لا يُعجبنَّ مَضيما حُسن بِزّته
وهل تروق دفينا جودةُ الكفَن

وأهل الحضر من العراق والشام، تبدوا، مثل قولك:

على الفرات أعاصير وفي حلبٍ
توحشٌّ، لملقى النصر مقتبلُ

وأي نصر يقترن بالهدم؟ أما مصر، فما بها من المضحكات! ولكنه ضحك كالبكاء..

- ولِم؟

- هناك اختلال في سُلَّم القيم وانعدام وحدة قياس. الرُّشد غيّ، والغيّ رُشد. لأشياء وقفتَ عليها ولم تكشف سرّها. نحن بلا عقْد اجتماعي نلتقي حوله، وتحكمنا شِرْعة الغاب، وهي بين ظاهرة في حروب أهلية وصراعات طائفية، ومستترة من خلال تحكم أوليغارشيات وطغمات وأُسَر، ولا قيمَ مع شرْعة الغاب. أعلمُ هذا العالم فدْمٌ، وأحزمهم وغد، وأكرمهم كلب، وأبصرهم عَم،

(1) سبروت: الأرض لا نبات لها، والرجل المعدم سبروت.
(2) مكْن: بيض الضباب.

والنفيس، كما قلت في موضع آخر، غريب. . . لا، لم يتغير شيء. . القرامطة غيّروا اسمهم، وأصبحوا دواعش، والبويهيون استولوا على بغداد، والسلاجقة ينازعونهم السؤدد، وسيف الدولة، وهو ناصر، انتهى إلى بوار، والمماليك ككافور تولّوا الأمر بأساليب جديدة وطُرُق ملتوية. ويعجبني قولك في حديثك لراحلتك التي أخذت تهزأ منك لمن تأخذها إليها، وأنت تشق عليها حتى تختضب أخفافها بالدم، من سادة هم كالأصنام لا يبينون عن إدراك، دون أن تكون لها عفة الصنم.

- مخيف هذا الذي أسمع. .

- وددت لو أني مجانب للصواب.

نكّس رأسه، وأغمض عينيه، ثم أخذ في الإنشاد:

- رويد حكمك فينا غير منصفة
بالناس كلهم، أفديك من حكَم

وهذا الذي أرى، وهذا التطاول في البنيان، وهذا المعمار. . وهذه التكنولوجيا؟

- لا تغرّنك المظاهر يا أبا الطيب. وهل نُبصر بعيوننا أم بعقولنا، ألست القائل:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره
إن استوت عنده الأنوار والظُّلَمُ

في هذه الأثناء رنَّ جرس الباب. . حذّرته:

- إنها الخادم. يُستحسن أن تلزم المكتب إلى أن أخبرها بشأنك. .

أنشد على التو:

وكـاتـمُ الـحُـب يـوم الـبـيـن مـنـهـتـكٌ

وصـاحـب الـدمـع لا تَـخـفـى سـرائـره

أدخلته مكتبي، وأريته سريري أستلقي عليه حين يغلب علي التعب، ثم ذهبت أفتح الباب. كانت الخادمَ كما توقعت.. غشيتِ المطبخ كي تُحضّر الفطور فيما شغّلت حاسوبي لأطلّع على بريدي الإلكتروني، وأمخر المواقع الإلكترونية... وجدت رسالة من قرينتي بشرى بالفرنسية مع صورة من شاطئ دار بوعزة.

- السماء ملبدة والبحر مائج. هل تنقشع شمسنا؟.. وكيف نصوغ الأمل؟ يسكنني فردوس الأندلس دوماً؟ لماذا يضيع مني أو منا كل جميل؟ متى بدأت مأساتنا؟ ومتى تنتهي؟...

حرّرت الجواب بعجالة..

- من نحن؟ وما تفيد «نا» الجماعة... أريد أن أصوغ أملاً ها هنا، فيما تواتر على تسميته بالمغرب، أو الغرب الإسلامي، أو شمال أفريقيا. أما الفردوس، فقصة معقّدة... لا أدري من يرعى الفردوس حقّ رعايته، هم أم نحن؟ أتعرفين من زارني؟..

كدت أتحدث لها عن حلول المتنبي عندي. قد ترى في الأمر صورة مجازية. قرأتْ بعض شعره مترجماً إلى الفرنسية.. يستحسن ألا أكتب لها شيئاً عن هذا الزائر الغريب. محوت ما كتبت واكتفيت بكلام عام..

«عزيزتي،

لا شيء مما يستأثر بالاهتمام. البرد. صحّتي تتماثل للشفاء. ألا تضعي حدّاً لغلوائك؟ أنت مَن ركب رأسه؟ متى نضع حدّاً للفرقة؟ أرحل عندك أم تأتي عندي؟».

ردّت للتو، كما لو أنها كانت قابعة أمام حاسوبها..

«أمكثْ حيث أنت، في رباطك. نحتاج إلى مهلة تمكنك وتمكني أن ننظر إلى الأمور برويّة. ثم إن لدي مؤتمراً طبياً بليون، كنت حدّثتك عنه، وبعده آخذ عطلة بباريس.. قد يكون من النأي ما يفيد».

قرأت الرد. لعلّ في ذلك خيراً، ردّدت. لو أتت بشرى فكيف سأدبِّر علاقتي بها مع المتنبي؟ وهل يسوغ أن أذهب للدار البيضاء وأتركه لوحده في شقة، وفي مدينة لا يعرف فيها أحداً؟..

وفجأة سمعت صراخاً أعقبه صوت انكسار. كان صوتَ الخادم وقد أسقطت صينية (طبق) الفطور.. هببت من مكاني، ووجدت الخادم في حالة ذهول، وإبريق القهوة على الأرض، والسائل قد ساح، والفنجان مكسّر.. بادرتني كي تشرح ما وقع:

- سيدي، اسْمعت شي تخرخيش (صخب)، بحال الجنون..

أزحت قِطَع الفنجان المكسّر برجلي، ولم أعْبأ بردّ فعل الخادم. ذهبت تواً للمكتب وفتحت بابه. كان أبو الطيب واقفاً يترنم:

تُحقّرُ عندي همتي كلَّ مطلب

ويَقصر في عيني المدى المتطاول

وما زلتُ طوداً لا تزول مناكبي

إلى أن بدت للضيم فيّ زلازل

ما إن رأته محجوبة، حتى ضجّت بصرخة اصطك لها المكان..

- الدار مسكونة.. الدار مسكونة.. باسم الله الرحمن الرحيم، باسم الله الرحمن الرحيم. شاء الله يا رجال البلاد. اعتقو الروح..

انفتلتْ إلى المطبخ وهي تتفُل في جيب صدرها...

لم يعبأ المتنبي بصراخها، وأتمم إنشاده:

غَثاثة عيشي أن تغَثَّ كرامتي

وليس بغثٍّ أن تغثَّ المآكل

ثم انتهى إليّ وِصاد باب الشقة. فرّت محجوبة.

حاولتُ جاهداً أن أَثني الخادمة محجوبة عن قرار تركها الخدمة. التقيت بها خارج الشقة بعد إذ فرّت يوم أن اصطدمت بالمتنبي. أبت أن تطأ قدمها البيت. دفعتْ بأن البيت يسكنه الجن، ولم يُفد حسب قولها قراءتُها لآية الكرسي، ولا لأدعية تطرد الشياطين حين عنّ لها المتنبي... توسّلتُ إليها وتودّدت لها. أقررت لها أنني أحتضن ضيفاً غير شرعي، وأنني لا أستطيع أن أطرده من بيتي، ولا أريد للأمر أن يفشو، وزدت أن ضيفي ليس ممن قد يصيبها بسوء أو يمسَّها بمعَرّة... هو يشكو الهَجر وقد جفاه أهله، ويلزمني حُسن الرعاية به. ردّت بسذاجة:

- ما فهمت ش أسيدي، أنت ݣاع اللي مقطع به الحبل ترفدو. يمشي عند أهلو. كل شاة كتّعلق من كراعها.

حاولتُ أن أشرح لها أن ضيفي مزاجي، وأنه اختار أن يحُلّ عندي لأمر أجهله، ولا أستطيع وقد فتحت له بيتي أن أطرده... التمست منها أن تعتبر الأمر إحدى حماقاتي وأن تقبل ذلك مني.. ردّت بذات العفوية:

- أنا كنخاف من الجنون.. الجنون هم اللي فارقوني مع

الرجل. هذا جن صعيب، بقيت نقول باسم الله، وما بغاش يمشي..

أقررت لها بأنه لا يتأثر بالدين ولا ينثني أمام التهجُّد ولا يرتدع بالدعاء، ويحسن والحالة هذه أن تقبل بالضيف، وتتعايش معه. استأمنتها السرَّ.. كانت ترتعد وهي تعتذر إلي:

- ما نقدرش نبقى أسيدي والدار مسكونة.

- هي ما تتبغينيش؟

- حاشا، ما شفت فيك إلا الخير. خفت من الصرع..

- هذا ما كيصرعش..

- لا أسيدي، كيصرع. شفتو من عينيه.. هو، هو اللي فارقني مع رَجلي..

- المتنبي؟

- ما عرفتش سميتو، ولكن هو..

تشفّعت لها بطول العشرة. أغريتها بزيادة الراتب. ألحفتُ وتوسلت وتوددت. لما أن رأت إصراري، اشترطتْ بأن آتي بفقيه يتلو القرآن كي يطرد الشياطين... أتيت بفقيهَين قرآ طائفة من القرآن، وشاركتهما التلاوة تحت نظرها حتى تطمئن، ولكن محجوبة ألحّت بأن تنفث البخور بالبيت، وتعهّدت أن تأتي هي بها من عند العطار، وتقف على عملية نفث البخور.. كانت البخور مزيجاً من ريش الضربان، ومخ الضبع، والضفدع اليتيم، وخرقة النفساء، وأشياء أخرى لم تُرد محجوبة أن تُسفر عنها إلي... وقبلت محجوبة بعد لأيٍ أن تعود للخدمة. غشيتِ الشقة وفرائصها ترتعد وهي تردد:

- باسم الله الرحمن الرحيم.. سر يا إبليس الله يلعنك ويخزيك..

كنت قد أخذت تعهداً من المتنبي ألّا يخرج من مكتبي، وحذّرته أمر الخادم وأخبرته هلعها منه، وأطلعته بما أخبرتني به من أنه هو الذي فرّق بينها وبين زوجها..

ضحك المتنبي:

- حسنٌ أن تلصقوا بي كبواتكم، فذلك يعفيكم من النظر الحصيف والتمحيص الدقيق، وهي أمور متعبة، وأنتم استأنستم الحلول السهلة وتفضّلون إلقاء التعلَّة على الآخر.

استغربتُ أن يقول قولاً كذلك الذي قاله، لأني لا أذكر أني قرأت له شعراً بذات المعنى، مطابقاً لما كنت أردده، أم هو توليد لبيته؟

كدعواك كلٌّ يدعي صحة العقل
ومن ذا الذي يدري بما به من جهل

أو للبيت التالي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدّق ما اعتاده من توهم

كانت محجوبة تمشي في وجل وهي تذرع الشقة. طمأنتها أن قراءة الفقيهَين وبخور العطار قد طردت فلول الجن... استرخيتُ على الصوفا كمن تخلّص من عبء.. طلبتُ كأس ماء من محجوبة واستغرقتُ في قراءة الصحف. أتتني محجوبة بكأس ماء، وما أن وضعَته على المنضدة حتى عنّ المتنبي. صرختْ ملء فيها حتى صُمت أذناي:

- هو هو، هو الجن اللي فارقني مع رجلي. بسم الله الرحمن الرحيم.

ثم أخذت تتفل في صدرها. لما لم تُجْدِ توسلاتها وأدعياتها وقد بقي ماثلاً، أخذت تلعنه:

- سر الله يلعنك ويخزيك.. أستغفر الله العظيم..

غلبت القهقهة المتنبي فأخذ ينشد:

جاريةٌ ما لجسمها روح   بالقلب من حبها تباريح
في كفها طاقةٌ تشير بها   لكل طيب من طيبها ريح

دنا منها. فرّت إلى أقصى الصالون. فتحت الباب المفضي للشرفة وخشيتُ أن تقفز منها من فرط الخوف، من علو طابقَين، فانفلتُّ وأمسكتها وقد ملكني الغضب ولم أتمالك أن صحت على أثَر المتنبي:

- لماذا لا ترأف بالضعفاء؟ لماذا تهزأ من الدهماء؟ لقد أخذت منك العهد ألا تبرح مكتبي، وألا تخيف من اعتلق بحياتي. محجوبة جزء من حياتي. محجوبة هي من يتعهد أموري، هي من يقوم بأموري، ويصلح شؤوني، ويعتني بي. تعرف حياتي وآمنها على أسراري.. فما تمدني به يا أبا الطيب؟ لغة قديمة لم يعد يحسنها أحد؟ قيم قديمة هي سبب ما يعيش هذا العالم من مأساة... كان الاتفاق أن تبقى بالمكتب، وفي سرير المكتب، ونتبادل الحديث حين أتعب في غفلة عن عالم الأحياء، تسلّيني وأسلّيك، وتواسيني وأواسيك... ولكنك لم ترضَ بذلك، وخرجت من المكتب إلى الصالون، وغداً لا أدري، قد تخرج من الشقة إلى الشارع وتفسد

على الناس أمورهم. تدعوهم للتمرد دون أن تهيّئ لهم أسباب الارتقاء، بل دون أن تجشّم نفسك عناء فهم شؤونهم، لأن عليهم أن يَرقَوا إليك لا أن تنزل إليهم. أحذّرك أمري لأن محجوبة آثر عندي من قول فخم وشعر جزل لا يسمن ولا يغني من جوع. . . أحذّرك أمري، لأني لست من جلدتك، ولست أتمثل قول قريط بن أنيف إذ يقول:

قومٌ إذا الشر أبدى ناجذيه

طاروا إليه زرافات ووحدانا

فليس ذلك شأني، ولن يكونه. ولست ممن يقولون أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. ولست من أهل عصبية، ولست من أهل جهالة، أو ذوي عُبية كما يقال في الأثر. فإما أن تستقيم على الطريقة وتَلزم مكتبي ولا تبرحه، وإما أن نفترق وتذهب من حيث أتيت. . إلى القرن الرابع الهجري، أو إلى أروقة المدارس العتيقة، وإن شئت إلى أبحاث طلبة يَجرون وراء دبلومات، يسارعون في رسم كلمات، وفي نقل شذرات من شعرك، وفي تكرار سيرتك وتقلبك بين الممدوحين، من دون أن يضيفوا شيئاً جديداً. . . طرقتَ بابي، ودخلتَ بيتي كي أريك العالم، وكي تنفذ إليه في رفق، وكي أعينك على الحديث إلى الناس، وتفهم عن الناس ويفهمون عنك، لا أن تفسد عليهم شؤونهم أو تتهجّم عليهم.

أنشدَ كما لو أنه لم يكترث لقولي:

وما كنت لولا أنت إلا مُهاجراً

له كل يوم بلدةٌ وصحابُ

رددت:

- دعني من الشعر. ضاق صدري بذلك. أوثقتني به في هذا الرباط.

ردَّ في رباطة جأش وهدوء:

- ومرهَف سِرت بين الجحفلين به
حتى ضربتُ وموجُ الموت يلتطم
الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

كانت محجوبة قد التصقت بالحائط، تتابع الحديث دون أن تفهم، وهي تتمتم البسملة وتتفل في صدرها.. عقبتُ:

- أي نعم، محجوبة ليست جارية. لِم تريد أن تطلق أحكامك القديمة على واقعنا، وهو مغاير لما درجتَ عليه؟

- إن كان الواقع جديداً حقاً. هي الحقيقة أنطقتني.. لأني اختلست النظر، واطّلعت على ما يجري، ورأيت أن عالم الجواري لم ينقضِ، والحريم لم يندثر، والصلات فاشية، والبطش مستحكم، وتوظّفون الدين كما وظّفه سابقوكم.. أنسيت ما قلته لي من أن لا شيء تغيّر؟ فكيف تأبى علي أن أستعمل المصطلح الذي يؤدّي المعنى. لأنك تخاتل، أو لأنكم تخاتلون، تكذبون الناس وتكذبون أنفسكم... تعاليْ يا محجوبة، لن تخشي مني أمراً...

تغيّرت محجوبة فجأة. تبددت عقدتها وانجلى هلعها، وأطلقت يديها وقد كانت قابضة لهما، ثم أخذت تنظر إلى المتنبي نظرة خِلواً من الفزع. أخذت الطمأنينة تشملها، ولو أني كنت على يقين أنها لم

تفهم شيئاً ممّا قاله.. توجّهتْ إلي بالقول كمن يسعى أن يُكفّر عن حوبة:

- سيدي ما شي جن... لا ما يمكن ش يكون جن. هذا بحالك. يشبهك.. ما تقول غير أنت. سبحان الله العظيم.

أنِستْ محجوبة بالمتنبي وأنِس بها. . وجدتِ الرُّفقة من شخص من الماضي لم يظهر منه أذى، ووجد هو الرفقة من خادم تؤنس وحشته، ولو هي لا تفهم عنه. . وكان يُسعدها أن تسمع ترنيمه وهو يذرع المكتب ينشد شِعره، فترخي السمع، ويهزّها وقع الكلمات، ورصف الأبيات، وقوة الأداء، ولو هي لا تدرك معنى القول. ضبطتها مرة وقد ألصقتْ أذنها بباب المكتب وهي تستمع لوقع كلِمِه، وأنا وراءها دون أن تتبيّن ذلك، والمتنبي يتلو:

ذِكَرُ الصِّبى ومراتعُ الآرام
جلَبت حِمامي قبْل وقْت حِمامي[1]
دِمَنٌ تكاثرت الهموم عليّ في
عرصاتِها كتكاثر اللُّوّام[2]

---

(1) الأرام: الظباء، وهي هنا النساء، أي أن تذكّره لما مضى من شبابه، وقد أوقعته الذكرى في حالة كأنها الموت، قبل أن يموت.

(2) عرصاته: ساحاتها. والدّمن، ما يتلبّد من أشياء وما ينبت من نبات بعد رحيل القوم، وهي هنا كناية عن الذكريات تكاثرت عليه كتكاثر لُوّامه، أو مغتابيه.

ولـطـالـمـا أفـنـيـتُ ريـقَ كـعـابـهـا
فـيـهـا وأفـنـت بـالـعِـتـاب كـلامـي[1]
قـد كـنـتَ تـهـزأ بـالـفـراق مَـجـانَـةً
وتــجُــر ذَيْــلَــيْ شِــرَّةٍ وعُــرام[2]
لـم يـتـركـوا لـي صـاحـبـاً إلّا الأسـى
وذَمـيـل دِعْـبِـلـة كـفـحْـل نَـعـام[3]
أنــتَ الـغـريـبـةُ فـي زمـانٍ أهـلُـه
وُلـدتْ مـكـارمـهـم لـغـيـر تـمـام[4]

أعجلت محجوبة بالقول:

- ها أنت إذاً تسترقين السمع من وراء الباب..

ارتاعت واعتُقل لسانها..

- اسمح لي سيدي.

- أهو الجن الذي فارقك من زوجك؟...

- حاشا، سيدي. كنت..

---

(1) شبّه تلك الأماكن كغانية كَعاب وهي الفتاة التي بدا نهداها، نال منها، وكانت الغلبة لها، لأنها أسكتته وأفحمته بعتابها، أي أن الذكرى أخرسته.

(2) المجانة: من المجون، أي الخلاعة. والشِّرة: النشاط والبطر، ومنه الشراهة في الأكل، والعرام: الشراسة. كان يستهزئ من الفراق لأنه كان قوياً شديداً لا يأبه لشيء.

(3) الذميل ضرب من السير السريع. والدعبلة الناقة السريعة، وفحل النعام، ذكرها. أي لم يبقَ له من صاحب إلا الأسى والترحال.

(4) حالته حالة غريبة، لأنه يعيش متفرداً بمكارمه المكتملة، في زمن لم تكتمل فيه لأحد.

- شائن أن تسترقي السمع. ثم أنت تستمعين لِما لا تفهمين وقد تسيئين فهمه ومن ثمة تأويله، كما يفعل غالبية الناس عندنا، يسارعون في التأويل عن جهل.. ولو فهمت قوله لما سرّك ذلك، فهو يتذكر صباه وعبثه مع فتيات في مقتبل العمر، واستهانته بما قد يشعرن به من أسى، إلى أن أصبح وحيداً فريداً، متفرّداً. أهذا ما فهمت من قوله، وهو ما راقك من أمره؟

أحنت رأسها وانفلتت..

فتحتُ الباب، ووجدت المتنبي واقفاً ينظر إلي مستفهماً:

- ما الذي جرى، سمعتك تهمهم؟

- محجوبة كانت تسترق السمع إليك، وأبيت عليها ذلك.

- أتسيء الظن بخادمتك؟

- أنت من يسيء الظن بالناس، أو على الأصحّ شِعرك. ولذلك أريدك ألّا تبرح هذا المكان. ستفسد على الناس شؤونهم برؤاك التي لا تطابق عالمنا.

- تريدني حبيس هذا الرباط. ليس عدلاً ذاك. أريد أن أخرج إلى حيث الحياة.

- لن تفهم العالم ولن يفهم عنك. ولو ارتحلت إلى حيث أهلك لوجدتهم يتناحرون، وقد تصيبنا بجرثومتهم، ويصيبوننا ببلواهم، ويرموننا بدائهم.

- ألستم منهم؟

- أشياء تجمعنا ضخّمناها، وأخرى تُمايز بيننا ذهلنا عنها.

- خلتكم أصبحتم منهم وقد اتخذتم لسانهم لساناً لكم.

- لم نتخلَّ عن بنيتنا العميقة، أو هي لم تتخلَّ عنا..

- وما البنية العميقة؟

- هي الأمر الثابت أو الرسيس.. البنية العميقة مصطلح نحته عالم لغوي اسمه نعوم تشومسكي، ليدلل أن اللغة الأولى التي يتعلمها المرء، تصوغ بنيته العميقة، وتؤثر على اللغات التي قد يتعلّمها. تؤثر من حيث النطق، ومن حيث التركيب، ويمكن أن نقيس على ذلك فيما يخص الذهنية، أو إن شئت الطبع، فذهنيتنا أمازيغية ولو أن لساننا، أو لسان بعضنا عربي، وقد يُغضب هذا الأمر كثيراً منا.. والحق مغضبة كما تقول العرب.

- وهل تريدون أن تنسلخوا عن العرب ولسان العرب؟

- «ومن وجد الإحسان قيْداً تقيّدا»[1]. لمْ نُقيَّد بالإحسان دوماً في مسار تاريخنا... ومع ذلك لا نريد أن نُهدر إرثاً مشتركاً، وقضايا مشتركة.. لقد نجحنا في شيء سابقاً، أريد أن نعيده لاحقاً... أن نجمع ما بين اللسان العربي، والذهنية الغربية، كما كانت الأندلس سابقاً..

ثم شفعت بالقول معتذراً:

- لدي اجتماع بالكلية. لا تسألني عن حالها. أذكّرك بما اتفقنا حوله. لا تبرح هذا المكان. أنا كذلك أعيش توزّعاً ما بين هذا الرباط من كتب وأفكار، حيث يُحدّثني أقوام من مختلف الأزمان والأمكنة والثقافات، وبين واقع له خطاب وخطابات مضطربة، تختلط فيها العادة والمصلحة والميتافيزقية والسكيزوفرينية، ويقلّ فيها

(1) شطر من شعر المتنبي.

العقل وتغيض فيها الروية، فضلاً عن تداخل الأزمنة. أنتقل بين العالمين كما لو أني في شِعب بوان، في قصيدتك الرائعة، أحتاج فيه إلى ترجمان، لا لترجمة اللغة، وإنما لترجمة المفاهيم.

خلعتُ عني بيجامتي وغشَيْت الحمام. أطلقت الدوش. انسرب الماء البارد على جسدي، فاعترتني قشعريرة. تماسكت حتى أنِست به، ثم حوّلته إلى الدافئ. ووجدتني أترنّم قصيدة المتنبي في شِعب بوان وماء الرشاش يندلق على جسدي:

مغاني الشِّعْبِ طِيباً في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربيَّ فيها
غريبُ الوجه واليد واللسان
ملاعبُ جِنة لو سار فيها
سليمان لسار بترجمان
طبَت فرسانَنا والخيلَ حتى
خشيتُ وإن كرُمن من الحِران
غدونا تنفض الأغصان فيها
على أعرافها مثل الجُمان
فسرتُ وقد حجبن الحرَّ عني
وجئن من الضياء بما كفاني

وألقى الشرق منها في ثيابي
دنانيراً تفر من البنان
وأمواهٍ تصِلّ بها حصاها
صليل الحليّ في أيدي الغواني
يقول بشِعْب بَوان حصاني:
أعنْ هذا يُسار إلى الطعان؟

لم تكن القصيدة تأسرني لحسن تصويرها، بل لما توحي إليه، وهو ضامر خفي. نعم القصيدة لوحة، ولكنها غور في تجاويف نفسية المتنبي. ليس هناك عارف لشعر المتنبي، بل للأدب العربي، لم يطرب لهذه القصيدة، لجمال وصف شِعب بوان الذي هو بمثابة الربيع إلى الزمان. ما كان يروقني ليس الوصف البديع بل التعبير عن حقيقة رجل انتهى إلى حقيقته، وأن ليس هناك حقيقة تستحق أن يجري وراءها الإنسان، وأن الحياة عبث. تصورته وقد أثقلته الهموم والأسى وهو على حصانه يغشى فارس وقد دخل حمى شيراز بشِعب بوان، هدّه التعب ونالت منه الخيبة، يتقدم الهوينى، على صهوة الحصان، تحت ظلال الأشجار تقيه الحر، وتنسرب من أغصانها لآلئ الضياء كما لو هي دنانير تنزل من السماء، إن أراد أن يمسكها انفلتت من البنان، وخرير المياه في السواقي يناغي الحصى فكأنما تحاكي صوت الحُلي في يد الغواني. ذلك الظاهر، أما الباطن فهو حديثه لنفسه: غربة وعجز يضطره أن يقصد من لا يطابق توجّهه. انثنى بالخيبات تلو الخيبات، وكان أشدَّها عليه بوار مشروع سيف الدولة الوحدوي، وعجزه عن تخليص العراق من البويهيين الفرس،

وفشل حركة القرامطة الثورية، وتبدُّد حلمه في منصب مع كافور، ثم خبر وفاة خولة، محبوبته التي أخلص لها الحب. لم يبقَ له إلا أن يستمتع بجمال الطبيعة، يسلو بها عمّا يحمل من هم ويجلو مِن ألَقِها ما ينتابه من كدَر. وما محدّثه إلا حصانه. حريٌّ بك أن تستمتع بالساعة التي أنت فيها. وهل يُجدي أن ندع جمال الحياة ونُضحّي به من أجل جنون الذات؟ وما حصانه إلا لسان ضميره. هل هناك شيء يستحق أن نأسى له ونصارع من أجله حتى لينسينا كل شيء. حتى لينسينا الحياة. وما شِعب بوان إلا الحياة. أو النظر الذي يكتشف جمال الأشياء، بعد الخطوب والأهوال والخيبات.

كنت قد وقفت على قصيدته التي تلاها قبل شِعْب بوان لعضد الدولة البويهي تسعف في فهم حالته الجديدة، والتي مطلعها:

أوْهِ بديل من قولتي واها لمن نأتْ والبديل ذكراها

لقد أضحى ما كان حرف تعجب وهو «واها» أداة توجع «أوْهِ». لقد تحول السرور إلى نكد. لم يبقَ ممن أحب وما أحب، إلا الذكرى. وفي هذه الذكرى يرسم حقيقته، ويدلف رويداً إلى نهايته. ألم يقل بعدها وهو بشيراز في كنف عضد الدولة:

وأيّاً ما شئت يا طُرقي فكوني

أذاة أم نـــجـــاة أم هـــلاكـــا؟

ها هو ذا قاب قوسين من الموت، يحس به ولا ينثني. يمشي إليه واثق الخطى، في صحراء واسط ما بين فارس والعراق، لأنه كان يدرك حدساً أن له عنه في الخلود بديلاً.

كنت قد انتهيت من استحمامي وأنا أتفكر في ذلك وقد لففت الفوطة على جسمي وناديت عليه:

- لو أذنت أبا الطيب، أحكمْ إغلاق باب الشرفة حتى لا يصيبني البرد. وقُل لمحجوبة أن تهيّئ لي ملابسي، لا شُلت عشرك.

ردّ علي ممازحاً:

- هل من خدمة أخرى، أيها البربري؟

قلت له وباب الحمّام موارب وأنا أحلق ذقني:

- ينبغي أن تحكي لي ظروف مقتلك. يكتنفه غموض كثيف.

انتهى إلي قوله:

- وما شأنك ومقتلي؟ ألا يهمك مبعثي؟

بعد الذي وقع ما بين المتنبي ومحجوبة، وانتهائها بالاستئناس به، لم يطرأ شيء يعكر صفو جمعنا. كانت محجوبة تخلو لشغلها، وكان المتنبي يلزم مكتبي سحابة النهار، فلا نلتقي إلا ليلاً في الصالون، وكنت أفضِّل الاشتغال بغرفتي، إن لم يصرفني شيء خارج البيت، حيث لي طاولة صغيرة، لدفء الغرفة ونأياً من فوضى مكتبي، لا أقصده إلا حين أحتاج مرجعاً، فأجد المتنبي إذْ أغشى المكتب وهو ممدد على السرير، يحملق في السماء، ينظر نظرة غائمة، وهو غائر في صمته. كان كمن يخفي شيئاً. لم يكن في حالة طبيعية. سألته مرة فألقى على مسامعي قوله:

لحى اللّه ذي الدنيا مَناخاً لراكب
فكل بعيد الهمِّ مُعذَّبُ
أحِنُّ إلى أهلي وأهوى لقاءهم
وأين من المشتاق عنقاء مُغْربُ

لم ألحفْ بعدها في السؤال ولم يُفْضِ لي بشيء.

كنت أشتغل حينها حول سبينوزا، ولم أكن درسته في شبابي،

وكان من الضروري أن أقف عند هذه الحلقة الأساسية الممهّدة لفكر الأنوار. هو الرابط ما بين عقلانية ديكارت وفلسفة الأنوار، وهو المرحلة الأساسية للانتقال من مؤثرات الفكر الغيبي إلى الفكر الموضوعي، من خلال القراءة الفلسفية التي أجراها للتراث اليهودي. كان هذا الجانب ما يهمّني في دراستي لسبينوزا، من خلال كتابه **علم الأخلاق**. كان اللامنطوق في هذا السؤال، هل نستطيع نحن من داخل الحضارة الإسلامية تحرير الإنسان بقراءة نقدية للتراث؟ كان يبدو من قبيل التضارب أن يحرِّر سبينوزا الإنسان، من خلال تصور جديد للميتافيزيقا، أو فهم جديد للإيمان، أو الإيمان بالله بشكل مغاير غير ما حمله الكتاب المقدّس. كان هذا التعريج بالميتافيزيقا مستغرباً، إلا أنه كان يبدو ضرورياً. فالأخلاق ليست تلك النابعة من النصوص الدينية، أو تأويل لها، أو ما تفرضه سلطة معيّنة، بل تلك النابعة من الذات، ومن الضمير، والتي يحمل إليها العقل. لا ينبغي والحالة هذه رفض التراث، أو فهم حرفي للنصوص، بل استعادتها. كان مغرياً أن نجري مطابقة ما بينه وما بين ابن رشد، ونرى أن ما قام به سبينوزا هو ذاته ما قام به ابن رشد في **فصل المقال**، من تطابق مَصدري الحكمة: الشريعة والحقيقة. كانت تسكنني فكرة مفادها أن نبتة سبينوزا تحمل أريج الأندلس، وأن الأندلس هي تربة العقلانية مع الروح، منذ سينيك، إلى أورتيگا إي گاسي، مع فكرة العقلانية الحيوية عنده، مروراً بابن باجة وابن رشد وابن ميمون وابن طفيل، وأن سبينوزا لذلك هو فرع من تربة الأندلس أكثر منه من تربة هولندا. هاجر أو هُجّر من الأندلس، واستقرت أسرته بالبرتغال من هؤلاء الذين حملوا التزاوج ما بين التراث

اليهودي والمسيحي، والمُسمّون بالمارانوس. ومن البرتغال ارتحلت أسرته إلى أمستردام. حججتُ إلى ذات المكان الذي احتضن المارانوس القادمين من البرتغال، ولا يزال الكنيس يحمل اسم البيعة البرتغالية. أضاع المهجَّرون كل شيء من عقيدتهم، واستقدموا حاخامات من المغرب كي يُعلّموهم دينهم. حرصت أن أقف بذات المكان الذي درج به سبينوزا. نظرت إلى المقعد الذي كان يجلس عليه للصلاة أو لدراسة التوراة. كان يلزمني هذه العلاقة الوجدانية مع الأمكنة، وكنت أستطيع أن أصيخ لها، وأفهم عنها، بل كنت لا أستطيع أن أنفذ إلى أسرار فكر وفهم وتصور من دون وقوف على المكان، وسحر المكان، وسرّ المكان. كنت أدرك دعوة الشاعر ما قبل الإسلام إذ يقف على الأطلال يحدّثها وتحدّثه، ولم أفهم لِمَ لم يدرك شاعر كبير مثل أبي نواس الغاية من وقوف الشاعر على الأطلال واستنطاقها. كان يهزأ من أولئك الذين ينسجون على منوال شعراء «الجاهلية»، مثلما يقول في هذه الأبيات التي يحفظها المتأدّبون:

عاج الشقيُّ على رسْم يسائله
وعِجت أسأل عن خمّارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسَد
لا دَرّ درّك قلْ لي من بنو أسد
ومَن تميمٌ، ومن قيسُ، وإخوتُهم
ليس الأعاريب عند الله من أحد

لم أكن أحب مصطلح الشعر الجاهلي. وهل من الجهل شعر

أمية بن الصلت، والسموأل بن عادياء، والحارث بن حلزة، أو النابغة الذبياني، وحِكم أكثم بين صيفي وقس بن ساعدة الإيادي؟ يُدرَّس شعر ما قبل الإسلام باعتباره شعراً جاهلياً. . . أليست هذه نظرة أيديولوجية؟

كنت أحب من سبينوزا قولته إن ما يفضي إلى السكينة هو الفهم. والفهم هو الغائب عندنا لأننا مكبّلون بالهوى، مقيّدون بالمصالح وتغلب علينا التقاليد، من دون إدراك لها، وينوء بنا تقديس التراث، من دون نقد له. وليس هناك من أداة للفهم سوى العقل والحرية. الحرية تحرُّر، عملية اقتلاع من كل القيود والعوائق والمكبّلات. من أهم القراءات التي أجريت لسبينوزا تلك التي قام بها الفيلسوف الفرنسي دولوز، وقوله إن فكر سبينوزا هو تحرير من القس، ومن الطاغية، ومن العبودية. هو تحرير من السلطة الدينية، ومن الاستبداد، ومن إصر العادة، أو لذة المتع العابرة. قرأت نتفاً من كتابه سِفْر الثيولوجي السياسي والعلاقة التي يربطها بنوعية النظام والقيم السائدة. النظام الأحادي أو الملكي يضمن الأمن، والنظام الأرستقراطي يضمن الحرية، والنظام الديمقراطي هو من يضمن الحرية والعدالة، وإذ يضمنهما يضمن من ثمة الأمن والاستقرار. الترجمة بالعربية لا تفي بمؤدّى المفاهيم السارية في الغرب لـ République وMonarchie. فهما لا يعنيان مَلكية أو جمهورية، بل حكم الشخص الواحد للمفهوم الأول، والشيء العام للثاني، ولذلك يلزمنا أن نفكِّر في القوالب التي انتسجت في الغرب، وإلّا توجّب علينا لا أن نترجم المصطلحات، بل أن نصوغ مفاهيم، أو نصوغ مؤدّاها وما يقابل معناها كي نستطيع التفكير. لا تتطور

الشعوب إلا إن آمنت بقوة الفكرة، وهي لا تستطيع ذلك إلا إن كانت حرة، وهي لا تكون حرة إلا إن عاشت في كنف العدل، وسادتها قيَمه وقامت به ميكانيزماته، من دولة القانون، والتوزيع العادل للثروة، والحق في التعليم والصحة. سيادة هذه القيم تُغيّر طبيعة الحكم، مثلما أن طبيعة الحكم تسعف في انتشار تلك القيم. الدافع للأمن قد يكون الخوف أو الطمع، وهو شعور غير مستقر، لأن الخوف كما الطمع قد يفضيان إلى التمرد، في حين أن الحرية والعدل يقومان على الاحترام. احترام متبادل ما بين الحاكم والمحكوم، بين الرجل والمرأة، بين المعلم والتلميذ، بين المواطن ورجل الأمن. توزيع مهام، لا غير، ولذلك ثبتت الأنظمة الديمقراطية لكل محاولات تقويضها والنيل منها، رغم ما قد يبدو فيها من تحلُّل، لأن هناك ترابطاً بين مكوناتها. لأنها تقوم على الاحترام لا على الخوف والطمع.

كنت وقفت على قولة لسبينوزا، يقول فيها إن كل ما يتميز أو يتفرّد غريب، ووجدت تطابقاً غريباً مع شطر للمتنبي يقول فيه: إن النفيس غريب حيثما كانا.

راودتني الفكرة أن أحدّث المتنبي بالأمر، ولكني أحجمت. سأجد عنتاً شديداً كي أُعرّفه بمراحل الفكر الغربي ومفاهيمه، ولست على يقين أنه يستطيع أن ينسلخ من إسار عصره، لغته ومفاهيمه. كان يمكنه ذلك بجهد. كان يمكن للمتنبي أن يخرج إلى الهواء والحياة العامة، مع عملية قولبة. هناك أشياء تهيّئه أن يفهم العالم، وهي إيمانه بالعقل، وهناك أشياء ينبغي أن يبرأ منها لا تتيح له أن يلتئم مع عالم اليوم، وهو اعتداده بنفسه، وهو إيمانه بقيم البداوة، من سيف

وسبي وتمسّح وهجاء. . . مثل كل الذين يؤمنون بتلك القيم، أو تسكنهم تلك القيم. كنت أخذت عنه ألّا يبرح الشقة، لأنه لن يفهم العالم المحيط به ولن يفهمه العالم، وقد يكون شرّ ذلك أكثر من نفعه. كيف أقبل من جانبي أن أحمل بني عصري على قبول قول كهذا القول الذي يراه المتنبي غاية المديح:

وأكثرُ في مجالسه استماعاً
فلانٌ دقّ رمحاً في فلان

أو قوله:

وإذا القلوبُ أبَت حكومتَه
رضيتْ بحكم سيوفِه القُللُ

أي الرؤوس، أو قوله:

وكمْ من دم رويتْ منه أسِنّتُه
ومُهجةٍ ولَغَت فيها بَواتره

أو قبوله للسبي:

أخو الحرب يخدم مما سبى
قناه ويخلع مما سلب

أو بيته المأثور:

لا يَسلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذى
حتى يُراق على جوانبه الدّمُ

كنت في حقيقة الأمر في شغل عن المتنبي، وكنت مستغرقاً في التراث الأندلسي، في هذه السابقة التي تزاوج فيها الشرق والغرب، والعقل والروح، والجلال والجمال، والبهجة والفعالية، حين طرق

المتنبي بابي، وغشي سكني ولازمني، فقلب سُلَّم أولوياتي وبعثرها رأساً على عقب.

لماذا حلَّ المتنبي عندي؟ في اللحظات الأولى من الفجر أصحو وأجري على نفسي حساباً أو مساءلة. في هذه اللحظات من التأمل يحدث ما يحدث لإناء تختلط فيه المواد في سائل، فتترسّب في أعماقه رويداً رويداً إلى أن يصفو الإناء، وتنفصل أمشاج السائل المختلطة، وتتضح الرؤية بعدها.

عودة المتنبي، أو العودة إليه، تُذكّر بشيء اعتور حياتي، من لحظة حاسمة في مسارها. في فوعة شبابي. كنت أعيش بواشنطن رفقة فتاة مغربية كنت مقترناً بها. كان موثقنا الحب، وكان جو الغرب يكلؤنا، ولم يكن لنا إلا أن نُرسّم علاقتنا حينما يتهيّأ لنا ذلك. وأُدخلت المغرب لأني كنت متهماً بالتآمر ضدّ الدولة، وربط صلات مع أعدائها، وعدم الإيمان بما توطأ الناس حوله. كان ذلك كله أضغاث أوهام، ولكنه أجهز على مساري. ولم يعد الحب، وقد حللت ببلدي، ما يربطني بمن اقترنت ولكن المواضعات الاجتماعية. كان علي أن أتزوج على سُنّة الله ورسوله، وكيف، ولم يكن لي حينها مورد؟ وتبددت الفتاة التي أحببت، لا لأنها لم تعد تحبني وإنما لأنها خضعت لضغوطات تُحذرها الاقتران بشخص مشبوه تحوم حوله الظنون، ليس له نسب ولا نشب، فانتهت أن رضخت لواقع الحال ونأت عني.

لم أجد أنيساً حينها إلا في قراءة ديوان المتنبي وقد اعتزلت في زاوية قرب وجدة، عند مُقدمها السي العربي الخلوفي قبل وفاته. اشتريت ونحن نتجول أنا وإياه في المدينة غير بعيد من سوق مليلية

بوجدة **ديوان المتنبي** وكتاب **مع المتنبي** لطه حسين من تلك الكتب التي تُعرض على الأرض بأثمنة زهيدة. أخذني بعدها إلى سوق الفلّاح، واقتنى منه تمراً وتيناً مجفّفاً.. كانا طعامَنا غالب الوقت، وكان المتنبي أنيسي حينها. كنت أتعافى. كنت أشكو انهياراً عصبياً جرّاء ما رمتني به الدولة «من تآمر على أمنها وتواطؤ مع أعدائها»، ونضوب المورد ونأي الفتاة التي أحببت. فرّت بجلدها، أولى لها فأولى، وقد انتهت إليها الشبهات التي تحوم حولي. كنت أقرأ شعر المتنبي في الزاوية، قرب الجامع الكبير الذي بناه المرينيون، غير بعيد عن الباب الغربي، مع السي الخلوفي، ولم تكن المَشْيَخة قد انتقلت إليه بعد، وهو يكلؤني بعطفه ويحيطني برعايته. كان أستاذاً للآداب في الثانوي لا يُشَق له غبار في الأدب العربي واللغة العربية. كان ظاهرياً خارج الزمان، لا يبدي اهتماماً بما يطفو من أحداث. قليل الكلام لا ينطق إلا همساً، ويشفع حديثه بابتسامة حزينة. لم يكن يلبس إلا الجلباب المغربي، ومن تحته تبان، ويستنكف أن يلبس من فوق التبان قميصاً. يغطّي رأسه بغطاء الجلباب وقد لفّ جنبه. يحني رأسه وهو مختبئ يردّد ورده، فإذا انتهى من الذكر، ونحن بحوش الزاوية، ابتدرني بلهجة الشرق:

- الْغِ (ناد) للمتبني؟
- بالصح؟
- يقول اللي في القلوب. ولو ما يامن ش بربي.
- يامن (يؤمن) بالإنسان.
- ما يامن إلا بروحو. ولكن كلامو غاية. النور يخرج من النار. اش نقول لك، اللغة العربية، حاجة كبيرة.

- زعم؟

- والله. محسوب اللي يعرفها مليح. بالصح راها تضيع دروك. يا حسرة. الناس نتاوعها ما يستعرفوش بها. يهملوها. وهمَ بروحهم هاملين. واه. أيه برْدي وا بردي[1]، عليك ألعربية.

- اللغة أو المرأة؟

يبسم.

كان يروق لي الحديث إلى السي الخلوفي، ويروقني الاستماع إلى لهجته الوجدية. أقطع حديثه بتلاوة لقصيدة للمتنبي كانت تعجبني وقد أخذت ناقتُه تسخر منه، وهو ينتقل بين أمراء يمدحهم كالأصنام وليس فيهم عفة الصنم. يأخذ حينها السي الخلوفي في التأوّه وأنا أسرد الأبيات التالية:

توهَّمَ القومُ أن العجزَ قرّبنا
وفي التقرب ما يدعو إلى التُّهم
ولم تزلْ قلّةُ الإنصاف قاطعةً
بين الأنام ولو كانوا ذوي رحِم

يزفر زفرة حَرى، ثم ينشد:

هوِّنْ على بصر ما شق منظره
فإنما يقظات العين كالحلُم
ولا تَشَكَّ إلى خلق فتُشمتَه
شكوى الجريح إلى الغربان والرَّخَم[2]

---

(1) نداء حسرة يستعمل في شرق المغرب وغرب الجزائر.

(2) لا تَشَكَّ: بمعنى لا تشتك. الرخَم: نوع من الجوارح الخسيسة.

وكنْ على حذَر للناس تستره

ولا يغُرّك منهم ثغرُ مبتسم

غاض الوفاء فما تلقاه في عِدّة

وأعوَزَ الصدقُ في الإخبار والقَسم

أتممُ:

سبحان خالقَ نفسي كيف لذّتُها

فيما النفوس تراه غايةَ الألم

الدهر يعجب من حملي نوائبَه

وصبرِ جسمي على أحداثه الحُطُم[1]

ثم يشفع بالدعاء:

- اللهم اغفر لنا، وتب علينا وارحمنا وثبتنا عند المسألة.. اللهم كُن لنا ولا تكن علينا. اللهم اجعل لنا من كل ضيق مخرجاً، ومن كل كرب فرجاً، يا أرحم الراحمين، يا ناصر المستضعفين ويا قاهر المتجبّرين.

ثم يأخذ في الحديث عن الوضع بالعراق والحصار المضروب عليه وتجويع سكانه، وعن مسلمي البوسنة والتطهير العرقي الذي يتعرّضون له، والحدود المغلقة بين الجزائر والمغرب، والاقتتال الدائر في الجزائر. يمسح دمعة وهو يردد: «شفني حالكم يا ولاد امّا».

أسعى أن أُسرّي عنه فأتلو أغنية من الغناء الجزائري حفظتها يافعاً:

---

(1) الحطم: بمعنى المحطمة.

- يا ابن سيدي وخويا، ويا تمگاني[1]
ماشي غير زْواح وقول درت امراة.
تنبسط أساريره. يسألني:
- تعرف الأغنية؟
- واه.
- تعرف قصتها؟
- لا.

ثم يحكي لي قصة صاحبها وقد كان قاضياً بسيدي بلعباس في منتصف القرن التاسع عشر، وذكرى مقاومة الأمير عبد القادر غضة في الأذهان. أغرم بفرنسية وتزوّج منها، وأصبح غرضاً لانتقادات الناس، فارتحل إلى فاس، واستقرَّ بها ونظم بها قصيدته في شأن من أحب.

يقول قوله ثم يمسح دمعه. لم أفهم معنى الدمع حينها.
كنت أرتوي من صحبة الخلوفي.
ابتدرني مرة وقد خلونا في حوش الزاوية:
- راك تعرف الدزاير (الجزائر) مليح؟
- شوية برْك.

أجبت بلهجة الجزائر. أبتسم. حدّثته عن جذوري الصحراوية، من فضاء لم يكن يعرف الحدود، وينتقل ذووه من نقطة إلى أخرى طلباً للنجعة بلا حواجز. انتهى المطاف بأجدادي أن استقروا بواحة،

---

(1) التمگان (بجيم مشمومة): بمعنى التأمل. الكلمة كانت مستعملة في شرق المغرب وغرب الجزائر، وأصلها إسباني من المگانة، أي الساعة، التي تحيل على التدقيق.

ولكن ذهنية الصحراء ظلّت تسكنهم، وأحسب أنها انتقلت إلي. كان جدي من العمّال الذين ينتقلون للاشتغال «في لانجيري»، وحفظ من ذلك تعلُّقاً بها وحباً لأهلها. أما أبي فقد حمل السلاح ذبّاً عنها، وقد قصف الفرنسيون صيف 1956 عين الشعير الحدودية، وارتبط بصديق له من العين الصفراء كان عضواً في جبهة التحرير المرحوم شعبان.

ينظر إلي الخلوفي فلا يحير ردّاً. يعقّب:

- نقول حاجة. ما كان ش في الدنيا خير من تلمسان. جنة فوق الأرض.

- تعرفها ياسر؟

- محسوب تسكن قليبي. نعرفها بكري. دروك ما نعرفهاش. هاذو وذوك بلّعو الحدادة. تعرف علاه نحبها؟ هي اخت غرناطة.

ينبري بعدها يغني من الغناء الغرناطي بعد أن يتأكد ألا أحد يسترق السمع، بصوت شجي من الغزل العفيف:

- أنا يا خوذات يوم الجمعة خرجوا زايرات الولي.

أعقّب:

- ما راك ش ساهل أس العربي.

يردّ:

- لا يُكرمهنّ إلا كريم ولا يهينهنّ إلا لئيم.

ثم يردف بحكمة أبي عطاء الله السكندري:

- «معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزّاً واستكباراً».

كأنما يدعوني ألا أستفسر عن سالف حياته. كنت علمت بعدها أنه كان مرتبطاً بفرنسية، وأنه كان محبّاً للحياة، مقبلاً على ملذاتها. لم تكن قصة قاضي بلعباس إلا قصة الخلوفي. كان أحب فرنسية من وهران، وأنجبت منه ثم فرّقت بينهما حرب التحرير. ارتحلت لفرنسا، ومعها بنتهما. ولربما كان ذلك الجرح هو سبب تسامي الخلوفي.

يشفع وقد أنهى الغناء بصوت شجي، بالتبتل على القطب سيدي بومدين كما ليُكفّر عن غزله العفيف:

- سيدي بومدين جيتك قاصد، أجني في المنام نبرى

سيدي بومدين يا السيد، راني مدقوق بالشفرة.

يزيح الدمع من عينه. لم يكن حزنه لشخصه، بل لعالمه. كان كلّما تحدّث عن شيء من أمور الدنيا، شفع بآية أو حديث أو دعاء، كمن يمحو حوبة. تلا إثرها الآية: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

تأتي أخته للا حنيفة، مبتهجة، ونحن بالحوش. تبادرني، من دون لقب، بلهجة وجدة:

- قرأت الحزب ودعيت (دعوت) مع السادات؟

أردّ في رفق:

- الله يرحم الجميع.

ينظر إليها الخلوفي في شيء من العتاب:

- هو يقرا القران بقلبو. القرآن ينقرا بالقلب. الأعمال بالنيات. يالله، أحنيفة اعتقينا. جعنا، اللي قسّم الله.

كمن يريد أن يصرفها عن أشياء لا تستطيع أن تفقهها. تُقدِّم لنا من الطعام ما يقيم الأوَد. نُكب عليه في خشوع. لا نخلطه بالكلام. نأكل الكسكس باليد لا بالمِلعقة. فإذا فرغنا من الأكل، ونحن نرتشف من الشاي نتحدث على السجية. يدعوني أن أقرأ عليه نتفاً من ديوان المتنبي، وهو يراجعني في بيت أو شرح أو معنى إلى أن ينال منا النَّصب. ننام بعدها في الحوش، والزمان صيف، تحت قبة السماء حتى الفجر. يوقظني. نتوضأ ونصلي النوافل قبل أن يلتحق الفقراء بالزاوية فنصلّي الصبح، ونقرأ بعدها الحزب جماعة. نشرب إثرها الحساء ونأكل التمر، ثم نغفو بعدها، فإذا كان الضحى انصرف لقراءة النفح الطيب للمقري. يضع الأجزاء واحداً فوق الآخر، يخرج نظارته في تؤدة، ويكبُّ على الجزء الذي كان بصدده. كانت تلاوة وتهجُّداً. كانت صلاة للأندلس وصِلة.

ليلة المغادرة اصطحبني لحمام الجردة، غير البعيد عن الزاوية. هو من ملأ صحون الماء، وهو من مزج الماء الساخن بالبارد. كان الذهاب إلى الحمام إيحاء يحيل إلى التطهر الروحي. عند الغداة رافقني إلى محطة القطار. أهداني حكم عطاء الله السكندري وسبحة. حتى إذا صفر حارس القطار، مؤذناً بأزوف المغادرة، أخذ يدي وقبّلها. أخذت يده أقبّلها، وظللنا للحظة نقبّل كلينا يد الآخر. الحارس يلحف أن أركب القطار. ركبت المقطورة. بقيت يده ملتصقة بي وأنا على بابها، إلى أن تحرك القطار، فاضطررنا للانفصال، شرع يمشي في اتجاهه ثم أخذ يهرول، إلى أن جاوزه القطار فتوقف وأنا على باب المقطورة. رأيته يمسح دمعة من عينه. كان الخلوفي قد تعلّق بي، وكنت أشعر به معي قرير العين، منشرح الصدر.

أنقذني الخلوفي. أضحيت شخصاً آخر وقد عدت. تعافيت ولكني حملت نفسي آثار ندوب. لم أغفر للفتاة التي غلّبت منظومتها، ورضخت لضغوط المجتمع، وضحّت بعشرة وبعلاقة يطبعها الحب. صدّها ما كان ينتهي إليها: صحراوي، بيربريست (أمازيغي متطرف)، متمرد، مخرب، علماني... كان يترصدني واقع كالح وقد عدت إلى الرباط، من تخرّصات عمالة وأنباء خيانة ونضوب مورد رزق. تبلّغت ممّا اضطلعت به من تدريس أو ترجمة وقد فُصلت عن العمل، وكان علي أن أنهض ضدّ منظومة لم تقبل بي. اكتشفت عمقي الأمازيغي حينها أو رغت إليه. كنت قد تعرضت للأذى لا لأني كنت ناشطاً أمازيغياً، بل لأني كنت أحمل بالقوة مكونات ذلك الوعي، في اسمي وأصلي، ولم يعد وارداً أن أواري ما أحمله في وجداني. كيف أداهن بعد اليوم منظومة لم تقبل بي وفتنتني؟ حرمتني الرزق، وحرمتني الأمل، وفصلتني عمّا يصوغ الحياة. أردت من الأمازيغية آلة حرب ضدّ منظومة. هل يدرك أولئك الذين يتكالبون على الأمازيغية، ويتطيّرون ممن يعتبرونهم غلاة، من غلو واقع، وتجبر منظومة، وما أفضى إليه من تشتيت أُسر والإجهاز على مسارات؟ هل يدركون تلك الندوب الغائرة التي يسميها الفيلسوف Avishai Margalit بندوب الاحتقار؟

ألستُ أعيش التجربة ذاتها التي عشتها ربع قرن خلا؟ هجرٌ بعد وصل. قطيعة مع منظومة، وهجرُ مَن أحب. علاقتي ببشرى تمرُّ بامتحان. نافرة. متنائية. أحببتها، بل أحبها لِما وجدت فيها من وديعة الشيخ الخلوفي. أصولها التلمسانية كما الشيخ الخلوفي. هواها بالغناء الغرناطي. تعلقها بالتراث الأندلسي... كنت أردِّد أنها

من أخذ بيدي في رفق إلى هذا التراث وكأنها أرادته مَهراً لعلاقتنا. . . لست أستطيع أن أقول كل شيء في علاقتي ببشرى لأنها ليست من الماضي، ولكنه حاضر مشروخ. أنا مدين لها في هذا الولع الذي يسكنني بتراث الأندلس، ولكن مَن قدح تلك الشرارة غير الشيخ الخلوفي؟ ما بُشرى إلا روح الشيخ الخلوفي سكنتها؟ لست أنسى أني زرته في زاويته خريف 1999، وكنت حينها من عِلية القوم. عهدٌ جديد تصالح فيه المتناحرون. ولم أكن ممن تصالحت معه المنظومة فحسب، بل كنت من ذؤابتها وقطباً من أقطابها. سلّم علي الشيخ الخلوفي سلاماً بارداً في الحوش، وهو يحمل إناء للوضوء ويرتدي جلباباً أسود، والغريب أنه لم يطوِ غطاء الجلباب فحجب وجهه كما لو أنه استنكف أن ينظر إلى العالم وإليّ أو إلى وضعي. ظلَّ لون الجلباب عالقاً في ذهني، ولا أدري لمَ رأيت فيه حينئذ قسّاً منعتقاً من إسار التاريخ يتعبّد في دير، ويصلي في كنيسة. الثابت هو تديّنه، والمتحوّل هو طريقة تديّنه. رفع رأسه من غطاء الجلباب ثم نظر إلي كمن يتفحّص وجهي، حتى إذا استيقين مني أرسل مستفهماً «لا باس؟» دون أن ينتظر ردّي أو ينظر إلي، ثم انفتل بعيداً عني إلى مخبئه ليتلو ورده، غير عابئ بي. ولم أفهم حينها. واخذته في قرارة نفسي. توفي بعدها بسنتين. زارني إثرها ابنه البكر ليقول لي إنه أوصى بمكتبته لي. حسبت أني غُضْت من عالمه. كان من أهل الدين، وكنت من أهل السياسة حينها، ولم يُرد أن يقترن بي آنذاك. لم يكن ليطمع في شيء، ولا كان ممن يخشى أحداً. كان قد غرس بذرة الأندلس في أحشاء نفسي وغياهب وجداني. زرت دمشق في السنة ذاتها التي توفي فيها الخلوفي ووقفت على قبر الشيخ

الأكبر، محي الدين بن عربي، كأنما لأترحّم على الخلوفي. واقتنيت ثمة الذخيرة لابن بسام، غير بعيد عن ساحة الحجاز، لأَبَرَّ بوديعة الخلوفي، ووقفت على قبور الجنود المغاربة بمقبرة نجها بسفح الجولان لأفخر بما حمّلنيه الخلوفي. كانت روح الشيخ الخلوفي وأنا أذرع أزقة سوق الأحمدي تطوف في المكان. البائعون يعانقوني ويهشون بي. بالسوق الأحمدي وبلودان وقاسيون وفي كل مكان من الفيحاء. لم يكونوا يهشون لشخصي بل لما أرمز إليه. كنت أشعر أن روح الخلوفي سكنتني حينها، وأن الذين كانوا يحيونني كانوا يُحيّون الشيخ الخلوفي، وأني حامل لروح الشيخ الخلوفي. الشيخ الخلوفي روح الأندلس وأريجها يضوع في جِلَّق، وقد عرفت له جِلَّق ذلك. جسدٌ هو جسدي يمشي في أرجاء دمشق، وروحٌ هي روح الخلوفي تطوف في الفيحاء. لا يمكن اليوم أن أتغاضى عن الفيحاء وهي مضرجة بالدماء، ولا الشهباء، وهي أنقاض، ولا عن بُنَيَّة الشام، وهم يعيشون نكبة، ما ألظّها، بعد كل النكبات التي ابتُلوا بها. ولعلّ المتنبي أن يكون انسلَّ من هذا الجرح كي يحل عندي.

بشرى هي التربة التي احتضنت غرس الأندلس. الخلوفي هو من غرس البذرة ووضعها في حشاشتي. بشرى أنا من صغتها وليست هي من صاغني. أو على الأصح أنا من بعث فيها تراث الأندلس من وديعة الخلوفي. أنا من أودعها روح الأندلس. أنا من لقّحها بتلك البذرة التي غرسها الخلوفي وما توحي إليه. لِم تنأى عني؟ تزعم العكس. تزعم أني المتنائي. أني من قطع العهد، وصرم الحبل. لو تذهب بشرى، أليس حبل الخلوفي ما قد ينصرم، ووديعته ما قد يغيض؟ أم تراه يتحول، وينتقل من الذكرى إلى الفكرة. تُرى هل

يحل المتنبي كما حلَّ قبل ربع قرن يواسيني ويؤسيني لننهي ما لم يكتمل، أو نستأنف حيث توقفنا؟ من حدث، فذكرى إلى فكرة، يتخللها جميعها، حلم أو لربما الجنون؟

كنت غائراً في ذلك كله، أتأمل هذا الحلول للمتبني في هذا الرباط حين انتهت لي خشخشة. نهضت من الطاولة في رفق. مشيت الهوينى نحو مكتبي. انتهى إليّ صوت محجوبة وهي تتحدث إلى المتنبي، متودِّدة إليه، مستجدية إياه كي يسرد عليها شيئاً من شِعره.

وضعت أذني على الباب، وسمعت محجوبة تقول له بدارجتها العفوية:

- عافاك، قل لي شي حاجة من كلامك. كيعجبني بزّاف، بزاف.

انتهت إلي ابتسامته وهو يرد عليها:

- أتحبين شِعري يا محجوبة؟

- ما نبغيهش؟ أخْلى دار العدا. كيف ما نبغيهش؟ نبغيه بزاف بزاف.

- أتحبين شعري أم تحبينني؟

- نبغيك ونبغي كلامك، حيت أنت هو كلامك، وكلامك هو أنت. أنت شامة الوجه. أنت عمود الخيمة. أنت عمارة الدار.

- أنا كهل يا محجوبة. أخنيت وتوالت علي السنون، ونالت مني صروفها. أنت تنظرين إلي بعين القلب.

- أنت مول (صاحب) العقل. أنت مول (صاحب) الكلمة. أنت صاحب النخوة.

ثم أسمعه ينشد:

مُنًى كنّ لي أن البياض خضاب
فيَخفى بتبييض القرون شباب[1]

لماذا اختار المتنبي هذه القصيدة؟ هل أراد أن يُعرّض بي ويذكرني سنّي وانصرام شبابي؟

يسترسل في النشيد:

فكيف أذم اليوم ما كنت أشتهي
وأدعو بما أشكوه حين أُجاب

دفعت الباب بركبتي بقوة. ما أن انفتح ورمقتني محجوبة حتى صرخت:

- ويلي، سيدي؟

ثم كي تدفع عنها التهمة، ردّت:

- ما شي أنا، هو أسيدي اللي..

لم أُعرْها اهتماماً وانبريت أردِّد من قصيدة المتنبي:

وفي الجسم نفسٌ لا تشيبُ بشيبه
وتبلغ أقصى العمْر وهي كعاب

وإني لنجمٌ تهتدي بي صحبتي
إذا حال من دون النجوم سحاب

غنيٌ عن الأوطان لا يستفزني
إلى بلد سافرت عنه إيّاب

ثم أخذ عني تالياً:

وللسرّ مني موضع لا يناله
نديمٌ ولا يُفضي إليه شراب

---

(1) القرون: ضفائر الشعر.

ولـلـخَـوْذ مـنـي سـاعـة ثـم بـيـنـنـا
فـلاة إلـى غـيـر الـلـقـاء تُـجـاب[1]
ومـا الـعـشـق إلا غـرّةٌ وطـمـاعـة
يُـعـرّض قـلـبٌ نـفـسـه فـيـصـاب
وغـيـر فـؤادي لـلـغـوانـي رمـيـةٌ
وغـيـر بـنـانـي لـلـزجـاج ركـاب

ختمت:

أعزّ مكان في الدُّنى سرجُ سابح
وخير جليس في الزمان كتاب

كانت محجوبة منكمشة قد التصقت بالحائط تحملق في كلينا وقد ارتاعت أني كشفت خدرها... ثم انفتلتْ مسرعة وهي تردِّد:

- باسم الله الرحمن الرحيم، الدار مسكونة.. سيدي تشيَّر.

لم أشعر إلا وأنا أصرخ في وجهها:

- المشَيْرة هي حنّاك[2].

(1) الخوذ: الشابة الناعمة.

(2) تَشيّر: جُن باللهجة المغربية، والمشيرة هي حناك، هي أمك، بمعنى أنت هي المجنونة.

عدت بعيد الخامسة بعد الزوال، بعد أن فرغت من درس بالكلية. كانت محجوبة قد أنهت شغلها وغادرت الشقة. ناديت على المتنبي فلم يَرُد. بحثت في الغرف كلها فلم أجده. كنت حذّرته الخروج، وحذّرته مغبات ذلك، من عالَم غريب عنه وأناس يتكلمون لساناً لن يفهمه، ويرطنون لغات مستغلقة عليه، وهو لو حدّثهم فلن يفهموا قوله ولن يدركوا أمره. كان يبدو أنْ قد وعى ذلك، ولذلك استغربت ألّا أجده. نزلت درج العمارة على عجل عوض أن أنتظر المصعد. سألت الحارس با براهيم عن ضيفي، وردّ كي يتأكد:

- بوطيب؟
- نعم بوطيب. .
- شفتُو خرج جهة البرلمان.

سألت بائع سجائر التقسيط القابع في زاوية البناية، ورسمت له ملامح الرجل، فأكّد لي أنه رأى شبيهاً بمن رسمت ملامحه متوجِّهاً نحو محطة قطار الرباط المدينة. ربّاه، ما أخشاه هو أن ينضم إلى جحافل المتظاهرين. . ذهبت تواً إلى قبالة البرلمان وأنا أدفع مناكب الغادين والرائحين، ورأسي مشرئب يبحث عن المتنبي. . وجدت

حلقة لطلبة معطلين وقد رفعوا لوحات كُتب عليها:

عـشْ عـزيـزاً أو مـت وأنـت كـريـم
بيـن طـعـن الـقـنـا أو خـفـق الـبـنـود

وهم يصفقون ويهتفون. كان المتبني يقف قبالتهم وقد ارتدى بذلة عادية، أخذها من صوان ملابسي، واعتمر بيريه هي لي، ولف عنقه بشال، هو لي، دفعاً للبرد.. وهم يشفعون التصفيق بالضحك، وهو ينشد:

فـاطـلـبِ الـعـز فـي لـظـى ودعِ الـذّ
ل ولـو كـان فـي جـنـان الـخـلـود

كان إنشاده يمتزج بهتافات الطلبة المعطلين وتصفيقهم. كانت الجموع المتحلقة حوله تَحُول دون أن أبْلُغه. لم أعرف كيف أحدّثه. خشيت أن أظهر بمظهر المتحذلق وأنا أحدّثه بالعربية الفصحى وسط الشارع: «احذر يا أبا الطيب المتنبي، قد يجرك الأمر إلى الأمن ويحقق معك ويفضي الأمر إلى ما لا تحمد عقباه». ليس هذا ما يليق قوله في الشارع.. صحت أخيراً على أثَره: «وا با الطيب، غادي يجمعوك، رد بالك.. ها واذْني منك».

كانت صرخة في واد ونفثة في رماد. لم يكن يسمعني ولا كان يريد أن يستمع إلي. كان ينشد شِعره، والطلبة يهتفون معه، ويصفقون.. وفجأة تناهى إلي صفير سيارة الأمن.. أردت أن أحذره مجدّداً فصرخت:

- با الطيب، لاراف (سيارة الأمن).. رد بالك.. وسْلَت (انسل) دغية (بسرعة).

كان ذاهلاً عن كل شيء. أما الطلبة فقد تفرقوا مهرعين

لسماعهم صفير سيارة الأمن. . بقي المتنبي لوحده ينشد شعره وسط ضحك المتحلقين. . نزل ضابط أمن من السيارة في اتجاه المتنبي وهو يحمل «طولكي ولكي». . كانت الساحة قد خلت إلا من جنبات الشارع وقد غص بالمتطفلين يتفحصون الشخص الفريد الذي لم يأخذ حذره من إنذار سيارة الأمن، ولا يبدو أنه يعبأ بهم، وهو مسترسل في تلاوة الشعر:

أمَا في هذه الدنيا كريمٌ   تزول به عن القلب الهمومُ
أمَا في هذه الدنيا مكانٌ   يُسرُّ بأهله الجار المقيم
تشابهت البهائم والعبَدَّى   علينا والموالي والصميم
وما أدري إذا داءٌ حديث   أصاب الناسَ أم داء قديم

صرخت في وجهه:

- واسكت خلاص. قفرتِها وما زال ك تقول الشعر.

ذهبت عند الضابط وأنا ألهث. كلمته:

- السيد الضابط، أرجوك، الشخص الواقف هنا هو المتنبي، أعرف أنك لا تصدق الأمر. أنا كذلك لم أصدق بادئ الأمر، ولكنه هو، هو ضيف علينا، وهو مقيم عندي. . . أرجوك، هو لا يعرف القواعد الناظمة لعصرنا.

نظر إلي الضابط بازدراء. .

- كتمشخر علي. . زدتو فيه ألمثقفين، ضرب باباكم الله وبغيتو الناس تضربها جايحة بحالكم ويهبلو كما هبلتو. . . بغيناكم توريوا (تبينون) لنا الطريق، الساعة انتم تالفين أكثر من خورطو (الرعاع) وزايدينها بالفهامات. تمسّك غارق بغريق. ضيف ولا ماشي ضيف، غادي نطبقُ معه القانون.

وقف الضابط أمام المتنبي والمتنبي ذاهل عنه. . كنت أسعى أن أمسك بالضابط كمن يتوسل إليه:

- أرجوك، هو خطأ وقع، أدرك ذلك. لم يكن له ليخرج من شقتي وفعل. . أتعهد أن تكون آخر مرة.

نظر إلي الضابط:

- تزيد كلمة نجمع معك. داير فضيحة قدها قد الخلا، وما باغي ش تسكت. مدخل عندك مهيج ومخرب وك تحل فمك. . .

كان المتنبي ينشد شعره وقد ختم بالقول:

إذا أتتِ الإساءةُ من لئيم
ولمْ أَلُم اِلمسيءَ فمن ألوم

تقدّم إليه الضابط وأخبره بعلة توقيفه:

- تجمهر من دون ترخيص.

وضع الصفدين على معصميه، ثم صاح:

- أجي معنا للكوميسارية. .

لم يمانع المتنبي وركب سيارة الأمن. لا جدوى من الحديث مع الضابط. انفلتُّ بسرعة إلى المقاطعة الأولى للأمن. . لم تكن بعيدة عن البرلمان ويمكن أن أصلها قبل السيارة بسبب اكتظاظ الطرق وتعثّر الجولان. دخلت بناية المقاطعة الأولى للأمن. سألت عن العميد. طلب مني المُداوم أوراقي الثبوتية وانتظرت. في هذه الأثناء، وصلت سيارة الأمن ورأيت المتنبي ويداه مصفدتان يمشي في ردهة الكوميسارية مصحوباً بشرطي نحو القبو. لم يكن يبدو منه الجزع.

أشرت إليه في نوع من العتاب:

- حذرتك، يا أبا الطيب. لم يكن خليقاً بك أن تغادر رباطنا. وهؤلاء أمنيون، لا يفقهون في الوجدان ولا في الشعر، والذكاء أن نُحاذرهم لا أن نقع في براثنهم.

ردّ ويداه مصفدتان:

إن الكِذاب الذي أُكاد به أهون عندي من الذي نقله
فلا مُبال ولا مُداج ولا وانٍ ولا عاجزٍ ولا تُكله
وسامعٍ رُعته بقافية يحار فيها المُنقّح القَوَله
ويُظهر الجهل بي وأعرّفه والدر در برغم من جهله

إلى أن توارى وهو يتلو قصيدته.

كنت أمشي جيئة وذهاباً في الردهة المفضية للكوميسارية في حالة نرفزة. وأخيراً تقدّم إلي شرطي كي يتثبت من اسمي. فلان؟ نعم فلان. «تفضل عند العميد» ردّ..

دخلت مكتب العميد. وقف احتراماً لي. سلّم بأدب. بادرني:

- مساء الخير أستاذ، تفضل.

جلست. سألني:

- هل من خدمة؟

استرجعت أنفاسي وقلت:

- اعذرني السيد العميد على الإزعاج. أنا أعرف أن الأمر قد يبدو سوريالياً. حلَّ عندي ضيف ولم يكن يعرف بقواعدنا وتجمهر من دون ترخيص، أو على الأصح غرر به طلبة معطلون، ثم حينما حضر الأمن هرب الطلبة وتركوه لوحده. هو غريب.

- نحن سنتعامل إيجابياً، وبحسن نية. سنقوم بـ Examen de situation.

- ماذا يعني ذلك؟

- جمع معلومات عن الشخص، ثم نطلق سراحه.

- المشكل أن ضيفي أجنبي.

- هذا يجعل المشكلة أكثر تعقيداً. أنت تعرف الوضع.

- ضيفي لا يهدِّد الأمن في شيء..

- ولو.. نحن ملزمون بالتحريات اللازمة. أنت تعرف التهديدات. داعش وخطر الإرهاب. من أي بلد هو ضيفك؟

أبلست، ابتلعت ريقي وقدّمت:

- من مواليد العراق ثم انتقل إلى الشام..

- داعشي؟

- لا، أبداً. ولد بالكوفة، وعاش ما بين منبج وحلب.

- يا لطيف! بؤرة التهديدات، ومصدر الأخطار، وتطلب مني أن أتعامل مع الأمر بتساهل. هل يهون عليك أن أفقد عملي؟

- حاشا، إنما أريدك أن تستمع إلى قصتي. ضيفي هو المتنبي، الشاعر الكبير الذي درسناه على أرائك المدرسة، من دون شك أنْ قد حفظت:

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخ الجهالة في الجهالة ينعم

- أتممْ القصيد، صاح العميد. ثم أنشد:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى
حتى يُراق على جوانبه الدم

يدعو لإراقة الدم وتريدني أن أتساهل معه؟..

- هو أتى ضيفاً على زماننا، وفي بلدنا، وأرجوك أن نتعامل مع

الوضعية بكياسة. أتعهد بأن ستكون آخر مرة يحدث ما حدث. حلَّ بعصرنا ولا يعرف كثيراً من أمرنا. .

- وهل يريدنا أن نأتمر بقواعد عصره؟ حلَّ بعصرنا فعليه أن يخضع لقواعده.

- إنما عصرنا ليس عصرنا، ولذلك ينبغي أن نرفق به.

- ولِمَ لم يحلَّ عندك نيوتن أو أينشتاين؟

- لا أدري. الوجدان سابق، يبدو لي.

عقب العميد بلهجة جدية:

- الأستاذ، أنت رجل دولة قبل أن تكون رجل فكر، وهل تعتقد أنه من الحكمة أن نتعامل مع الأمر بتهاون. اختلط الحابل بالنابل، وعلينا من أجل ذلك بالحيطة. ما أستطيعه هو أن أجري فحص الوضعية لصاحبك أمامك. .

حمل السماعة وأصدر الأمر بأن يُؤتى بالمتابَع بأعمال الشغب أمام البرلمان، مصحوباً بكاتب ضبط.

واستدار العميد نحوي وقد أبدى قدراً كبيراً من الكياسة:

- قهوة أو شاي؟

- لا شيء، شكراً. .

فُتح الباب ودخل المتنبي مصفد اليدين ووراءه شرطي، مصحوباً بكاتب ضبط يحمل آلة رقن قديمة. قدّما التحية العسكرية للعميد. أصدر العميد الأمر بفك معصمي المتنبي، ثم دعاه للجلوس. سرّح الضابط. وأصدر الأمر لكاتب الضبط أن يتأهب لأخذ المعلومات. .

التزم المتنبي الهدوء. تأهب العميد للاستجواب. أردت أن

أقترح القيام بالوساطة حين يستعصي التفاهم. ردّ العميد بأنه يعرف عمله جيداً. بدأه بالسؤال:

- الاسم..

فردّ المتنبي:

أنا ابن اللقاء أنا ابن السَّخاء
أنا ابن الضِّراب أنا ابن الطِّعان
أنا ابن الفيافي أنا ابن القوافي
أنا ابن السروج أنا ابن الرّعان
طويل النِّجاد طويل العماد
طويل القناة، طويل السِّنان
حديد اللّحاظ حديد الحفاظ
حديد الحُسام حديد الجِنان

- المهنة؟

- أنا تِرب الندى وربُّ القوافي
وسمام العِدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها اللـ
ـه غريب كصالحٍ في ثمود

- بطاقة التعريف؟

- أنا الذي بيّن الإله به الـ
ـأقدار والمرء حيث جعله
جوهرة تفرح الشِّراف بها
وغُصّة لا تسيغها السفلة

- اسم الأب؟

- لا بقومي شرُفت بل شرفوا بي

وبنفسي فخرْتُ لا بجدودي

وبهم فخر من نطق الضّا

د وعوْذ الجاني وغْوث الطريد

- محل السكنى؟

- أي محل أرتقي أي عظيم أتقي

وكل ما خلق اللـ ـه ولم يخلق

محتقرٌ في هِمتي كشعرةٍ في مفرقي

- الصفة؟

- وإني لنجمٌ تهتدي صحبتي به

إذا حال من دون النجوم سحاب

غني عن الأوطان لا يستخفني

إلى بلد سافرت عنه إياب

نظر كاتب الضبط والحيرة تملؤه يسأل العميد:

- أش غادي نكتب، نعامس (نعم سيدي)؟

- ما تكتب والو، سر في حالك، هذا بغى يقلب لنا المجاج (المزاج).

صرف العميدُ كاتبَ الضبط وبقينا لثلاثتنا. توجّه بالحديث إلي:

- سأتعامل مع الضنين على أنه المتنبي وسأجري فحص الوضعية، بصفته المتنبي.

شكرته. ثم استدار نحو المتنبي سائلاً إياه:

- في سوابقك أجد أنك عانقت التشيُّع بل دعوة القرامطة،

الدعوة التي كانت تريد أن تجهز على الدين والنظام؟ بلغتنا اليوم، عانقت اتجاهاً تخريبياً.

استأنس المتنبي للعميد، فأجابه في هدوء:

- القرامطة كانوا دعاة العدالة الاجتماعية، ونهضوا ضدّ نظام جامد، وناهضوا الفهم الضيّق للدين.

- بمعنى أنك كنت شيوعياً قبل الأوان.

- لا أفهم معنى أن يكون المرء شيوعياً.

- التوزيع العادل للثروة، واستغلال الدين باعتباره أفيوناً.

- هو ذاك.

- ألم تكُ قد دخلت السجن بسبب تشيُّعك لدعوة القرامطة؟

- دخلت السجن لأني تمردت على وضع مأفون ودعوت للثورة، وكان يسيئني حال العرب. كان حالهم كحال قبيلة تيم كما يقول فيها جرير:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم
ولا يُستأمرون وهم شهود

- وهل بالشعر كنت تريد أن تستنهضهم؟

- لم يكن الشعر عندي غاية، كنت أريده أداة للثورة. الثورة لفائدة المحرومين المنضوين في ركاب حركة القرامطة، والدعوة لنهوض العرب. استولى على شؤونهم الترك آنذاك.

- ليست تلك مأساتهم الوحيدة.

- وضع البويهيون وهم فرس يدهم على الخلافة ببغداد، وخِلْتُ أني وجدت ضالتي عند التنوخين باللاذقية وقد حملوا لواء العروبة.

كنت حيث رحلت أجد أصحاب الأمر من غير العرب. وكيف تكون نهضة إن لم يُمسك العرب بزمام أمرهم. وفي ذلك أقول:

وإنــمــا الــنــاسُ بــالــمــلــوك ومــا
تَــفــلــح عــرب مــلــوكــهــا عــجــم
لا أدب عــــنــــدهــــم ولا حــــســــب
ولا عــــهــــود لــــهــــم ولا ذِمــــم
بــكــل أرض وطــئــتــهــا أمــمٌ
تُــرعــى بــعــبــد كــأنــهــا غــنــم

- لنقفْ عند هذه الأبيات، فظاهرها يغري بالتمرد ولا حاجة إلى التنقيب عن باطنها.

- أن تنقاد الشعوب لغير بني جلدتها؟ أن تساس كرعية كما لو أنها غنم؟

- هل يمكن أن تُجمل الأفكار التي ضمّنَتها هذه الأبيات؟

- أنا لست شارحاً لشعري. العروبة هي بالأساس منظومة قيم، هي أدب، أو ما تسمونها بثقافة، وهي قيم من قبيل رعاية العهود وحفظ الذمم، فضلاً عن الشهامة والإباء..

- تلك قيم بدوية في زمن كفّ أن يكون بدوياً.

- هذا الإباء هو ما رفع العرب وجعلهم يخرجون من أطراف الجغرافيا والتاريخ إلى الصدارة، أو المركز بلغتكم.

- بالإسلام.

- الإسلام تجلٍّ للعروبة.

- وتدعو إلى استحلال دم الحجاج في الأشهر الحرم، بمعنى أنك لا تؤمن بقيم الإسلام.

- قيم الدين شاخت، وكان علي أن أبعث فيها الحياة. أضحت تدعو للخنوع.

- وأنت تدعو للعنف.

- أدعو للقوة. أنبذ الخوف.

- ثم إنك حللت بأرض أصلهم عجم، هم بربر. صحيح أن أغلبهم تعرّبوا، ولذلك لا أفهم حلولك هنا.

- هم حاملو تراث الأندلس.

- يستحسن أن ندع هذا الأمر جانباً.. على كل هذا يكفي.

ضغط على الزر. دخل حارس أمن. أدّى التحية للعميد. أمر العميد الحارس أن يأخذ الضنين إلى القبو. بعدها استدار نحوي متوجِّهاً بالقول:

- أنا مستعد أن أقبل أن المتنبي حلَّ بظهرانينا. ثلاثون سنة من الخدمة لم أصادف حالة كهذه، ولكن الإدارة تشتغل وفق قوالب وقواعد جامدة، والمجتمع وفق حالات.. أنا مستعد أن أقبل أن محدثي هو أبو الطيب المتنبي، إلا أن لا الإدارة ولا المجتمع سيقبلان بالأمر، وهبْ أنهما قبلا، فماذا أجد في السجلّ العدلي، وفي سوابق الرجل؟ من القرامطة.. أليس كذلك؟ بلُغتنا اليوم داعشي. بمعنى أن صاحبك سوف يقع تحت طائلة قانون الإرهاب.. لدي حل واحد هو أن نعتبر ضيفك مجنوناً... وفي ذلك جانب من الصحة..

ثم أضاف:

- سأحيله على مستشفى المجانين.. من أجلك، ومن أجله.

وهذا أحسن بالنسبة إلينا، كذلك. هذا كل ما أستطيع صنعه...

ينبغي عزل المتهم عن المجتمع، إن لم يكن بحبسه فبإيداعه في مستشفى الأمراض العقلية بالرازي.

عدت كاسف البال إلى بيتي وأنا أفكر في المتنبي وقد أحيل إلى قبو مفوضية الشرطة. بأي لغة سيتحدث مع السكارى والعاهرات والمتسكعين. وكيف يقوى على ليلة بكرسي في قبو؟ تذكرت وأنا شاب أنْ حصدتني سيارة الأمن، وقد خرجت ليلاً لشراء الخبز ولم أحمل معي بطاقة التعريف، فأمضيت ليلة بمفوضية الأمن، مع السكارى والمتسكعين.. وكان أن أطلق سكير ما ببطنه وكان مصاباً بإسهال، فازدادت الرائحة الكريهة إلى ضيق المكان، وكلما تجرّأ شخص على التنديد، صفد رجل أمن يده، وعلّقها بجعبة فيظل واقفاً محروماً من القعود. تُرى لو وقع للمتنبي ما وقع لي قبل ثلاثين سنة، هل سيتلو شعراً في مكان تنبعث منه روائح كريهة، وهل سيستقيم الشعر والأماكن العطنة؟ تمددت على الفراش، وأغمضت عيني. جفاني النوم. تخيلت المتنبي في قبو الكوميسارية، وأنا أحدّثه أقدِّم له اعتذاري:

– آسف يا أبا الطيب أنْ نُضطر إلى سجنك في حياتك الثانية، وقد بلوت السجن في الأولى، وحسبت أن بعثك سيكون تحرراً. المسؤولية مشتركة بيننا. حذرتك ولم تحترز. أنَفَتك غالبة عليك،

واعتدادك بنفسك أفسد عليك أمرك. . . قلت لك ولم تأخذ تحذيري مأخذ الجد كأن لا شيء تغير بعد عشرة قرون. نعم تغيّر وضعنا المادي، ولكن بنيتنا الذهنية لم تتغير. . نحن نعيش ضيوفاً على زمان غير زماننا، لأننا لم نشارك في صياغته. نحن عالة. . وهذا الذي لم تفهمه، وغرّك ظاهر الأمر. انبريتَ تدحض قولي. كنتَ الصلة مع عالم أخذت أنفر منه. وكنتُ أراك مثلما نقول اليوم، سمفونية غير مكتملة. أراك أعظم ما أنجبته الثقافة العربية، إذا تركنا جانباً نصوصها الدينية التي لا أودّ الحديث عنها، وكنت أرى أن عقلاً جبّاراً مثل أبي العلاء المعري أدرك ذلك. . حللت بساحتنا، وأقمت عند غريب يعيش على هامش المجتمع، ليس ممن يُعتد به، أو من يجاري ما تواضع الناس بشأنه من الاتجاه العام. هل تعرف كم كان يؤذيني أن أقرأ قول توماس كارليل إذ يقول لو خُيّر الإنجليز ما بين الهند وشكسبير لاختاروا شكسبير على الهند. . لم أسمع قولاً من قبيل: لو خُيّر العرب ما بين البترول والمتنبي لاختاروا المتنبي. . شأنهم شأن الأطفال، لا تهمهم إلا الأشياء، يلمسونها بأيديهم، ويمتلكونها ويفاخرون بها، ولا يطربون إلا للعب، ولا ينقادون إلا بالأساطير، ويغلب عليهم العنف حين يختلفون. آسف أن تمضي ليلة في قبو في كوميسارية رطبة. أدعوك أن تلتزم الحكمة، وألا تغضب لقول متحرّش إلى أن ينجلي الصباح. سأسعى جهدي أن أسرِّحَك من الجنون الذي اتُّهمت به أو حُكم به عليك. . أنا أعرف أنني في جانب محكوم علي بالجنون. . ولم يعد حتى من اقترن بحياتي يتورع عن ذلك. . أعذرني يا أبا الطيب، سأذكّرك قولك:

قد بلوتَ الخطوب مُراً وحلواً

وسلكتَ الأيام حزَناً وسهلا[1]

وقتلتَ الزمان علماً فما يغـ

ـرب قولاً ولا يجدِّد فعلا

أجد الحزن فيك حفظاً وعقلاً

وأراه في الخلق ذعراً وجهلا

.. ثم تغشاني النوم. رأيت فيما يرى النائم المتنبي جالساً على كرسي بقبو الكوميسارية، وبجانبه رجلان وامرأة. امرأة تمضغ العلك وتنبعث منها رائحة الخمر. تسأل المتنبي وهي تعبث بعلكها مفرقعة إياه:

- شنو هو المونتيف اللي لقاو عندك؟[2]

لا يحير المتنبي جواباً. يتدخل رجل أول، ليطرح السؤال بصيغة مغايرة:

- علاش شدّوك؟

والمتنبي لا يرد. يتحول السائل عند الآخر:

- وأنت؟

- بلاكة (قطعة) د الحشيس.

- أوا ه؟

- كيف والو. الحبّة خويا تحتت الحجر، وتدير الطريق في البحر. دهن السّير يسير[3].

---

(1) الحزَن من الأرض: الوعر منها، مقابل السهل.

(2) ما سبب إيقافك؟ (المونتيف تحوير لكلمة Motif الفرنسية، وتعني السبب).

(3) الحَبّة: تعني هنا المال.

رد الآخر:

- ما عليك ش[1].

تعود السيدة بالحديث إلى المتنبي:

- خويا روف (رقّه) علي، عافاك، باش ما سخّاك الله، ونتهالى (أهتم) في خويا حيث نخرج.. غير مئة درهم، عافى خويا.. البوليس اخدَو لي رزقي في لاراف (سيارة الأمن).. ذاك ش اللي جمعتو مع الكليان (الزبائن)، دّاوه.. ما جاتش ندخل للدار ويدي خاوين. حن على اختك.

ردّ المتنبي أخيراً:

- «لا تخطرُ الفحشاء لي ببالِ»[2].

استغرب نزلاء قسم الشرطة للغته ولهجته.

يسأله الثالث من أي بلد، فلا يرد، ويعاود بالسؤال أين ولد.

يجيب المتنبي:

- الكوفة.

- فين جاءت الكوفة؟

يجيب المتنبي:

- جنوب العراق.

- بالعراق؟ قفّرتيها، جيت باش تفرقع؟

سأله الأول عن مادة الانفجار. أجاب:

- الشعر.

---

(1) تعني التنويه هنا. مقابل: أحسنت.

(2) شطر من بيت للمتنبي.

- أواه، TNT واعر هذا؟ عندك الزهر، خوروطو بحال الحجر، حتى شيء حاجة ما تحركهم. غَيْر قابل للاشتعال، لا بالشعر، ولا بالفكر.. ما تحركو غير الطاسة والبنذير..

ندّ عن المرأة صوت استنكار:

- إرهابي؟ ويلي، مشينا فيها.

نهض المتنبي يتلو:

كنْ أيها السجن كيف شئت

فقد وطّنت للموت نفس معترف

لو كان سكنايَ فيك منقصةٌ

لم يكن الدُّرُّ ساكن الصَّدفِ

واستيقظت.

عند الصباح في بداية الدوام ذهبت بسيارتي إلى مستشفى الرازي بسلا. يشرف عليه طبيب من معارفي الدكتور جلال توفيق، كنت تعرّفت إليه لما كنت أقيم بواشنطن، وكان يجري تدريباً في بالتيمور. كان على جانب كبير من الدراية والمعرفة ودماثة الخلق. فرّقت بيننا سُبُل الحياة، وقدّرت أنه لن يرد طلبي بإطلاق سراح المتنبي.

وجدته في مكتبه في ساعة مبكرة. هش لمقدمي. استغرب لمحضري.. عقبت:

- لسوء الحظ أو لحسنه ليس من أجلي. لم تبلغ حالتي بعدُ حدّاً يستلزم إيداعي مستشفى المجانين، ولكن هناك حالة أريدك أن تُبدي معي فيها قدراً كبيراً من التفهم.. عِدني، مثلما عهدتك، أن تُبدي رحابة صدر.

ردَّ:

- سأفعل. تفضل.

- تعرف المتنبي..

- ليس جيداً. دراستي علمية.. لكن سمعت أبي يتحدث عنه، ولعلّ أن يكون الحديث قد جرى عنه بينكما.

- تماماً. كنت زرت والدك في شقته بأكدال، قبل أن يصبح وزيراً وتحدثنا عن المتنبي، وكنتَ حاضراً.

- أعُثر على مخطوط بشأنه؟

- الأمور أعقد..

- كيف؟

- حلّ بزماننا.

- Attends, tu me prends pour qui?

- على رسْلك. لا تستعجل الحكم. أنا كذلك لم أتقبّل الأمر أول مرة، لا يمكن لذهني أن يقبل بالأمر، ولكن ملازمتي له أكّدت لي أنه هو.

- ولم يجد زمناً غير هذا، ومكاناً غير هذا؟ كيف تريدني أن أتقبّل بالأمر أو تدفعني لأوقن به؟

- لا أستطيع أن أقنعك، أو على الأصح، لا أدري.. تريّثْ. أرجوك، سوف يبعث به الأمن إلى مصلحتك بالأمراض العقلية. أريد أن يُطلق سراحه.

- أن تعتقد أن مريضاً هو المتنبي، فهذا شأنك. أو يعتقد مريض أنه المتنبي، فهذا شأنه. بالنسبة إلي، الشخص حالة، سأخضعه لفحص، ثم علاج.. لا يمكن أن أتعامل تعاملاً مغايراً مع مريض. هيا نرى، سمعت هدير سيارة.

حلّتْ سيارة الأمن ودخلت ساحة المستشفى. أُنزل منها المتنبي. كان يرتدي لباسي، وكان يبدو متعباً لشخص لم ينم. حيل بيني وبينه. أُدخل إلى قسم المصلحة. أمر الدكتور جلال أن تنزع لباسه، ويلبس لباس نزلاء المستشفى. وعدني أنه سيقوم بتهييء ملفه في أقرب وقت ممكن.

عدت عنده بعد الظهر. . فاجأني قبل أن أسأله:

- الشخص يشكو انفصام الشخصية. يحسب أنه المتنبي. تبنّى كل مكونات شخصيته: الغرور، التعالي، ويستعمل ذات الإحالات. . استجمعت المعلومات الأولية، وأمرت له بمسكنات. كان يشكو قلة النوم. التمس المغادرة لأنه وعد امرأة بمئة درهم التقى بها بقسم الكوميسارية. .

استغربت. كنت أحسب أن ما عنّ لي في النوم كان حلماً، فإذا هو يحيل إلى شيء طرأ. كيف أحلم بما وقع للمتنبي؟ كيف ينسل ما وقع للمتنبي إليّ حلماً؟ هل نحن روحاً حلت بجسدين، أم جسداً حلت به روحان؟ خِلتُني أصبت بالجنون. حركت رأسي كمن ينفض شيئاً علق به. سألت الدكتور جلال:

- هل يمكن أن أراه؟

- لا، آسف. . ليس في حالة طبيعية. وطبعاً هو يسرد شعر المتنبي. الكل في المصلحة لجّ في الضحك وهم يسمعون شخصاً ينشد شعراً بالعربية. لم أفهم شيئاً، ولم يفهم أحد، باستثناء فقيه حافظ للقرآن أصيب باضطراب نفسي ويعالَج هنا.

لم تشفع صداقتي بجلال في إطلاق سراح المتنبي. كان الطبيب يصر على استكمال الفحص واستجماع المعطيات حول المريض. ومرة اتصل بي عبر الهاتف في شأن المريض.. حسبت أنه يريد أن يطلق سراحه..

- شكراً على تفهمك، قلت له. لا يمكن الإبقاء على المتنبي في مستشفى المجانين.

- لا، الأمر ليس بالسهولة التي تظن. يمكن أن أحتاجك. النزيل يهذي بشعره، ويستحضر سياقه، ويجري والفقيه في سجالات لغوية، ولا أنا ولا الطاقم الطبي نفهم شيئاً ممّا يقوله. نسجِّل يومياً تطور حالته دون أن نضبط مسارها، ولذلك أحتاجك لتمد إلي يد العون في فكّ شيفرة هذيانه، أعني شِعره.. عربية قديمة، بمرجعيات قديمة ومعطيات متجاوزة.. حاولت مع الفقيه، ولكن الفقيه مريض مثله، ومحتاج إلى العلاج مثله، ويعدم أي منهجية، ولن أفهم عنه. يشرح كلمة بكلمة، ويقوم بما يُسمّى قواعد الإعراب، ويروق ذلك لصاحبك، كما يروق للفقيه الذي وجد ضالته عند الشاعر.

انتقلت عند الدكتور جلال إلى مكتبه. رحّب بي.

- حالة غريبة، ومفيدة. قال لي.

- ذاك ما أرى.

- قلّما يحل عندنا أشخاص من هذا الطراز يُحدّثون في جنونهم عن واقع مجتمعاتهم.

- ألم تؤمن بعدُ أن الضيف هو المتنبي؟

- المتنبي أو شخص سكنه المتنبي، سيان. الحالة معبِّرة.

ثم أضاف:

- لقد قررت أن أحيله على الدكتورة خولة عواد، وهي أحسن عنصر في المصلحة.

لم يمهلني. ضغط على الزر. نهض من كرسيه ولم أجد بداً من الوقوف، ثم مدّ يده علامة على انتهاء المقابلة. في تلك الفترة دخل شخص بوزرة. توجّه إليه الدكتور جلال بالقول:

- ماجور، تأخذ الأستاذ عند الدكتورة خولة.

لم أجد بُداً من مرافقة كبير الممرضين، الماجور. كان شخصاً في الخمسينات من عمره تبدر منه الصرامة والحزم، وكان مما بدا صاحبَ سلطة معنوية مستمدة من سنه وتجربته. مشيت على أثَره. طرق باباً. بعد إذ أُذن له في الدخول، أشار علي بأن أتقدّم. كانت الطبيبة التي ستتعهد حال المتنبي. قامت من كرسيها، وتقدمت نحوي في أدب. سلّمت علي، ودعتني للجلوس. ثم توجّهت نحو الماجور:

- شكراً ماجور، دعْني مع الأستاذ. الدكتور جلال كلمني في الأمر.

تركت مكانها وجلست قبالتي. بدت ودودة، ولكني استغربت لطريقة تعاملها معي:

- كيف حالك أستاذ؟

- أنا؟ جيد. أَرَقُّ لحال المتبني.

ردّت في هدوء:

- أعرف، وستساعدني على فهم حاله.

- اتفقت مع الدكتور جلال على ذلك، مع أن الحقيقة أنه ليس مجنوناً، وإنما أودعه عميد الأمن بمستشفى المجانين حتى لا يقع تحت طائلة قانون الإرهاب.

- ممتاز.

- كيف تقولين ممتاز؟

- أي أنه ليس مجنوناً ولا إرهابياً.

- وإذاً لِمَ لا تطلقون سراحه؟

- سنفعل، ولكن ينبغي أن تساعدنا على ذلك.

شعرت بأني أضحيت ألعوبة، ولم أتمالك من الغضب:

- دكتورة. أنا لا دخل لي في القضية من أساسها. آويت رجلاً بلا مأوى، وعوض أن يلتزم بقواعد الضيافة خرقها، ووقع في أيدي الأمن، وحُوّل من مفوضية الشرطة إلى مستشفى الأمراض النفسية. أنا لا ناقة لي في الأمر ولا جمل، إنما ليس عدلاً أن أتركه وسط المجانين وقد قصدني، وأنتم تصرّون على إبقائه بينهم.

- لسنا حريصين على إبقائه هنا بالمصلحة، ولكن ينبغي أن نخضعه للعلاج، وينبغي أن تساعدني على ذلك.

كانت المرأة دمثة الخلق. كان ذلك ما خفّف من التياعي ودفعني أن أتعاون مع الطبيبة.

- هل لك أن تقيم معنا؟ قالت الطبيبة.

- كيف؟

- أعني أن تساعدنا على فهم حالة المتنبي. نحن نحتاج أن نقف على حالته يومياً.

- يومياً، لا أدري. سأحل كي آتيه بما قد يحتاجه من أغراض وأطّلع على شؤونه. متى ستطلقين سراحه؟

- الكل متوقف عليك.

- كيف يتوقف الأمر علي؟ بل عليكم.

صرختُ بالدارجة:

- هذا لعب الذراري الصغار.

وتأهبت للمغادرة. بادرتني:

- يمكن أن تستريح أستاذ. هل لك أن تحدّثني عن نفسك؟

- دكتورة. هل تحسبين أني بلا شغل كي أنبري متحدّثاً عن نفسي؟ وماذا يفيد أن تطّلعين على أمري؟

- كما تشاء أستاذ. هل يمكن أن تحدّثني عن علاقتك بالمتنبي؟

- لقد قلت كل شيء. حلّ عندي. كنت وحيداً. نعم كنت وحيداً. كنت في علاقة جفاء مع قرينتي.

أردفتُ:

- هل يمكن أن أرى المتنبي؟

- طبعاً، لكن لا يمكن الحديث إليه.

خرجت والطبيبة إلى الساحة. التمستْ مني أن نبقى بعيدين من المتنبي ولا نكلمه. كان وحيداً، وكان يمشي رافعاً رأسه نحو السماء كمن يحدّثها دون أن ينظر حوله وهو ينشد رافعاً صوته يجأر بالغيظ:

فُـؤادٌ مـا تُـسـلّـيـه الـمُـدام

وعـمْـرٌ مـثـل مـا تـهـب الـلـئـام

ودهـرٌ نـاسـه نـاسٌ صـغـار

وإن كـانـت لـهـم جـثـثٌ ضِـخـام

ومـا أنـا منـهـمُ بـالـعـيش فيـهـمْ

ولـكـنْ مـعـدنُ الـذهـبِ الـرَّغـام

أرانـبُ غـيـر أنـهـم مـلـوكٌ

مُـفـتَّـحـة عـيـونـهـم نـيـام

بـأجـسـامٍ يـحَـرُّ الـقـتـل فـيـهـا

ومـا أقـرانُـهـا إلا الـطـعـام

خـلـيـلـك أنـت لا مـن قـلـت خِـلّـي

وإن كـثُـر الـتـجـمـل والـكـلام

وشـبْـه الـشـيء مـنـجـذب إلـيـه

وأشـبـهـنـا بـدنـيـانـا الـطَّـغـامُ

ولـو لـم يـعـلُ إلّا ذو مَـحَـل

تـعـالـى الـجـيـش وانـحـطّ الـقـتـام

ولـو لـم يـرع إلّا مـسـتـحـقٌّ

لـرتـبـتـه أسـامـهـمُ الـمُـسـام

غلبني الوجوم وأنا أسمع لقصيده. لم أتمالك فقلت للطبيبة:

- يستحسن أن يبقى هنا في المستشفى. هكذا أحسن.

- ما لي أراك غيّرت رأيك بسرعة؟ عقّبَت.

- ألم تسمعي ما يقول؟

- سمعت ولم أعِ قوله.

- إنه يُعرّض بأصحاب السلطان، ممن قد تُعجبك صورهم ويَكذبك مخبرهم، وبمن يلزمونهم ممن يشبهونهم، وبكل من هو في رتبة ولا يستحقها. ويضيف أنْ لو كانت الأمور وفق الاستحقاق لكانت الرعية سيدة، والسادة رعية. وهذا يُعرّضه للشر المستطير وأنا بالتبعية. هنا لن يخرج قوله من دائرة المجانين ولن يؤثر في شيء، وقد يسمعها أشخاص لا يفقهون معناه ويحسبونها زخرفاً من القول. ولحسن الحظ أن الناس عندنا لا يقرؤون، ولا يعون، ولا يتدبرون، ولا يتفكرون.

نكصنا على عقبينا وأنا أحدّث نفسي:

- لحسن الحظ، وإلا انقلب كل شيء.

انتهت الدكتورة خولة عوّاد بأن أذنت لي في الالتقاء بالمتنبي. كنت أزوره خلال ساعات النزهة إما صباحاً ابتداء من العاشرة، وإما عند الظهيرة ابتداء من الرابعة. أحلُّ بالمستشفى وأذهب للتو للساحة، أو قد ترافقني الطبيبة التي كان يروق لها أن تتابع شؤون النزلاء أثناء فترة الاستراحة، وقد تحدثني في شأن المتنبي وتستفسرني عن أمره. كان اهتمامها مُنصبّاً بالأساس على المتبني أكثر من النزلاء الآخرين، كأنما كانوا يؤثثون مشهداً ويسهمون في إرساء متن مسرحية. التقيت أنا وإياها بالساحة بعد اللقاء الأول. سلّمتْ عليّ بأدب، ولزمتُ مقعداً أرمق المجانين. كان ذلك يوم 14 فبراير 2017. كان المجانين يتنزهون في الساحة. كانوا يدورون ورؤوسهم منكسة. بدا لي المتنبي من بعيد. لم يهش لي. لا يبدو أنه انتبه إلي. كان يدور بلا توقف. كان كئيباً. انفلتت امرأة في حدود الأربعينات من عمرها، بلباس تقليدي، عليها أمارات جمال متوجِّهة نحو المتنبي. حملت باقة من زهور ممّا قطفته من أزهار الحديقة وقصدته. كانت تناديه ببوعلام. قالت له وهي تقدِّم له الباقة:

- هَاذي يا أبو علام، في خاطر الخواطر، هذي هدية لك ف

عيد الحب، هاذي من عند الزُّهرة، بنت الشأن والمرشان. بنت الدار الكبيرة من أولاد حريز.

لم يُبْدِ المتنبي الابتهاج لهدية السيدة. أنشد:

وما الدهر أهلٌ أن تُؤمل عنده
حياةً وأن يُشتاق فيه إلى النسل

ابتهجت النزيلة، ولو أنها لم تفهم قريضه.

حللتُ مرة بالمستشفى وقد أصيب المتنبي بنزلة برد. امتنع عن الخروج من المرقد. لازمه طالب مصاب بانهيار عصبي جرّاء فشل تجربة عاطفية. كان يعتني به. يناديه المتنبي بابن جني، إحالة إلى شارح شعر المتنبي.

عاد الطالبُ المتنبيَّ وطلب منه تناول الدواء ولكن المتنبي رفض، واعتبر أن الدواء الحق هو القوة لا الاستكانة، ولا الخنوع أو الخمول.

توالت زياراتي بعدها. بدا أن حالة المتنبي تحسنت وأنه التأم ووضعه الجديد. ارتبط بعلاقات جديدة.

أضحى يروقني أن أحلَّ بمستشفى الرازي، وأن أمُرّ بمكتب الدكتورة خولة، أو أخرجَ للساحة، ساعة النزهة وأقعدَ على مقعد أرْقب المتنبي وأتابع حاله. أجد في ذلك متعة وتروقني تلك العلاقة التي انتسجت ما بين المتنبي وابن جني وما يتخلّلها من إنشاد. يسعيان أن يعيدا ملاحم المتنبي الأول. يجلس الفتى ابن جني على مقعد، ويتقمص دور سيف الدولة، والزهرة على أثَرهما تبارك

حديثهما ولو هي لا تفقه شيئاً. انضاف إلى الجمع فتى أسمر، من الجنوب، من زاكورة، في الثلاثين من عمره. علمت أنه كان صحافياً تعرّض لعملية نصب، واعتقل بعدها قبل أن يُحوّل إلى مستشفى الرازي. يناديه المتنبي بكافور. أضفى نكهة جميلة للجمع بمرحه وملاحته وميله إلى السخرية.

حضرت إنشاد المتنبي لقصيدة خلال نزهة العصر والجمع شهود وقد غلبهم الذهول:

نزور دياراً ما نُحب لها مغنى
ونسأل فيها غير ساكنها الإذْنا
فنحن الألي لا نأتلي لك نصرة
وأنت الذي لو أنه وحده أغنى
وما الخوف إلا ما تخوّفه الفتى
وما الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا

مرّة دعا ابن جني النزلاء إلى الاحتفاء بنصر سيف الدولة على الروم. انبرى النزلاء يكنسون الساحة، وغلّفوا كرسياً من قصب بإزار بمثابة عرش لسيف الدولة يجلس عليه الفتى ابن جني. كنت جالساً أرقب الحفل حينما ابتدرتني الدكتورة خولة:

- هل يمكن أن أقعد بجانبك؟
- طبعاً، دكتورة.

ثم أردفتْ:

- جنونهم يسمح لهم بإدراك ما لا يدركه الأصحاء بكسرهم لكل الحواجز والموانع.

عقّبتُ:

- لا ندري من هم المجانين، هم أم نحن؟

- في الواقع نحتاج إلى مجانين يكسرون السُّجُف التي تفصل بين الأفراد والجماعات.

هل كانت الدكتورة خولة صادقة فيما قالت أم أنها أرادت أن ترضاني؟ وإلا فلِمَ لم تطلق سراح المتنبي؟

بقينا نتابع الحفل. احتبى النزلاء على الأرض. اتخذ ابن جني مجلسه على مقعد وهو يمسك قصباً كما لو أنها صولجان. كان يقوم بدور سيف الدولة.

تلا الفتى الصحافي/ كافور كلمة استهلال، متوجِّهاً إلى الفتى الذي يضطلع بدور سيف الدولة دون أن يخالطه هزل:

- مولاي، لقد حقّق جنودكم الأشاوس نصراً تفخر له العرب قاطبة في ثغر الحدث فهزم الروم وحقّق النصر وأبلى جنابكم البلاء الحسن، وخاض غمار المعارك، وأبى مالئ الدنيا وشاغل الناس إلّا أن يُخلّد الحدث، ويلتمس من جنابكم الإذن بإلقاء قصيدة بين يديكم.

أشار الطالب من يقوم بدور سيف الدولة بيده علامة على الإقرار. في هذه الأثناء أرسلت السيدة المولهة بالمتنبي، الزهرة، «وبوعلام، راني نبغيك». ردّ صوت شارد من الجمع:

- اللقوة.

لم ينهض المتنبي من مجلسه. بقي جالساً وهو ينشد سيف الدولة قصيدته في ثغر الحدث.

كنت والطبيبة نتابع الحفل، وغير بعيد منا الماجور واقفاً. كنا

نقوم بسفر في التاريخ. لو لم يكن هؤلاء المجانين لما أمكننا ذلك.
قلت للطبيبة:
- نحن بصدد السفر في تجاويف التاريخ.
نظرت إلي وابتسامة تعلو مُحيّاها:
- هو بمثابة استنطاق اللاوعي الجماعي..
أخذ المتنبي في هذه الأثناء في الإنشاد:

وفاؤكما كالرّبع أشجاه طاسمُه
بأن تُسعدا والدمعُ أشفاه ساجمه
وما أنا إلا عاشق كل عاشق
أعقّ خليليه الصفيين لائمه
وقد يتزيا بالهوى غير أهله
ويستصحِب الإنسان من لا يلائمه

تعالت الهمهمات. الزهرة تصدح أنها لم تفهم شيئاً، ولكنها مع ذلك تحب المتنبي. كافور يدعو الجمع للصمت. يسترسل المتنبي في مديحه لسيف الدولة:

سلكتُ صروف الدهر حتى لقِيته
على ظهر عزم مؤيداتٍ قوائمُه
فأبصرت بدراً لا يرى البدر مثله
وخاطبت بحراً لا يرى العبْرَ عائمه
غضبت له لما رأيت صفاته
بلا واصفٍ والشعر تهذي طماطمه
لقد سلّ سيف الدولة المجد مُعْلماً
فلا المجد مخفيه ولا الضرب ثالمه

وما كل سيف يقطع الهام حدُّه
وتقطع لزْبات الزمان مكارمه

أخذت الدكتورة خولة صوراً للحفل من هاتفها المحمول أثناء إلقاء المتنبي لقصيدته.

زغردت السيدة المولهة بالمتنبي. وردّ عليها صوت بـ«اللقوة».

- ما رأيك فيما قاله المتنبي؟ سألتني الطبيبة.

- غلو كثير. ثم لا أفهم هذه العلاقة التي تجعل الشاعر لا يوجد إلا بصاحب سلطان، ولا يوجد السلطان إلا لمن يرفع عقيرته بالمديح له. تبدو لي العلاقة مَرضية. الشاعر يوجد لذاته، معبِّراً عن شعور عام وعارم، والسلطان يوجد محقّقاً لمصلحة جماعية، متجاوباً مع تطلعات سارية. حينما يقوم التواطؤ ما بين الشاعر والسلطان، وبالتبعية ما بين المثقف والحاكم، فمعناه أنهما يلتفّان على الدور المنوط بكل واحد منهما، أو يتستّران عن تقصيرهما.

لم تُلقِ الطبيبة بالاً لما قلت. بدا لي أنها خرجت عن دورها، أي أنها لم تعد تكتفي بواجب العلاج، وأنها تضمر شعوراً ما نحو المتنبي. كانت تلحف في أسئلة كثيرة، تسألني عن حياته، وعلاقاته. هل هي حقاً أحسنُ عنصر في المصلحة كما قال مدير المستشفى؟ وكيف تكون كذلك، وهي تمضي معي وقتاً طويلاً في طرح أسئلة لا معنى لها. تأكد لي الأمر حينما غضبت الزهرة من المتنبي، وفضحت العلاقة ما بينه وبين الطبيبة. التقت به بالساحة وأقذعت له في القول:

- سمحت أجيفة في لالّاك، وعجبك الدجاج الرومي. هذا سرّك. كنت نحسابك خير من اللي عقبوا جاو من بعدك، الساعة نتا

ما تعرف غير اللي عندو لحكام، واللي عندو المال والجاه. قل ألكافر بالله. اللي ما قارياش ما عليهم ش الله، ما عدها حق في الرَّجل. . يشويني فيك ويشويني فيكم ألقاريين. . اش قضات القراية بلا فهامة، والفهامة بلا رحمة؟

أخذ المتنبي يتجنب السيدة في النزهة.

لم أستبعد أن يكون المتنبي يلتقي والطبيبة على انفراد.

توالت زياراتي للمستشفى. أجلس على مقعد بالساحة أرقب المتنبي وأرقب المشاهد التي تنتسج في الساحة، من استعادة أطوار حياته الأولى، بتواطؤ مع الفتى الطالب/ ابن جني والصحافي/ كافور، وزغاريد الزهرة المولهة بالمتنبي. كنت مسمّراً على المقعد أنظر إلى المشهد حينما جالستني الطبيبة، ملتمسة في رفق الإذن بأن تقعد بقربي. تابعت وإياها تلاوة المتنبي:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظُم في عين الصغير صغارها

وتصغُر في عين العظيم العظائم

وقفت وما في الموت شكّ لواقفٍ

كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمةً

ووجهك وضّاح وثغرك باسم

تجاوزت مقدار الشجاعة والنُّهى

إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

ومن طلب الفتح الجليل فإنما
مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

بادرتني الدكتورة خولة وقد أتمَّ المتنبي الإنشاد:

- ينبغي أن تساعدني على الفهم.

- القصيدة أم الرجل؟

- كليهما، ولنبدأ بالرجل.

تحدثت لها عن العلامات البارزة في حياته، من شبابه حيث استهوته ثورة التمرد، ففترة من التيه ينتقل فيها من ممدوح إلى آخر، قبل أن ينتهي به المطاف في حضن سيف الدولة حيث عرف بعضاً من الاستقرار، وارتبط بمن رآه محقِّقاً لمجد العرب، فانثنى بالخيبة جرّاء الدسائس والمكائد، واضطُر إلى الانتقال عند كافور بمصر ولم ينل منه بغيته، وأخيراً ملازمته للبويهي عضد الدولة. . . شرحت لها أن المتنبي أتى في زمن غير الزمان الذي يُمكّنه أن يضطلع بأمر. أتى في زمن انتهى فيه شأن العرب، أو أصبحوا موزعين ما بين الأتراك والفرس، وقد حسب أن الأمل يكمن في مصر فقصدها، ولكن أمله خاب. سألتني ألذلك يحل على المغرب؟

ألقيت قولاً عاماً:

- لا أدري. لقد أصبحت في حيرة من أمري، أريد أن يُفرج عنه، ولكني أخشى تأثيره، ممّا قد يعرضه ويعرضني للشر.

- نريد أن نستبقيَه هنا، معنا. رفقته ممتعة، وحديثه مفيد ورسالته مغرية، وأنت تساعدنا على الفهم.

هل وقعت الدكتورة خولة في هوى المتنبي؟ هل حقّت بها أعراض متلازمة ستوكهولم مثلما يقع للسجّانين مع السجناء، ينتقلون

من دور السجّان إلى المتعاطف؟ هل يجوز أخلاقياً أن ترتبط بعلاقة بمن يُفترض أن تعالجه؟

لم أبْدِ شيئاً ممّا يعتلج في دواخلي، ونصحت الطبيبة بقراءة كتاب لريجيس بلاشير عن المتنبي، وكذا **مع المتنبي** لطه حسين، وكتاب **النبي المسلح** لباتريك ميغارباني بالفرنسية. أشرت عليها بكتاب لباحثة أميركية مارغريت لاركن عنه. أتيتها بكتاب ضخم عنه لمحمود محمد شاكر. لم أكن متيقناً أنها تستطيع أن تقرأه.

لم يكن يثقل علي أن أختلي بالدكتورة خولة في مكتبها، ولكن أسئلتها كانت تضايقني بل تزعجني. كنت حريصاً ألا يرشح شيء عن حياتي، وهي تسألني عن حياتي وضروبها وما اعتورها. وهل يفيد ذلك في شفاء المتنبي؟

كانت أمتع اللحظات تلك التي بالحديقة، أثناء النزهة. أضحى الجو ربيعياً، وسرى بعض الدفء. كنت أجلس بالمقعد أنظر إلى النزلاء. حدث شيء غريب، ذلك أن المتنبي أجهش بالبكاء، ونفرت الدكتورة إليه، واحتضنته. بقيا متعانقين ردحاً غير يسير، حتى إذ انسلَّ عنها أخذ في الإنشاد:

أعيدوا صباحي فهو عند الكواعب
وردّوا رقادي فهو لحظ الحبائب
فإن نهاري ليلة مدلهمة
على مقلة من بعدكم في غياهب
وأحسب أني لو هويت فراقكم
لفارقته والدهر أخبث صاحب

أراك ظننت جسمي فعقته

عليك بدر عن لقاء الترائب

تخوفني دون الذي أمرت به

ولم تدرِ أن العار شر العواقب

يهون على مثلي إذا رام حاجة

وقوع العوالي دونها والقواضب

كثيرُ حياة المرء مثل قليلها

يزول وباقي عيشه مثل ذاهب

إليك فإني لست ممن إذا اتّقى

عضاض الأفاعي نام فوق العقارب

إليَّ لعمري قصد كل عجيبة

كأني عجيب في عيون العجائب

بأي بلاد لم أجرَّ ذؤابتي

وأي مكان لم تطأه ركائبي

كنت أرمق المشهد. كافور يلُجُّ في الضحك، وابن جني يدعو لاحترام حميميتهما، أما الزهرة فلم تتمالك من التعريض وقد استهجنت المنظر:

- الله يبقي الستر.

هل الاحتضان يدخل في العلاج؟ هل هي مواساة، أم عطف، أم ودّ، أم مخايل هوى؟

شعور غريب أخذ يساورني. هل هي الغيرة؟ وممن أغار؟

كانت الطبيبة خولة عواد ذات إحساس مرهف، وذكاء ثاقب، واستعداد صادق في أن تستمع إلى المتنبي، ورغبة أكيدة في أن تساعده على تجاوز محنته. كانت الوحيدة ممن آمن أن النزيل هو المتنبي وليس شخصاً انتحل صفة المتنبي. ولعلّ العميد أن يكون آمن أن الطارق هو المتنبي، ولكني لا يمكن أن أثق في طوية رجل أمن، لأني أعرف بالتجربة أن الأمنيين يُكيّفون رؤاهم وفق الاتجاه العام، وقد يكون العميد قد زعم ذلك مداراة لي.. لا يساور الشك الدكتورة خولة من أن النزيل هو المتنبي.. هي الوحيدة من لم ترتب في شأنه وإلا اعتبرتُني مجنوناً. هي من قدّم صكاً بأني لست مجنوناً..

ارتحت لخولة. ينبغي أن أتحدّث عنها باسمها الشخصي. ألفيتها ودودة، والحديث إليها ممتعاً ومفيداً. كلما مررت بمصلحة الأمراض العقلية بالرازي لتبديل أغراض المتنبي، أو للحديث إليه، توقفتُ عندها بمكتبها. هل هي الوحدانية؟ هل هو جفاء قرينتي بشرى؟... وهل يمكن لقلبي أن يتحول فجأة، أم أني أريد أن أُسْكِن روح بشرى خولة؟ هل يمكن لقلبي في سني أن يصبو؟ أهي صبوة؟ هل يسوغ أن يخفق قلبي في مثل سنّي؟ ولِمَ وقعتْ هي في

هوى المتنبي وهو في مثل سنّي؟ وهل أقبل من جانبي أن أحب من قد سكن قلبَه شخصٌ آخر؟ وهل من المروءة ذلك؟ ومع ذلك، حُمت حول خولة وتلصّصت عليها كي أستضيفها لغداء بمطعم لاماما. يذكرني المكان ذلك بشبابي. تحدثنا بادئ الأمر عن المتنبي فواقع العالم العربي.. كانت تتحدث إلي بكثير من الاحترام كي توقع في روعي من خلال ذلك الفيصل بيننا وتحول من ثمة دون ما قد يراودني. كان ذلك يزعجني.

سألتني عن حياة المتنبي... كررت ما قلته سابقاً. طفولة صعبة، ذكاء خارق، تمرد ناتج عن هذا الذكاء والواقع، معانقة للتشيُّع ثم لمذهب القرامطة، أي المذاهب التي لا تساير السُّنن وتسعى أن تأتي على المتواضع. نوع من الشيوعية مشفوعة بالعدمية. تكسّب بالشعر ولم ينل منه ما كان يبتغي، لأن زمن الشعر كسد. والواقع مثلما شرحت للدكتورة خولة، ولعلّها أن تكون اطّلعت على ذلك في كتاب باتريك ميغارباني، أن المتنبي عاش فترة مضطربة كانت تحمل إرهاصات الأفول. كانت القوميات الأخرى تنهض، من أتراك وفرس، في الوقت الذي أخذ رسم الخلافة العباسية يضمر، وكانت تجلياً للسلطان العربي أو جامعتهم. ضعف شأن العرب، سياسياً، وتهلهل سداهم اجتماعياً، وانعكس ذلك على ثقافتهم... كان المتنبي تعبيراً عن العبقرية العربية في المجال الثقافي، وسعى جاهداً أن يجد لها تعبيراً في المجال السياسي. دعوتها أن تستمع إلى هذا البيت:

أرى دون ما بين الفرات وبرقة

ضراباً يُمشّي الخيل فوق الجماجم

- الوضع يشبه ما نعيشه حالياً. قالت خولة في صيغة استفهام.

- لا أدري أيمكن أن نعقد المقارنة بين الزمنين، ولكنّا نستطيع أن نفسّر الوضع أحسن ممّا فعل المتنبي. هو يقول قولاً لا يخلو من عمق، من أنه تخلَّف عن الموعد مع الزمن، أتاه سابقوه في الشبيبة وأتاه في الهرم. يمكن أن نتحدث عن ظروف موضوعية تجعل إمكانية تفتق عبقرية سياسية غير ممكن، والذي يحدث هو انبثاق عبقرية ثقافية تحمل تشوهات الوضع. المتنبي يحمل آثار تلك التشوهات.

- كيف؟

- التكسب، المديح، مع ما يصاحب ذلك من تزلف وافتراء وغلو. التحول من شخص إلى شخص، ومن اتجاه إلى آخر. . هل يمكن أن نجعل المتنبي مسؤولاً عن ذلك كما زعم طه حسين، أم السياق العام؟ أنا أميل إلى السياق العام. .

- الظاهر أنك تحب المتنبي؟ عقّبتْ.

- أحببته في أشكال مختلفة. أحببته محبة الوجِل، وكان ذلك في مطلع الشباب، ممّا كنت عُلّمته، وكان ما يأسرني جزالة لفظه وسحر جرسه، دون أن أنفذ إلى معانيه، ثم أكببت لفترة على قراءته، ولم يكن يهمني إلا ظاهر شعره. . أعرضت عنه حينما اكتشفت عمقي الأمازيغي، وعدت له عودة أخرى، عودة موضوعية. الشخص استثنائي، ويُعبِّر عن العبقرية العربية، سياسياً بسعيه إلى الوحدة، وملازمته بل تعلّقه لمن يستطيع أن يجسّدها. كان صاحب رسالة، ولا يمكن أن تُختزل حياته في مسلسل من قصائد المديح والهجاء والنسيب. كلا. هو يعبِّر عن العبقرية العربية، بتمكّنه الفريد من

معجم اللغة واشتقاقها وجرسها وتوليده للمعاني، مثلما يقال، وإدراكه لطبيعة النفس البشرية وأعماقها، وتصويره لأشياء بسيطة، مستقاة من الحياة، من روحه الشاعرة التي تستطيع أن تصوِّر في شكل بديع مظاهر الطبيعة، من قبيل بِرْكة، أو جبل مكلل بالثلج، أو أسد يتحرك في أناة وخيلاء، وحيد وحدة الرهبان، ولا يعرف حياة الرهبان، لا تحليلاً ولا تحريماً. للمتنبي إحساس بالجمال، ولا يمكن أن نجادل في روحه الشاعرية، حتى حينما يستبد به الغرور، أو حين يصاب بنوع من البارانويا وهو يتوجّه لسيف الدولة قائلاً: «فأنت الذي صيّرتهم لي حُسّداً». ولكن هذه البارانويا إنْ هي إلا تعبير عن روحه الجياشة أو نفسه المتوقدة.. في حياته أشياء إنسانية لا يقف عليها الدارسون، وهي خليقة أن يقفوا عندها، حين تخلف عن مصاحبة سيف الدولة وقد نفر من أنطاكية إلى حلب. لم يصحبه المتنبي لأن زوجه كانت حاملاً، ثم جاءها المخاض فأعضلت وعسُر وضعها وماتت إثرها، وما لبث الجنين أن لحق بها بعد أشهر. هي قصة إنسانية وهي التي يحيل إليها في هذه الأبيات المعبِّرة:

نصيبك في حياتك من حبيب
نصيبك في منامك من خيال
رماني الدهر بالأرزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أصابتني سهام
تكسرت النِّصال على النصال
وهان فما أبالي بالرزايا
لأني ما انتفعت بأن أبالي

أنا لا أؤاخذه كثيراً على تكسبه، بل أؤاخذ الثقافة المستشرية حينذاك.. أؤاخذه من الناحية الإنسانية على شيء واحد، وهو الأمر الذي يسيء لعلاقتي به.

- كافور؟

- كلا. نعم لا أستحب الطريقة التي صوّر بها كافوراً، أن يمدحه ثم يهجوه، ويقذع في الهجو، ويقع في العنصرية المقيتة. هو لم يكتفِ بانتقاد العبيد، بل لون العبيد أيضاً، وهذا شيء لا يُقبل، ولكن هناك ما هو أسوأ، قتله لخادم له شكّ في أنه يسرقه، وقد هرب من مصر، واعتبر ذلك مدعاة للفخر.. حتى لو سلّمنا أنه كان تحت طائلة ظروف صعبة، وأنه قطع صحراء مقفرة، من سيناء إلى الكوفة، في زهاء ثلاثة أشهر، فلا يحظى بظروف تخفيف.

- لا ينبغي تذكيره بذلك.

- بلى، إنما لا أدري متى.. لقد حلَّ ضيفاً بزمننا، وينبغي أن نقول له الحقيقة وإلا غلبه الغرور.. لا جدوى أن يحلَّ ويفرض علينا تصوّره ونظرته، ثم لا نحاسبه على ما مضى من حياته.

- أنت قلت له بأن لا شيء تغيّر.

- ولكن ليس معناه أننا لا نريد التغيير. الشعوب والأمم تحتاج إلى شعراء وأدباء، ولكنها في حاجة أشد إلى مفكرين، أي من يحملون تصوراً عن الحياة ويُعبِّرون عن وجدان قومهم ويحملون عنهم رسالتهم، وهذا أمر لا نجده في شعر المتنبي، أو نجده متناثراً. هناك اضطراب لم يتأتَّ معه نضج يفضي إلى رؤية للعالم، كما يقول الألمان. هناك شذرات هنا وهناك، وأرى أن ريجيس بلاشير محق إذ يقول إن شعر المتنبي يطفح بالحِكم أكثر منه برؤية

للعالم. ليس بشكسبير أو أبي العلاء المعري. المعري لا يبلغ مبلغ المتنبي من حيث العبقرية، ولكن يفوقه من حيث اتساق الأفكار ووضوح الرؤية.. لم يتكسب بشعره، وأدرك أن ما يعوق العرب هو ارتباطهم بالأساطير، أو فهمهم الحَرْفي للدين. نادى بالعقل وآمن به، وأدرك محدودية أثره في مجتمع مضطرب يتأثر بالأحداث أكثر ممّا يؤثر فيها.. كان أن يكون أكثر تأثيراً لو لم يُغرق في الغريب من اللفظ والوحشي من الكلام والمستعصي من التعبير.

فهمت من إشارة خولة أنها كانت تلتقي به، وأنها رغم عائق اللغة كانت تفهم عنه حين أحالت على قولي بأن لا شيء تغيّر..

ترددت في الحديث عن قصة هواه مع خولة أخت سيف الدولة. كان يحبّها، ولم يكن سيف الدولة يجهل ذلك، وحدث أن ماتت فرثاها بشعر رقيق جميل. هل لذلك يرتبط بخولة الحديثة؟ هل يبعث من خلالها خولة القديمة؟ عسير على الطبيبة أن تدرك هذه العلاقة المتشعّبة، وقد تسيء الظن بي، وتحسب أني أثرتها لحاجة في نفسي كي أستثير غيرتها وأفسد من ثمة عليها علاقتها بالمتنبي.

طلبتْ التحلية (ديسرت). اكتفيتُ بالقهوة.

- أريد أن تشرح لي سبب اهتمامك بالمتنبي.

عاودتِ الاستفهام.

حمدت أنها أحالت على المتنبي التاريخي وليس المتنبي الضيف. العلاقة التي أخذت تنتسج ما بين المتنبي وخولة تضايقني. أجبتُ:

- كان المتنبي يمثّل الشموخ العربي، ولذلك كان من الضروري أن يُحفّظ للناشئة في ظرفية كانت العروبة واعدة، وحفظتُه على غرار

أترابي، منذ نعومة أظافري. حفظت من الابتدائي قصيدة «ذو العقل يشقى في النعيم بعقله..»، ولا أزال أذكر وأنا في الثانوي، في قرية نائية، أن طُرح علينا تحليل بيت المتنبي:

إذا غـامـرت فـي شـرف مـروم

فـلا تـقـنـع بـمـا دون الـنـجـوم

أتساءل اليوم، ماذا يمكن أن يفهم تلميذ في الثانية عشرة من عمره من هذا البيت. وأذكر أني حين التحقت بالمدرسة المولوية كان ممّا اختُبرنا حوله بيتاً للمتنبي نُعلّق عليه:

أعز مكان في الدُّنا سرجُ سابحٍ

وخير جليس في الزمان كتاب

كنت أجد المتنبي في كل منعرج. شاءت الأقدار أن أدرس على شخصيتَين أُشربتا حب المتنبي، أديب تمثل تراث الأندلس، الحاج امحمد باحنيني، وأمازيغي لم يستهوه مديح المتنبي بقدر ما استهوته حِكَمُه، محمد شفيق... كان لهذه الأشياء أن تحدث أثرها في نفسي، رغم ما اعتراها من تقلبات وما اكتنفها من تحولات.. كان من أوثق ما يرتبط به شفيق، قصيدة المتنبي:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا

وعـنـاهـم مـن أمـره مـا عـنـانـا

وتـولـوا بـغـصـة مـنـ

ـه وإن سرّ بـعـضـهـم أحـيـانـا

إلى أن يقول:

ومـراد الـنـفـوس أصـغـر مـن

أن نـتـعـادى وأن نـتـفـانـى

غيـر أن الـفـتـى يـلاقـي الـمـنـايـا

كـالـحـات ولا يـلاقـي الـهـوانـا

ويرى أن تعلَّق هذه الأبيات على واجهة الأمم المتحدة. محمد شفيق، منظّر الحركة الأمازيغية بالمغرب!

- لماذا تعود إليه الآن؟

- لا أدري. هل المسألة مرتبطة بدَين؟ التربية مثلما يقول كانط، هي استعارة ودَين. نستعير من أسلافنا أو سابقينا تمثلاً للعالم، لقيم، ومن واجبنا، في فترات من حياتنا، أن نؤدي الدَّين... أنا في السن الذي ينبغي أن أفي بما بذمتي... أن أرد الدَّين.

سألتني:

- ألا يعود الأمر كذلك إلى السياق العام؟ كبوة الربيع العربي، أو هجيره...

- من الصعب أن نجري حكماً على ما يجري الآن. واقع الحال يُبيّن عن تردي، ولكن لا يمكن أن نجزم بأن لا شيء يمكن أن ينهض من هذا الخراب. تعلّمنا الكيمياء أن الأشياء تتحلل لكي تنتظم في بنية جديدة...

- الأمل ممكن إذاً؟

- الأمل يصاغ، الأمل ليس قدراً. كما أن ليس هناك لعنة، أبدية أو مرحلية، ولا رسالة مهدوية، أو أمم لها وضع اعتباري، أو شعب مختار، أو خير أمة أخرجت للناس... من الضروري أن تضطلع الصفوة من أصحاب الفكر برسالة تربوية، بل أكثر من تربوية، لا بدَّ من حصة استشفائية، كهذا الذي تقومون به في مجال اختصاصكم، الطب النفسي. يمكن أن تكتفوا بالمسكنات، وهي

التي تعطى وتلقّن إلى الآن، بأشكال مختلفة: خطاب أسطوري، أو نزوع استهلاكي، أو ميل إلى الترفيه المبتذل والبذيء.. كلها مسكنات لا تعالج المريض، والدليل هي حالة الصرع التي تنتاب عالمنا، من حروب أهلية، وخطابات الكراهية وبغضاء وتطاحن وإِحَن. ينبغي أن نحسن الاستماع إلى المريض وندفعه للبوح، في رفق.. وبعده، نقول له الحقيقة. ألّا نتستر عن أي شيء. أو ندعه يكتشف الحقيقة لوحده.

- هل لذلك حلَّ المتنبي بين ظهرانينا؟

- المتنبي لا يحمل حلاً، ولكنه رمز، أو أسطورة، والأمم تحتاج إلى رموز وأسطورة أو أيقونات. حينما ضربت إسرائيل لبنان في سنة 1982، ورُحّل المقاومون الفلسطينيون عنها، كان الشيء الوحيد الذي حمله محمود درويش من مكتبته ديوان المتنبي. حينما ضربت أميركا في عاصفة الصحراء، لم يكن لي من ردّ سوى الانغمار في الثقافة العربية، ومادتها، وهي اللغة العربية... نعم قد تعجبين، لأن لدى الناس صورة عني أو صوراً لا تطابق الحقيقة، أو هي لا تنظر إلا إلى جانب.. اقتنيت في ربيع 1991 قاموس **لسان العرب**، ودأبت منذ ذلك التاريخ على كتابة يومياتي باللغة العربية، وتحولت من الكتابة بالفرنسية إلى اللغة العربية. وحين ارتحلت إلى أميركا اصطحبت معي كتابَين، **لزوميات** أبي العلاء المعري، **والإشارات الإلهية** لأبي حيان التوحيدي، بالإضافة إلى القرآن. كنت أقرأ القرآن صباحاً، **واللزوميات والإشارات** مساءً..

- وهل ما زلت على عهدك؟

- في مسرى الحياة نفترق عن أناس اعتلقنا بهم، ثم نعتلق

بآخرين لم نعرفهم، وكذلك الكتب... ليس لأبي حيان ما يقدّمه سوى لغته، وهي لا تُسامى جمالاً ورونقاً.. أو على الأقل، لا أرى ما يمكن أن يقدّمه في **الإشارات الإلهية** سوى التبتل والتهجّد وجميل التعبير... **الإمتاع والمؤانسة** صورة فوتوغرافية أو لوحة زيتية، بألوان فاقعة للعلية وهم يسمرون ويتأدبون.. **المقابسات** هو كتاب الفكر، وأبو حيان ناقل أكثر منه مبدع، إلا أن ذلك لا ينقص من قيمته... أبو حيان التوحيدي نجح في شيء، هو صموده أمام هيمنة الثقافة الفارسية. تمثّل المدارس الفكرية الرائجة، وصاغ المفاهيم ونحت المصطلحات.. المعري يُذكّر بحقيقة مزعجة: إمامة العقل... ولكن لا أحد من هذين العَلَمين يبلغ مبلغ المتنبي. المتنبي هو الرمز أو الأسطورة... الغريب أو المثير أن المتنبي وأبا حيان كانا مجايلين، ولم يعرف الواحد الآخر. كلاهما يعبّر عن أزمة الثقافة العربية، عن بداية الأفول. عبقريان لم يُحاطا بالاعتراف، كعملة كفّت عن الرواج. قد تجدين عند المتنبي إرهاصات الإنسان الأسمى. الإنسان الذي يرفض الأقدار، ويتجاوز الأقدار.. انظري إلى هذا التشبيه الذي يجريه المتنبي لسيف الدولة، يخادع الموت، والموت كغول نائم، وهو ينتقل إلى جفنها يناغيها ويشمت بها. ليس للموت أن تقرِّر متى سيموت، بل هو، وليس للأقدار أن تتحكم في مصيره، بل شجاعته وعقله أو النُّهى:

تجاوزتَ مقدار الشجاعة والنُّهى

حتى قيل إنك بالغيب عالم

- أشعر بنقص وأنا أستمع إليك، لأني لا أستطيع أن أنفذ إلى جوهر هذا التراث الغني.. لا أحسن اللغة العربية.

- تحسنين الفهم، وهو المهم. عندك بنية ذهنية تدرك كنه الأشياء. يمكن أن تتصالحي مع اللغة، أما الآخرون، فحتى لو قدّرنا أنهم يحسنون اللغة، فهم لا يعيشون عصرهم... تبدو لي اللغة العربية كامرأة مسنة، أثقلها الشحم والخمول، وزادت إلى ذلك لباساً ثقيلاً، من المجوهرات والمحسنات، ومن الطبيعي أن ينفر عنها من يريد أن يرتبط بالحياة: من يريدُ خليلة رشيقة تُجاريه وتمتعه وتستجيب لرغباته، مثلما يستجيب لرغباتها ونزواتها. ليس للغة العربية أن تظل تحفة لأنها إذّاك ستصير عبئاً.. لا بدَّ أن تفقد اللغة العربية الكثير من زوائدها. لا بدَّ أن تخف أو أن تكون ذات أرَن، بتعبير أبي حيان التوحيدي... لا أحدّثك عن أولئك الذي يعاشرون المومسات، لغة أو لغات بغير ضوابط... إرضاء لنزوات..

- أأنت من يبدي هذا الارتباط باللغة العربية؟

- لعلّ اللغة العربية أن تكون لك أمّاً، أما أنا فهي لي زوج. زوج اقترنت بها لزهاء أربعة عشر قرناً.. ليس من السهل أن يعصف المرء بهذا الردح من العشرة، وليس من الحكمة الهزء بما انتسج عبر التاريخ... أنجبنا أولاداً، منهم من أفخر بهم، وخرج منا من لم يبرأ من التشوهات.. وهو أمر طبيعي. نعم أغضب منها، واعذريني إن أسررت لك بشيء، إنه يحدث أن أخونها، نعم أرتبط بخليلة، هي اللغة الفرنسية، ولكن هواي للغة العربية... سرت إشاعات عن افتراق ما بيننا جرّاء شنآن. اعتزلتها لفترة. لا، لا يمكن أن أفترق عن اللغة العربية، ولي منها هذه البنت التي أفخر بها، الأندلس.

- حدّثني عن علاقتك بالأندلس؟

- كانت تحيل في طفولتي إلى شيء أمُجُّه. كانت تحيل إلى

موسيقى تذاع في الراديو عقب نشرة الأخبار، لا أتذوقها ولا أستسيغها. كانت تحيل إلى فقهاء درست على أيديهم، يشعرونني أنهم المرجع، وأن لا مرجع سواهم.. منهم من كان يهزأ من أصولي الصحراوية الأمازيغية، ومنهم من كان يأخذني في رفق كي أنسى جذوري، وأتمثل تراث الأندلس، لأنه التراث الوحيد الذي يخلق أن نفخر به... كنت أعتبر ذلك نزوة أساتذة، ولكني واجهت في مسرى حياتي موقفاً شرساً من أولئك الذين يصدرون من ارتباطات أُسرية من الأندلس. هُزئ مني، ولم تُوفّر لا أصولي الصحراوية، ولا لساني الأمازيغي. تمَّ التحامل علي، مع الاختلاق والافتراء.. كُذب علي. أُجهز على مساري المهني... وكان لزاماً أن أرفض هذا التراث الذي باسمه جوبهت أو تمثله من أساؤوا إلي... للموضوعية تعرّفت إلى شخص لم أقدّر أن يؤثر في. لم أدرك أثر تأثيره وقد اعتزلت الناس بعد إذ فُصلت عن العمل في أسلاك الدولة، وحُرمت الرزق، وأشيع بأني ضالع في علاقات ضدّ الدولة ومؤسساتها وأرتبط بأعدائها. كان الشخص الذي لازمني في تلك الفترة، من أهل الله، كما يقال. قرأت وإياه أثناء عزلتي ديوان المتنبي. إلى أن حدث التحول في رحاب الأندلس.. كان كشفاً كما يقول المتصوفة.. زرت قصر الحمراء سنة 1997، وتبدّى أمام ناظري شيء عظيم... كنت أختزل الحضارة الإسلامية في محاولة تلفيق أو استيعاب لتراث بيزنطة والساسانيين، فإذا أنا أمام قصر الحمراء أقف على شيء قلّما أبهرني شيء مثله.. نعم وقفت على الأهرام، وهي شيء مبهر، ووقفت على سور الصين، ولا يمكن للمرء إلا أن يعجب لعظمته. قصور الحمراء تحدّثك لغة أخرى،

الدقة والجمال.. الجمال في مختلف صوره.. في النقش، في الزخرفة، في حركة الماء في السواقي، في ترقرقه وخريره، في انبجاسه من النافورات، في الحدائق... وكانت البداية.. يمكن أن تحددي ميلادي في حدثين، حرب الخليج أو عاصفة الصحراء، وهي التحول الذي تناسلت عنه كل التشوهات التي نعيشها إلى الآن، والجرح الوجودي الذي استشعرته منذ ذلك الحين، ثم اكتشاف الأندلس. كانت الأندلس هي البلسم... أو على الأصح سعيت أن أبنيَها في رفق كي أجعلها البلسم أو الترياق.. كان القدح قد انكسر، وأخذت أجمع بقاياه أرمّمها، في تؤدة بلحام الأندلس. الأندلس ليس شعراء المجون، ولا الليالي الغر، ولا سيرة أنساب لأُسر.. الأندلس هي الارتباط بالحياة، هي محبة الحياة، هي الهزء بما قد يشين الحياة، أو يشوهها أو يعترضها، هي التعايش، هي أن تأخذ الناس بما هم عليه، وليس بما ينبغي أن يكونوا عليه. هي المزاوجة بين العقل والروح، بين الفعالية والجمالية. الأندلس ليست لأبناء طائفة يوظفون ميراثاً، بل نتاجِ لأرض، لأرض تفاعل فيها أقوام من أعراق مختلفة، وعقائد متباينة.. أنا امتداد للأندلس، مثلما هي امتداد لي. أنا من بعث فيها الحياة، وأنا من أنقذها، وأنا من احتضنها... لدي تصور للأندلس قد لا يطابق ما تواتر عند الناس.

- كيف؟

- الأندلس بنت الغرب. الغرب الجغرافي، والغرب الحضاري... هي أكثر ارتباطاً بروما وأثينا منها ببغداد أو دمشق... عاشت هذا التمزق أو هذا الاضطراب، وانعكس على البنية السياسية. أرادها الأمويون في بداية أمرهم توأماً لدمشق أو

امتداداً لبيزنطة.. تطوّرت كما فرضته عليها الجغرافية... لا أرى فرقاً بين ابن باجة وسينك، ولا بين ابن رشد وابن ميمون... نعم غطاؤها شرقي، ولكن جوهرها غربي... وهذا ما جعلها تثبت حين تتغير عقارب التاريخ. كانت جوهرة روما، وفردوس المسلمين، وبها بدأت نهضة الأوروبيين.. ينبغي أن نحسن الإصغاء إليها... لها رسالة خالدة... والقيّمون عليها حالياً يحسنون التعبير عنها أحسن ممّا صنعه أسلافنا. بيد أني أشتَمُّ رائحتها هنا في تضاريس هذه الأرض، في تلابيب ذكراها، في هلوسات نزلاء مصلحتكم... هي ما يمكن أن ينقذ هذا العالم الذي فقد البوصلة.

- ألذلك حلَّ المتنبي؟

- لا أدري، ولكن ينبغي إنقاذ ما يمكن إنقاذه... بالمتنبي أو بغير المتنبي.

كان الزبائن قد غادروا المطعم. لم أعد أشعر بالحرج نفسه الذي كنت أستشعره وأنا أحدّث الطبيبة... طلبت قهوة ثانية... كنت أقرأ الارتياح من عينيها..

- أستاذ، أيجوز أن أسألك سؤالاً شخصياً؟

- تفضلي، بعد الذي بلغناه من البوح لم يعد هناك ما يمكن التستر عليه.

- هل تجربتك الشخصية أعني المهنية، ما يشرح انثناءك على المتنبي وملازمته؟ كنت في خضمّ السلطة وصدفت عن ذلك كله، ويظل الأمر لغزاً.

- وثقت بأمل، ثم غرّني السراب، ولست بأول من غرّه السراب.

- ألذلك رحلت؟

- إذا ترحّلت عن قوم وقد قدروا

ألا تفارقهم فالراحلون همُ

كما يقول المتنبي.

- أيمكن أن تُجمل؟

- عالم المتنبي كما تركه. الوشايات، الكذب، الافتراء، السِّعاية.... السياسة في عصرنا صراع وتنافس، ليس في الدهاليز ولا الكواليس، بل في ساحة مكشوفة. حول أفكار وتصورات وقدرة على الإقناع... لكن السياسة عندنا لم تبرح مجال الحاشيات، والتزلف، والكذب والاختلاق.. تغيّر شكل السياسة ولم يتغير الجوهر.. والأسوأ القتل والتصفيات والغدر. العرب لم يبرحوا العصر الذي توقفوا فيه والذي صادف زمن المتنبي. هل تُقدّرين أن ما قاله المتنبي عن أمراء يمدحهم كأصنام يكلّمهم، ويا ليت فيهم عفة الصنم، لم ينجلِ ولم ينقضِ:

ما زلت أضحك إبْلي كلما نظرت

إلى من اختضبت أخفافها بدم

أسيرها بين أصنام أشاهدها

ولا أرى فيها عفة الصنم

منذ ذلك التاريخ وهم يكررون أنفسهم. يوظفون الإمّعات والمماليك، وما يسمّونه بالصدر الأعظم، والحاجب، ثم ما يلبث هؤلاء أن ينقلبوا عليهم.

«والحر ممتحن بأولاد الزنا»، مثلما يقول المتنبي.

- ألا يمكن التعايش مع أولاد الزنا، من أجل هدف أسمى؟

- فلو أني حُسدت على نفيس
لجُدت به لذي الجد العثورِ
ولكني حُسدت على حياتي
وما خير الحياة بلا سرورِ

لا خير في سجن من ذهب، أو صفد من لقب. ولا لحياة بلا سرور. كنت مستعداً أن أقبل كل شيء، سوى نهايتي أو مهانتي، لأن المهانة نهاية... أن أكون مشاركاً في وضع حدّ لي.. والمرء يقبل بكل شيء، مثلما قال المتنبي إلا الهوان في هذا البيت الذي لو لم يقل المتنبي سواه لكان كافياً ليبوّئه الخلود:

ومراد النفوس أصغر من أن
نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقي المنايا
كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا

كانت خولة تستمع في خشوع. أردت أن أصرفها عن ذاتي، فحكيت لها ما أوردته الباحثة الأميركية مارغريت لاركن عن أستاذة الأدب العربي من جامعة هارفارد جانيت واكن، من كتاب كنت أشرت به عليها. كان والدا جانيت قد هاجرا إلى أميركا من لبنان، وأرادا لبنتهما وهي طفلة أن تندمج في المجتمع الأميركي وتقطع مع أثر الثقافة العربية، ولكن الفتاة كانت شغوفة باللغة العربية وآدابها، وحاول أبوها أن يصرفها عنها، لأن اللغة العربية لن تفيدها في شيء في أميركا، ولن ينفعها تراث العربية في سوق العمل، وحدث مرة أن تلت جانيت على أبيها أبياتاً للمتنبي، فلم يتمالك نفسه واغرورقت عيناه بالدموع ولم يقف بعدها أمام ما تبتغيه ابنته من دراسة.

رمقتُ دمعة تسيل من مقلة خولة. سعيت ألا أبين عن شيء.
ارتشفتُ كأس الماء، ثم انبريت أنشد:

- إن كـان سـرّكـم مـا قـال حـاسـدنـا
فـمـا لـجـرح إذا أرضـاكـم ألـم

وبـيـنـنـا لـو رعـيـتـم ذاك مـعـرفـة
إن الـمـعـارف فـي أهـل الـنُّـهـى ذِمـم

كـم تـطـلـبـون لـنـا عـيـبـاً فـيُـعـجـزكـم
ويـكـره الـلـه مـا تـأتـون والـكـرم

ما أبعد العيب والنقصان عن شرفي
أنـا الـثـريـا وذان الـشـيـب والـهـرم

إذا تـرحّـلـت عـن قـوم وقـد قـدروا
أن لا تـفـارقـهـم فـالـراحـلـون هـم

شـرّ الـبـلاد مـكـان لا صـديـق بـه
وشرّ مـا يـكـسـب الإنـسـان مـا يـصِـم

كانت دموع خولة تسيل على خدها. كان يبدو أنها نفذت إلى معنى القصيدة. رفعت رأسي، ووجدت مستخدمي المطعم وقد تحلقوا بنا، النادلون والطبّاخون، يستمعون إلى قصيد المتنبي. كانوا منبهرين لجرس الكلمات وقوة المعاني وعميق الإحساس. ندّت عن خولة بسمة حبور نزعَتها من الحزن الذي ران عليها. سالت القصيدة من لساني التي حفظتها على يد أستاذ الأدب العربي محمد السولامي، كالشآبيب. كنت شخصاً آخر وقد أنهيت تلاوة القصيدة.

نهضت خولة وهي تستدير نحو الحضور، تردِّد والعَبرات تخنقها:

- شكراً لكم. شكراً لكم. لست أشعر بالوحدة بعد اليوم.

أخذت الأعداد تتكاثر. غشي المارة المطعم وتكوّفوا بجنباته. ازدادت الأعداد. أخذت أقلّب النظر ما بين خولة والجموع. كانوا من بسطاء القوم وقد أسَرهم شعر المتنبي. تذكرت قصة لغارسيا لوركا حين كان يقرأ شعره على عمّال المناجم فتسيل دموعهم ولو لم يكونوا فهموا شيئاً يذكر. تبادلتُ النظرات وخولة. نظرَت إلي ثم قالت:

- لا تُخيب ظنهم. هم يريدون الاستماع إليك. أتحفْهم بجميل قوله.

وقفت كأنما في حلقة وأخذت أنشد وقد غصت جوانب المطعم:

رأيتكم لا يصون العِرضَ جارُكم
ولا يَدِرُّ على مرعاكم اللبنُ
جزاءُ كل قريبٍ منكم مَلَلٌ
وحظّ كل محب منكمُ ضغَن[1]
وتغضبون على من نال رفدكمُ
حتى يعاقبه التنغيص والمِنَن
فغادَرَ الهجر ما بيني وبينكم
يهماء تكذب فيها العين والأذن[2]

---

(1) جزاء كل قريب أن تملوا منه، وكل محب لكم أن تبغضوه وتحقدوا عليه.

(2) اليهماء: الأرض التي لا يُهتدى فيها، أو الفلاة. فما قد تراه فيها العين وما قد تسمعه بها الأذن، قد يكون هلوسات وليس حقيقة، أي أنه نأى وغلا في النأي.

إني أصاحب حِلْمي وهو بي كَرَمٌ
ولا أصاحب حلمي وهو بي جبُن
ولا أقيم على مال أُذِلُّ به
ولا ألَذّ بما عِرْضي به درِن
سهِرتُ بعد رحيلي وحشةً لكمُ
ثم استمر مريري وارعوى الوسَن[1]
وإن بُليت بوُدّ مثل ودّكمُ
فإنني بفراقٍ مثله قَمنُ

اعتلى التصفيق من داخل المطعم وتعالت الهتافات بداخله وخارجه:

- شكراً لك الأستاذ.
- تبارك الله عليك الأستاذ. الله يعطيك الصحة.
- برافو.
- أيوز (مرحى بالأمازيغية).

أحنيت رأسي امتناناً للحضور، ثم عدت إلى الطاولة. أرسلت خولة ابتسامة تنويه، ثم توجّهت إلي:

- هل تسمح لي أن أقول ماذا تمثله بالنسبة إلي؟ «إنك كشف».

قالتها باللغة الفرنسية: Révélation.

لو كنت أستطيع حينها لأمسكت يدها وقبلتها.

(1) المرير: الحبل الشديد الفتل، أي أنه شقي بالفرقة وجفاه النوم، ولكنه بعدها استوثق من أمره، كما الحبل حينما يشتد فتله، وعاوده النوم وبرد الراحة.

كنت ذاهلاً عمّا يجري. كنت في حال وجد. نهضت. أفسح لي الحضور. كان الجمع قد تفرق في هدوء. غادرنا المطعم. صحبت الدكتورة خولة إلى حيث تُركن سيارتها، ثم قصدت شقتي مشياً على الأقدام... مررت من أمام البرلمان. كانت هناك مظاهرات وشعارات تُرفع وتُردَّد.. كانت تهمّني حين اقترنت بالكرامة. لم تثر في أي رغبة في الاطّلاع وقد تحولت إلى مطالب قطاعية. شعرت أني منذ اليوم أقرب إلى قلب خولة. ألا تكون خولة استنساخاً لبشرى أو صورة لها؟ أم هما دالان لمدلول؟ وما المدلول؟

عادت بشرى من سفرها بفرنسا. أهدتني ما طفحت به المكتبات عن اختلال العالم وعن وضع العالم العربي، وكتاباً عن فلسفة الزن وروحانياتها.. ألفتني غارقاً في قراءات عن المتنبي وديوانه.

خرجنا للعشاء إلى مطعم لاباكود الصيني القريب من بيتي. كنت شارداً الوقت أغلبه.. كنت أودُّ أن أخبرها بحلول المتنبي عندي، ممّا لم أستطع قوله لها في البريد الإلكتروني. وكيف أدلل على زعمي والمتنبي نزيل مصلحة الأمراض النفسية؟ ستعتبرني أنا المريض وتهزأ مني... لذلك أحجمت عن الحديث عن المتنبي. حوّلت الحديث إلى أشياء عادية، فسألتها عن مقامها بفرنسا، عن مؤتمرها بليون، وعطلتها بباريس.

انبرت تتكلم عن لقائها الطبي، وعرضها الذي لقي الاستحسان، وأنا ذاهل عمّا تقول، أهشُّ برأسي كما لو سمعت ووعيت وفهمت. تردِّد اللازمة: أفهمتَ؟ وأحرك رأسي ولو أني لم أصغِ لشيء، ولم أع شيئاً.

إلى أن فاجأتني:

- أنت لا تستمع إلي. أسألك ولا تجيب.

كان ذهني مستغرقاً في شأن المتنبي. ردّدت دون أن أشعر:

- حالة المتنبي تقلقني.

- ماذا؟

- عفواً. أردت القول إن المتنبي معبِّر عن حالة قلق.

ردّت في حدّة:

- هل من الضروري أن تعيش في الماضي وتذهل عن الحاضر. هل المتنبي أقرب إليك من قرينتك؟ نعم، طلبت منك أن تقرأه معي، ولكن ليس إلى الحد الذي تصدّك قراءته عن كل شيء فتذهلَ عن كل شيء. لم أعد أفهم عنك. لم تبعث لي ولا رسالة واحدة، خلال سفري، لا عبر البريد الإلكتروني، ولا الهاتف ولا «الواتساب». لم تأتِ لتصطحبني من المطار. أحدّثك وذهنك شارد. هل قلبك مرتبط بامرأة أخرى؟ قلها ولا تخف...

- آسى لوضع المتنبي..

- ماذا تقول؟ أتأسى لمن مات؟

- آسى لوضع ذويه.

- لم يعد أحد يأبه بالعرب أو يأخذهم مأخذ الجد، والعرب لم يعودوا يهتمون بشيء سوى الغناء وشراء السلاح، أو خردة السلاح يقتنونها، ولا تصلح لشيء سوى أن يقتتلوا بينهم ويتناحروا فيما بينهم. لقد دُفعنا إلى استراتيجيات البقاء، من غير رؤية أو تصور. مؤسف.

- ليس المشكل عارضاً، بل بنيوياً.

- وما العارض؟ وما البنيوي؟

- العارض أنْ حلّ المتنبي بعصرنا، كي يعيننا على فهم البنيوي من قضايانا.

كادت أن تشرق وهي تشرب الماء.. ردّت بحسن بديهتها المعهودة:

- أو عصرنا عاد إلى فترة المتنبي.. اختلطت في ذهنك الأزمنة، مثلما اختلطت عندك الأعراض والأسباب. ينبغي أن تعرض نفسك على طبيب نفسي...

- أو طبيبة.

نفرت بشرى غضبى. حسبتُ أنها ذهبت إلى الحمام. تأخّرت. خرجت كي ألتحق بها. لم أجدها. سألت بواب المطعم عنها. أنكر أن تكون امرأة ما قد غادرت. ألحفت في السؤال، وكان ردّه قاطعاً. لعله أن يكون غادر مكانه في الوقت الذي خرجتْ فيه. أكّد لي أنه لم يبرح موضعه. أيكون أنها غادرت إلى الدار البيضاء في الليل البهيم؟ انتابتني الهواجس والمخاوف. ماذا لو اعترضها شخص في الطريق؟ ماذا لو تعطلت سيارتها أو ألقاها شخص بالحجارة في الطريق السيّار من علٍ أحد المعابر؟ اتصلتُ بها على الهاتف. يا لدهشتي. ردُّ الآلة صادم: لا يوجد مشترك في الرقم الذي تطلبون. هل غيّرت بشرى رقم هاتفها دون أن تخبرني؟

غادرتُ المطعم إثرها. التحق بي النادل وهو يصرخ: «الحساب، الحساب..». انتهى إلي صوت صاحب المطعم يصرفه دافعاً بأنني في وضع غير طبيعي. اعترتني رغبة أن أصرخ ملء فمي بالشارع: بشرى، بشرى... وتمالكت.. مشيت لا ألوي على شيء. أثقلت علي الوحدة. بشرى وقد غادرت، والمتنبي وقد

اعتُقل. بلغت مستوى محطة القطار ثم استدرت على اليسار في اتجاه البرلمان، وفجأة انبريت أنشد على منظر من الناس وهم يرمقونني بنظرات مريبة:

بـمَ الـتـعـلـلُ لا أهـلٌ ولا وطـنُ
ولا نـديـمٌ ولا كـأسٌ ولا سـكَـنُ
لا تـلـقَ دهـرك إلّا غـيـر مـكـتـرثٍ
ما دام يصحبُ فيه روحَك البدنُ
فـمـا يـدوم سـرورُ مـا سُـررت بـه
ولا يَـردّ عـلـيك الـفـائـتَ الـحـزَنُ
مـمّـا أضـر بـأهـل الـعـشـق أنـهـمُ
هووا وما عرفوا الدنيا وما فطنوا
تـفـنـى عـيـونـهـم دمـعـاً وأنـفـسـهـم
في إثـر كـل قـبـيـح وجـهـه حـسـنُ
يا من نُعيت على بُعد بمجلسه
كـلٌّ بـمـا زعـم الـنـاعـون مـرتـهَـنُ
كم قد قُتلت وكم قدِمت عندكمُ
ثـم انتفضتُ فزال القبر والكفَنُ
قد كان شاهد دفني قبل قولهمُ
جـمـاعـةٌ مـاتـوا قـبـل مـن دَفـنـوا
ما كل ما يتمنى المرء يُدركه
تجري الرياح بما لا تشتهي السّفن
سهرت بعد رحيلي وحشة لكمُ
ثم استمر مريري وارْعوى الوسَن

وإن بـلـيـتُ بـود مـثـل ودِّكُـمُ

فـإنـي بـفـراق مـثـلـه قَـمـن

كان المارّة يلقونني بنظرات خُزر كما لو هم يرون عُجاباً. لم أفهم علة نظراتهم المتحاملة.

عدت إلى شقتي. كانت فارغة. صرخت: بشرى. لم تجب. عاودت النداء. بحثت عنها في كل جنبات الشقة. في غرفتنا. بالمكتب. في الصالون. في المطبخ. في الشرفة. وراء الأبواب. تحت السرير. وراء الستائر... لماذا تقوم بشرى بهذه اللعبة السمجة؟ لمَ تختبئ؟ اتصلت مرة أخرى وكان الردُّ ذاتُه: لا يوجد مشترك في الرقم الذي تطلبونه. أخذت أثلبها. لماذا تتركيني يا بشرى؟ لماذا تأبين المغامرة معي؟ ألأني خارج الطقوس والأعراف، وتثقلك الطقوس والأعراف؟ حتى أنت لم تسلمي من إصرها؟ صدقتُك الشعور وأخلصت لك الحب، فلمَ تنأين عني في وقت أنا أحوج ما أكون فيه إليك، وأقرب ما أكون فيه إليك، أم لأني أضحيت مرآة لذاتك، فشقّ عليك أن تنظري إلى نفسك من غير مساحيق وأكاذيب وتوهمات؟ لأنك لم تريدي أن تَنزعي نفسك ممّا درجتِ عليه، وما استأنست به، ممّا هو موثقك كالأغلال. لماذا لم تنفضي الأغلال؟ انتفضتُ وأنا أردِّد:

حببتُك قلبي قبل حبك من نأى

وقد كان غدّاراً فكن أنت وافيا

وأعلمُ أن البين يُشكيك بعده

فلستُ فؤادي إنْ رأيتك شاكيا

فإن دموع العين غُدْرٌ بربِّها
إذا كن إثْر الغادرين جواريا
وللنفس أخلاقٌ تدل على الفتى
أكان سخاءً ما أتى أم تساخيا
أقِلَّ اشتياقاً أيها القلب ربما
رأيتك تُصفي الوّد من ليس جازيا
خُلقْتُ ألوفاً لو رحلت إلى الصِّبا
لفارقتُ شيبي موجع القلب باكيا

جثوت بعدها. جثم علي الحزن. فراق بعد ألفة. وألفة بعد مودة. وهجر بعد وصل.

قمت إثرها وأنا أرتجف من البرد. اشتملت ببرنوسي من وبر الإبل. تمددت على السرير. فتحت **ديوان المتنبي**. كانت السطور تتراقص أمام ناظري وأنا لا أثبت على شيء، ثم غلبني النوم. نمت حتى الضحى. ولم أشعر إلا ومحجوبة ترفع عني جزءاً من الديوان وهو ملقى على صدري وتسبل علي غطاء. استيقظت. سألتها:

- أين بشرى؟
- مَن بشرى؟
- بشرى. بشرى. بشراي. قرينتي... هل تتخذينني سُخْريا؟
- أبداً سيدي. بشرى ليست قرينتك، ولا تعيش معك سيدي. ولا أعرف عنك بشرى. قد تكون اختلقتها.

ثم شفعتْ بقولها المعتاد:

- الدار مسكونة يا سيدي.

رددتُ:

- طبعاً مسكونة. لأنك لا تنظرين إلا إلى الظاهر. كالسواد الأعظم.

أيقنتُ أن محجوبة مسّها مسّ، وهي لا ترى إلا ما يُرى. ما نرى إلا بالقلب كما يقول سانت-أكزوبيري في الأمير الصغير. تُرى لو تكون محجوبة على صواب؟ تُرى لو أن بشرى توهمات ليس إلا. تحولت من الصالون إلى غرفتي وانسللت في الفراش وجسمي يرتجف.

أُصِبت بنزلة برد حادة، مصحوبة بالحُمى، طرحتني الفراش. . .

تذكّرت المتنبي وقد أصابته الحُمّى وألزمته السكون وذادت عنه النشاط هو الذي لا يستجم إلا بالحركة، ويضوي بالدعة ويحرن بالخمول في هذين البيتين الجميلين:

ذراني والفلاةَ بلا دليل
ووجهي والهجيرَ بلا لثامِ
فإني أستريح بذي وذا
وأتعب بالإناخة والمقامِ

وأي شيء أصعب من فلاة بلا دليل؟ وأي شيء ألفح من هجير بلا لثام؟ ومع ذلك فهي أهون عليه من الخمول.

ردّدت مع نفسي تتمة القصيدة:

فلما صار ودُّ الناس خِبّاً
جزيت عُلى ابتسام بابتسام[1]
وصرت أُشُكُّ فيمن أصطفيه
لعلمي أنه بعض الأنام

(1) خِبّاً: خداعاً. والخَبّ: المخادع.

يُحب العاقلون على التصافي
وحبّ الجاهلين على الوَسام[1]
وآنَف من أخي لأبي وأمي
إذا لم أجده من الكرام[2]
ولست بقانع من كل فضل
بأن أُعْزى إلى جد هُمام
عجبت لمن له قدٌّ وحدٌّ
وينبو نبوة القضِم الكَهام[3]
ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً
كعجز القادرين على التمام

لزمت الفراش لأكثر من أسبوع. ران علي الحزن، وأثقل علي السأم، واشتدَّ علي الألم كأن ما صوّره المتنبي يحق في شأني وقد تسلّلت الحمى إلى نفسه المثخنة بالجراح وسط زحام الأسِنّة المُرشقة في جسمه، أشدها مضاضة عليه فراق من يحب بلا وداع:

عليلُ الجسم ممتنع القيام
شديد السُّكر من غير المُدام
أبِنتَ الدهر عندي كل بنتٍ
فكيف وصلت أنت من الزِّحام

(1) الوَسام: حسن المظهر أو الصورة، والوِسام، ما يُجمّل، ومنه الوسيم، أي الجميل.
(2) آنف: أستنكف.
(3) الكهام: الذي لا يقطع.

جرحتِ مُجَرّحاً لم يبقَ فيه
مكان للسيوف ولا السّهام
وفارقتُ الحبيب بلا وداع
وودّعت البلاد بلا سلام

قصدت مكتبتي أصرف عني السأم، وأخذت كتاب **العرب ظاهرة صوتية** لعبد الله القصيمي. كنت اطّلعت على بعض من كتبه ومنها **هذي هي الأغلال وهذا الكون ما ضميره**، ولم ترُقني إلّا ما كان منها من جرأة. اعتبرت أن بعض الأدواء لا تُداوى إلا من جنس الداء. لا يمكن التصدّي للتحجر إلا بشيء من التنطع. التحليل البارد أو المتأني قد لا يفيد أجساماً مخدَّرة، أو عيون مفتحة وقلوب مستغلقة كما في تشبيه المتنبي. لن يُدفع إلى الإصغاء من هو في أحكامه الجاهزة حول ذاته أو حبيس نرجسيته. قد يضطر إلى الاستماع لمن يجترئ عليه ويَقلب عليه الطاولة. اعتبرت التنطع، ولا أدري إن كان التعبير موفّقاً، ضرورياً مرحلياً. ولكن لا مُعدّى، آجلاً، من التفكير العميق والتحليل الرصين. تذكرت فصلاً عن المتنبي كنت قرأته في كتاب **العرب ظاهرة صوتية** وأردت العودة إليه. لم يكن ذهني في حالة الوهَن الذي كنت فيه ليصطبر على قراءات عميقة، ولم يكن القصيمي يقتضيني جهداً. قرأت فصل «المتنبي يروي معارك سيناء والجولان». أكببت عليه ولم أرفع عيني عن سطور الكتاب. كانت اللغة مهلهلة، بل ركيكة والعبارة مضطربة، مع ضحالة في التعبير وقصور عن الأداء الصائب فضلاً عن عدم دقّة المصطلح. كنت أمام إسهال خطابي. ثم انثنيت متملياً، ألا أستطيع

أن أستخلص فكرة جامعة من هذا الإسهال، وهذا الغثاء والثغاء على السواء أصوغها في تعبير مقبول؟ المتنبي جُماع الشخصية العربية أو العبقرية العربية. هو نموذجها أو L'archétype. المتنبي لم يبزغ من أرض خلاء، بل هو نتاج لثقافة، مُعبِّر عنها، وهي من أنجب المتنبي، وهي ذات البنية الذهنية القائمة. لا يمكن فصل المتنبي عن ثقافة قبيله. هو أحسن تعبير عن هذه الثقافة، ولذلك هناك تطابق ما بين المتنبي وقومه، وتماهيهم معه، وهيامهم به، يحمل أوهامهم مثلما يحمل عيوبهم. قد تختلف طرق التعبير، ولكنه ذات اللسان، عابر للأزمان، يحمل أعراض ثقافة. لا فرق بين المتنبي بالنسبة إلى القصيمي إذ يهجو ويغلو في الهجو، ويمدح ويغرق في ممدوحه، وبين بلاغات القيادات العسكرية العربية، وإذاعاتهم وخطاباتهم وأيديولوجياتهم.

ما أقوله هنا أقوله بلغة مؤدّبة، أما القصيمي فيتقيأ في وجه المتنبي وثقافة المتنبي بكل أوجهها، بتاريخها وسلاطينها وخلفائها وأساطينها.. من الأرض حتى السماء. للقصيمي شرعية ليست لي. هو عربي المَحْتد، وأنا عربي اللسان. يستطيع أن يقذف أهله، إن شاء، كما شاء، أما أنا فهل يحق لي ذلك؟ بأي حق أدخل ما بين اللحى والشجر؟

كنت واهن الجسم لأقوم بشيء ذي بال، وأزجيت الفراغ في نقل بعض مقاطع ما بثّه القصيمي. أسجّله، وقد أنظر إليه فيما بعد. حينما أتعافى، أو حينما تتضح في ذهني الأمور. ليس لي أن أبدأ أي فكرة منه بحكم جاهز. أسجّل ما سطره القصيمي ثم أتركه يختمر في ذهني.

«المتنبي كان فحْشاً نفسياً وأخلاقياً وإنسانياً ولغوياً. كان مأساة تحولت إلى فُحش، وفُحشاً يُفسَّر بمأساة. كان بلا ضمير وبلا رحمة أو حب أو عاطفة إنسانية، وبلا حواجز أو زواجر (كذا، والصواب وازع) أخلاقية أو نفسية أو فكرية، ومن أي نوع، أو أي قدر. كان وحشاً إنسانياً يستحق الشفقة والرثاء بقدر ما يستحق الاشمئزاز. كان وقاحة بقدر ما كان قباحة. (كذا). وخطيئة بقدر ما كان خطأ، وتشويهاً بقدر ما كان تشوهاً».

التعبير صادم والحكم مغالٍ. ما يفيد أن أستمر في نقل موقف بدائي؟ ألا يحق في حُكم القصيمي حكمة تاليران، كل ما يطبعه الغلو لا يستحق الاهتمام، أو لا شأن له.

استمررت مع ذلك في القراءة:

«إنه لشيء فاجع (والصواب مفجع) ومذلّ لكل معاني الكبرياء في الإنسان أن يوجد حتى اليوم، بل أن يوجد حتى في هذا العصر من لا يزالون يرتلون بكل نزق النشوةَ والمباهاة ومدائح وأهاجي ومنابحات (كذا) المتنبي.

(. . .) لقد كان المتنبي مأساة تحولت إلى فُحش، أو فُحشاً يُفسَّر تفسيراً مأساوياً. لقد كان عاهة فادحة تحولت إلى غثيان تاريخي.

(. . .) نعم إن الذين يبحثون ويتحدثون عن الشاعر في المتنبي، ماذا يجدون؟ حتْماً هم لن يجدوا فيه إلا فحشاً ومآسي وفضائح تاريخية وعربية حينما يبحثون أو يفكرون في تفاسيره الأخلاقية أو النفسية أو الإنسانية. إنهم لن

يجدوا مجداً شعرياً إلا إذا كان الشعر يعني الخروج على الذكاء والعقل والمنطق والصدق والرؤية والعواطف الإنسانية.

(. . .) إن مدائح المتنبي وأهاجيه ومفاخراته وأقواله عن نفسه إن لم تكن جنوناً وتتحول إلى أقسى حكم بالجنون على قائلها فلن يستطيع أي جنون أن يصبح جنوناً أو يستطيع أي مجنون أن يصبح مجنوناً. إن جميع المجانين لن يجدوا حينئذ من يشهد واحد منهم بأنه مجنون».

توقفت عند هذا الحكم. المتنبي مجنون؟ بل يحيل إلى قمة الجنون؟ أليست العبقرية نوعاً من الجنون؟

ما تلا في متن الكتاب، بعث القشعريرة من بدني، لم أدرِ أهي قشعريرة البرد أم الخوف وقد ربط القصيمي بين المتنبي أو حالته المَرضية والإرهاب.

«إن المجتمعات تصنع هذا الإرهاب، وتمارسه بكل العنف دون أن تعلم أو تنوي».

هل كلمة الإرهاب على لسان القصيمي ما نعنيه بالكلمة اصطلاحاً، أم هو يعني الرُّهاب، أي حالة الخوف، أو الترهيب، أي التخويف؟

اللغات العصرية لغات دقيقة، واللغة العربية القديمة كانت دقيقة، في صيغها وصرفها وفي عمليات الاشتقاق والنحت ومعاني الحروف وحروف المعاني، والاشتقاق الأكبر. وهل يدرك متعلِّمو اليوم هذه الفروق أو الشِّيات، بمصطلح صاغه واحد من المتأدّبين من لبنان، انطلاقاً من الآية ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ﴾؟ ما ردّ فعل الأمن إن

وقف على كلمة إرهاب كما وردت في نصّ القصيمي، وأن يكون من صكوك الاتهام ضدّ المتنبي مما أورده القصيمي؟ لسوف أكون مشاركاً في الجريمة، والأدهى أني آويت «إرهابياً»، أو حاملاً لخطاب الكراهية أو مُشيداً بالجريمة، أو داعياً لعنف، من قبيل هذه الأحكام الجارية، بسبب سوء فهم لكلمة، أو لسوء استعمالها.

رباه!

لم يكن عميد الأمن إذاً يمزح حينما تحدّث عن إمكانية متابعة المتنبي بقانون الإرهاب. ألا يحسن بالمتنبي وقد حلّ عندي أن يحمد ما انتهت إليه الأمور وقد حُكم عليه بالجنون وأودع مستشفى المجانين عوض المتابعة بالإرهاب؟

ينتقل القصيمي من معالجة حالة المتنبي إلى حالة قومه أو العرب. الوضعان متلازمان، حسب القصيمي، ولا يمكن فهم هذا من دون ذلك.

«لماذا نصّبت السوق والتاريخ العربيان المتنبي سلطاناً على جميع سلاطين الشعر العربي، ونبياً على جميع أنبيائه.
(. . .)

هل السوق والتاريخ العربيان يستطيعان أن يعرفا، ولو عرفا، فهل يستطيعان أن يلتزما؟».

أتوقف. أستنشق الهواء بعمق. تنتابني سعلة. أتنحنح. أعاود القراءة. هل المتنبي مستنهض لهمم أم مُعبّر عن أزمة، موغل فيها حتى أطنابها، يُحْدث جعجعة ما تلبث أن تنثني في السُّبات، وتغور في التوهمات؟ أسترسل في القراءة:

«ألا يُحتمل أن المتنبي قد أراد أن يفضح قومه العرب

وأن يثير اشمئزازهم بهذا الأسلوب الوقح الرديء جداً لكي يخلق فيهم شيئاً كان يريده لهم دون أن يجده فيهم؟ هل كان محرّضاً أم مُحقّراً؟ أو هل يمكن أن يكون التفسير أن المتنبي لم يكن يخاطب الناس أو يخاطب قومه العرب بمدائحه ومفاخراته وأهاجيه، وإنما كان يخاطب أشباحاً لا يُستطاع فهم ذكائها أو أخلاقها؟».

لا يقف القصيمي عند السؤال. لا ينتابه الشك قيد أنملة. يجهر بالحكم. المتنبي صوت أحمق ينطق بلسان الحمقى.

أإلى هذا الحدّ؟

«(. . .) لقد كان صوتاً أحمق تنطلق منه وتسكن فيه كل الأصوات الحمقى في كل ماضي العروبة وحاضرها ومستقبلها. (. . .) كانت السوق العربية تقرأ المتنبي أو تسمع من يقرؤه فيُفقدها صهيلُه (كذا) كل اتزانها وقدرتها على الرؤية والفهم، وترى حينئذ أنها فوق كلّ شيء، وكلّ أحد، وأكبر من كل شيء، وكل أحد. إنها حينئذ لا ترى أو تحس أو تعاني شيئاً من آلامها أو هوانها أو عجزها، أو من هزائمها وتفاهتها وذنوبها وعارها. لقد سحبها إلى عالم من الجنون الفريد الذي تفقد فيه كل أخلاق الرؤية والعقل والاتزان والصدق والقراءة والمحاسبة لأي شيء. (. . .)

لقد هزّها صهيل المتنبي حتى تحوّل إلى أقوى وأوفى تعويض لها عن كل رؤية وذكاء ومجد وكبرياء وعن كل واقع جيّد وعزيز. لقد تحول صهيله إلى أوفى كفّارة عن كل بلادة وهوان وعجز، عن كل واقع رديء حزين ذليل».

العربي أسير الكلمة وسحرها، والمتنبي هو من يمدّها بهذا الإكسير، حتى ينسيه جوهر الأشياء. هو ذا قول عربي في شأن شاعر العروبة. ما عساني أقول؟ أنقل مرة أخرى حكم القصيمي.

«هل يعرف الإنسان العربي شيئاً يساوي كبرياء الكلمة المجنونة المتكبرة. هل يهز الإنسان العربي، أي إنسان عربي شيء مثلما تهزه الكلمة المجنونة المتكبرة النزقة، المغرورة المتفجرة، بلا أي قدر من الوقار أو الذكاء أو الحياء أو التواضع أو الرؤية؟ هل يهزه واقع مهما كان عظيماً وجميلاً مثلما تهزه الكلمة المملوءة بالكِبَر والصلَف البذيء البليد؟ هل يجد الإنسان العربي مجداً أو نشوة في أي شيء مثلما يجد في الكلمة المصابة بكل معاني وتفاسير الجنون والكبرياء الوقحة المتوقحة؟».

من المسؤول عن هذه الحالة؟ لا يتحرج القصيمي من الجواب. إنه المتنبي.

«ظلَّ المتنبي يطرح على الأذن العربية وفي السوق العربية بكل العنف والقسوة والانفعال والغضب والانفجاع والبغضاء، وبكل الإرهاب والإرهاق، وكل الحقد والبذاءة والتحقير والعدوانية والسِّباب، كان يطرح بنيات القتال لكل شيء، والانتصار عليه».

توقفت للحظة. نهضت من الفراش. حضّرت شاياً. ارتشفت من الفنجان، ثم تلفعت بشال واعتمرت قبعة. قصدت الشرفة. أطللت من الشرفة. لو قلت لمارّ إن المتنبي مسؤول عن أدوائه ووضعه لعدّني مجنوناً. وهل يحق حكم القصيمي على العابر هنا،

والساكن هنا؟ أوَ لم يستبطن الساكن هنا هوية انتسجت بعيداً، في الجزيرة العربية والشام والعراق؟ وهل يمكن أن أرتكن لحكم القصيمي؟ ألا يخلق بي أن أستمع إليه حتى النهاية؟

أنير الصالون. أقعد بالصوفا. سئمت غرفتي. أستمع إلى الموسيقى. إلى تقطيع عود نصير شمة. إلى مقطع العامرية. أذهل عن كل شيء. أتذكر غارات الطيران الأميركي على بغداد وقصفها للعامرية أثناء عاصفة الصحراء. أسمع الأنين من تقطيع العود. أعاود القراءة. أنتقل إلى نغمة أخرى. ليس المتنبي المسؤول عن كل شيء. هو لسان حال ووضع. هو المعبِّر عنه.

«هل المتنبي وحده في السوق العربية وفي التاريخ العربي بلا شبيه، بل بلا مثيل، بل بلا أمثال كثيرين؟ هل المتنبي مرض شاذ أو غريب مجهول يصيب الجسم العربي لأول مرة وآخر مرة؟

هل هو المرض الأول والأخير في نوعه، أو عنفه، وقبحه؟

(. . .) كلا، المتنبي لم يكن وحده، إنه لم يجيء من فراغ، ولا إلى فراغ. ولم يهجم على مكان لا يلائمه أو يرفضه أو لا يعرفه أو لا يشبهه، ولم ينبت في أرض لا تنبته ولا تزرعه، ولا تحب لبنه أو تحتضنه وترضعه وتحنو عليه. إنه لم يلد نفسه أو يصنع نفسه من مادة غير موجودة، أو نقيضاً للمادة التي صنع نفسه منها».

أُصاب بالغثيان. أنتقل إلى حيث الهاتف. أدير أرقام مستشفى الرازي. أريد الحديث إلى المتنبي. تنتقل ذبذبات النداء. يرن

الهاتف. أبادر بأن أضع السماعة. يُستحسن ألا أكلم المتنبي. قد يتم الاستماع إلينا من قِبل الأمن. حكم القصيمي عليه يجعله مشبوهاً. اعتدت أن أحتاط حينما أتكلم في الهاتف، ولكن كيف أستطيع أن أضبط جنوح محدثي أو زيغه ممّا قد يجعله صيداً للأمن وسبباً للمتابعة، بله للملاحقة؟

تحولت إلى بشرى. ناديتها من هاتفي المحمول. كنت أود أن أعتذر لها عمّا بدر مني من إيحاءات وتوهمات، وأنني لم أكن لأتصرف بالطريقة التي تصرفت لولا الحالة التي أعيشها. حالة هذا الضيف الذي لم يكتفِ بأن حلَّ، بل أتى مصحوباً بمشاكله كلها، منذ زمنه الأول إلى الآن، فضلاً عن مشاكل قومه، وما جرّني إليه من متاعب ومصائب، جرّاء ذلك. لم أكن لأُعرض عنه، لأن الإعراض عنه إعراض عن قومه ولا يجمل ذلك بي في الظرفية التي هُم فيها. ليس ذلك من الشهامة. ليس لدي أي شعور بالشماتة. أبداً. ولكني لا أستطيع أن أقرظهم وأُطريَهم وأكذبهم، مثلما لا أستطيع أن أتستر عن حالة المتنبي. أحاول مجدداً أن أنادي بشرى. بشرى هي كذلك صلة وصل مع عالم المتنبي. هي حفية بمن تعتبرهم قومها. شعور الانتماء إلى العروبة قوي عندها.

شعرت لحظتئذٍ أني أستطيع أن أنفذ إلى وضع المتنبي، ومن ثمة إلى وضع أهله، لأن لدي مفتاح اللغة، وعروة التاريخ، وهو ما لا يستطيعه شخص مثل ريجيس بلاشير. يمكن أن أقرأ شعر المتنبي ووضع المتنبي وحال قوم المتنبي قراءة موضوعية، وهو ما لن يُقدم عليه عربي المَحْتد أو يَقدر عليه. إما أن يهيم في المتنبي من قبيل كل الكتابات التي لا تخرج عن معجزة أحمد، أو الثلب المجاني كما

يفعل القصيمي. بل كِلا الوضعَين مُعبِّر عن أزمة. التمجيد المفرط، والتبخيس الرخيص. أنطلق من هاجس واحد، هذا الذي عبّرت عنه في تجاويف هذا الحكي: الفهم.

لا يوجد مشترك في الرقم الذي تطلبون، تَرُدّ الآلة. اختلطت علي الأمور. من هو المشترك الذي لم يعد منخرطاً في شبكة الاتصال؟ بشرى أم المتنبي أم قومه، أم قومهما، أم أن كلاً منهم يحيل إلى الآخرَيْن. يعبّران عن حقيقة واحدة؟ بشرى، المتنبي، العرب. صاروا كلهم خارج التغطية.

تمشيت بعض خطوات في الصالون. استدرت في المكان ذاته. لئن انفلت عني عالم بحمولته، فما يمنعني أن أصيغ عالماً جديداً، بأيقوناته وأقانيمه. من لا شيء، أو آخر جديداً على أنقاض القالب القديم، أو آخر جديداً من قالب آخر؟

وهل من السهل ذلك؟ إننا لا نغيّر تصوّراً كما نغيّر قميصاً. نفعل لأن وضعاً أصابه البلى. لأنه لم يعد يستجيب لتحدّي. عامل الزمن حاسم، لكننا لا نتحكم فيه، بل نتأثره ونتأثر به، والزمن التاريخي وئيد ونزق. أو نعيد بناء ما انهدم على أُسُس جديدة؟

أضحيت نهباً لوحدانية ثقيلة بعثرت اتّساق أفكاري، أم أن الوحدانية سبيل لإعادة ترتيب جديد؟

كأس ويسكي كان يمكن أن يهدئ من أعصابي. ولكني أقلعت عن شرب الخمر. كنت أردد مقولة لتشرشل: نلت من الخمر خير ما فيها. أو نلت منها أكثر ممّا نالت مني. لمّا أضحت تنال مني، توقفت عن معاقرتها.

أشعر بثقل الزمن. بلظى الهجر. بثقل الوحدة، بآلام الوضع.

أو الأوضاع. أيمكن أن يسفر هذا الألم عن شيء؟ عن تصور؟ المسكنات تجهض الديناميات. ولذلك أفضّل الإحساس بالألم. الألم تعبير عن وعي، وقد يحمل إمكانية تجاوز وضع معضل.

هل أسترسل في قراءة القصيمي؟

غريب. إحساس مألوف يتسلّلُ إلي. ولكنه ليس الجوع. . لم أذق طعماً منذ فطور الصباح، والشمس غابت، وجسمي واهن. أخرج من الثلاجة ممّا هيّأته محجوبة. أضعه على الفرن. أعود للصالون. أشعل التلفاز. أنتقل ما بين القنوات، الجزيرة، العربية، فرانس 24. الموضوع ذاته. الدمار. الإرهاب. بسوريا، بالعراق، باليمن، بليبيا. كنت حرّمت التلفزيون مذ حلّ المتنبي. أفتح كوة على العالم. أصاب بالغثيان. أطفئ التلفزيون. فرقعات سوريا تبلغني في معزلي بالرباط. فرقعات سوريا لن تهدأ. فرقعات سوريا ما يُريني ما لا يُرى، وما يجعل البيت مثلما تقول الخادم محجوبة مسكونة.

شربة وجبنة وزبادي مع تمر، هو عشائي. ظللت وفياً لجذوري الصحراوية. أعبّر عن ذلك بتناول التمر مع الحساء.

لم أجد طعماً لما تناولته. اكتفيت باحتساء الشربة. وضعت المغرفة. فتحت الكتاب مرة أخرى:

«من الذي صنع المتنبي؟ هل المتنبي هو الذي صنع المتنبي؟».

كانت الطبيبة قد سألتني السؤال ذاته، وكنت قد أحْلت إلى ظروفه. كنت أتبنّى حكم المؤرِّخ البريطاني جيبون عن قيصر: «خصاله منبثقة من نفسه، وعيوبه عيوب زمانه»، وهو ما عبّر عنه المتنبي نفسه في هذا البيت:

فلا تُلزمني ذنوب الزمان،

إليّ أساء وإيّاي ضارا

للقصيمي حكم قاسٍ على المتنبي.

«لم يكن المتنبي إلا تجمعاً فادحاً كئيباً أليماً من خصائص وأخلاق وطاقات وعقول آبائه وتاريخه وظرفه وبيئته. (. . .) إنه لم يكن عاشقاً للقبح ولكنه كان مصاباً به. إنه لم يكن عفناً ولدته نظافة، ولا قبحاً ولدته قسامة، ولا تفاهة ولدته عبقرية، ولا نذالة ولدته كرامة، ولا بغضاء ولدته محبة.

(. . .)

إنه لم يكن إلا عربياً ولدته مواهب وتاريخ وحضارة وأخلاق ونبوات ومجتمعات عربية.

إنه مولود كما استطاع أن يولد لا كما أراد أن يولد.

لقد كان المتنبي عربياً جداً».

ثم يضيف:

«لقد كان المتنبي واحدةً من عاهاتنا ونقائصنا وسفاهاتنا التي لم تكن تشوّه تاريخنا أو تعيش فيه، بل التي كانت هي كل تاريخنا، بل التي كانت هي كل أمجاد تاريخنا».

أغلق الكتاب. استفزّني. كان الغلو يطبعه. يصطبغ بالضحالة وتغلب عليه الفجاجة. لم أكن في حالة أن أجري قراءة متأنية ولا موضوعية. لم أستطع أن أنسلخ عن ذاتيتي. بشرى تحيل إلى المتنبي، وما يربطني بها علاقة حبّ. أم هل هو المتنبي من بعث بشرى وجعلني أرتبط بها بعلاقة حبّ؟ أليست علاقتي به، منذ شرخ

الصبا، من هيّأني كي أرتبط بامرأة تسكنها العروبة وتسعى أن تستعيدها من خلال المتنبي؟ وهل يسكنها المتنبي؟ أم أنا من أسكنت المتنبي بشرى؟ إن ذهبت بشرى، فكيف لي أن أستمسك بالمتنبي، أو إن ذهب المتنبي فلمَ أرتبط ببشرى؟ هل بشرى فكرة سكنت جسداً، أم جسداً حلّت به فكرة؟

ربّاه، اختلط علي كل شيء. هل توجد بشرى؟ ألا تكون محجوبة على صواب حين تقول إنها رِئْي أو جنون. ألا تكون اختلاقاً؟ مثلما المتنبي لا يعدو أن يكون تمثلاً؟ ولكن ما العالم، مثلما يقول شوبنهاور، سوى تمثل؟ نصوغه بتمثلنا، وإذ نتمثله نستطيع أن نسكنه. نستطيع أن نشعر بعدها بالسكينة في أرجائه.

هل أوْدع عميد الأمن المتنبي مستشفى المجانين كي يتخلص منه، أم كي يخضعه للعلاج حقاً؟ هل علاجه علاج له لوحده، أم لقومه؟ لنفرض أنه مجنون، هل يسوغ لأهله أن يفرطوا فيه ويصرموا آصرة الرَّحِم، ويقطعوا حبل الودّ، ويمتنعوا عن أن يعودوه.

هل يمكن أن أستهين بما انتسج في علاقتي ببشرى أو بالمتنبي أو بالعروبة؟

نهضت لا ألوي على شيء وأنا أتلو عالياً:

فإن أمرضْ فما مرض اصطباري
وإن أحممْ فما حُمّ اعتزامي
وإن أسلمْ لما أبقى ولكن
سلمت من الحِمام إلى الحِمام
تمتعْ من سُهادٍ أو رُقادٍ
ولا تأمل كرى تحت الرِّجام

فإن لثالث الحالين معنى

سوى معنى انتباهك والمنام

سحرتني الأبيات. جلَت ما كان بنفسي من ضيق. سرّت عني. كنت في حاجة لكي أستمع إلى الموسيقى. بحثت في خزانة الأقراص. أحببت أن أستمع إلى موسيقى محمد عبد الوهاب. وضعت قرص «كان أجمل يوم، يوم ما شكا لي». تمددت على الصوفا. أغمضت عيني. غُرت في تموجات موسيقاه وكلماتها:

كان أجمل يوم، يوم ما شكا لي

قلبي من حبك وأنا خالي

كان أجمل يوم. . .

بقيت طريح الفراش لأكثر من أسبوع. لم أكن أشكو نزلة برد وحدها، بل الوحدة واختلاط الأزمنة كذلك. لم يكن يخفِّف تلك الوحدة سوى زيارات محجوبة. بعثت بها كي تؤدّي ما بذمتي لصاحب المطعم في الليلة التي نفرت منها بشرى وأصابني البرد. فاجأتني بأن صاحب المطعم لا يقتضيني شيئاً. بعثتها ثانية مذكّراً إياه بعشائي حين نفرت بشرى. ردّت محجوبة على مسامعي ما قاله لها من أنني لم أقصد مطعمه الليلة تلك. أردفتْ، ممّا أثار حفيظتي، أن بشرى لا توجد. صرخت في وجهها، وكيف لا توجد؟ أيكون كل ما انتسج من علاقتنا توهُّماً؟ إنقاذها لجنين من أنفكو بالأطلس الكبير أيكون اختلاقاً؟ هنالك تعرّفت إليها، وقد أيقظني مساعد لي ليلاً، وأنا إذّاك مسؤول بالإدارة الترابية ليطلعني في شأن امرأة من الجبل فاجأها المخاض، وحُملت على عجل إلى المستعجلات. حللت بالمستشفى وقد خرجت طبيبة من قاعة العمليات وهي تنزع قفازيها والإحباط يرين عليها. «البركة فيك، سيدي، والبقية في الجنين»، ثم انهارت على كرسي. لم ترسل دمعة. بشرى من أنقذ الجنين. هي من رعته واحتضنته. أخذناه بعدها أنا وإياها إلى أنفكو في أعالي

الجبل كي نُسلّمه إلى جدته. كان حكم بشرى قاطعاً. لن يبقى الجنين بالجبل لأنه سيموت من البرد وسوء التغذية وضعف الرعاية. وموته موت لها. إجهاز على جهدها. هل تهون هذه الآصرة التي نتوحّد فيها، فتى كان مشرفاً على الهلاك، أنقذته بشرى وأنا بالتبعية؟ وابنها، سامي، من كان ربيباً لي وأضحى ابناً. وذكرياتنا، أليست آصرة؟ أهي سراب؟ أُراني وبشرى على كثيب الرمل بمرزوكة نرقب النجوم، ونستمع إلى نأمة الليل؟ أنا وإياها حول نار الموقدة في أوزيولت بالساقية الحمراء، نستمع إلى الشعر العربي يتلوه واحد من الساقية الحمراء مشفوعاً بقيفان الشعر الحساني. بشرى وهي تصرخ تداري جزعها وأنا أسوق السيارة الرباعية بطريقة جنونية في الحمادة وعلى كثيب الرمال في الحدود المغربية الجزائرية، في بلدتي كأنما لأهزأ من الحدود.

- تُرى لو تم توقيفنا من لدن القوات الجزائرية، ماذا كنت تقول؟ تسألني بشرى.

أجيب:

- أتشفّع بحبنا. أو تشفعين لي، أو تشفع لنا أصولك التلمسانية. ثم للحقيقة أني لا أعترف بالحدود وهي لا تعترف بي. وُجدتُ قبل الحدود، ومن الطبيعي أن أهزأ من الحدود.

الذين تجنّوا علي بالقول إنني لا أؤمن بما تواضع عليه الناس من أوثان وأصنام محقون. استشعروا ما لم أكن أعرفه عن نفسي. أم هم من دفعني أن أكتشف نفسي، وأن أنفض الأغلال؟ اختلقوا خصماً، كي يثبتوا تماسكهم، ولم يقدروا أن ما تمثلوه قد يصبح حقيقة، حقيقتي وحقيقتهم، ويميط اللثام عنهم ويبدي عوراتهم.

نتوقف أنا وبشرى على كثيب الرمال. تخطُّ خطّاً على خاصرة كثيب الرمل تُوَثِّق فيه لعلاقاتنا.

- سيمحو الريح ما خططتِ، قلت لها.

- سيحمله أريجاً في الخافقَين، ترد.

هل عصف الريح بعلاقاتنا؟ هل سيحمله أريجاً في الخافقَين؟

لست أريد أريجاً. أريد صدراً حاضناً. أريد دفئاً. أريد رجع صدى. مَن أبثّه أمري وأشاطره بثّي، وأطلعه على نجواي. بشرى. بشراي. أسكنها وتسكنني.

كانت بشرى مسكونة بالتاريخ. أأقولها بصيغة الماضي منذ الآن؟

هي لا تَرُدّ. قطعت الاتصال. أرادت أن تتحول إلى أريج. إلى فكرة. وعلي أن أصوغ الفكرة. أصوغها من خلال جمع نُثار الذكريات وبقاياها. ليس للذكريات من معنى، ولكن لما قد أحُمّله تلك الذكريات من رُؤى.

خليج البوسفور. إسطنبول. نحن على متن سفينة. نمخر الخليج. أقف على سطح السفينة. تتطامن في حضني، وهي تُحوِّل النظر ما بين الشرق والغرب.

فإن طرْفاً لا أراك به أعمى، أقول لها مستشهداً بالمتنبي. تُعْجلني بشطر يؤدّي معناه بيت لامارتين:

Un seul être vous manque, et tout est dépeuplé.

نقصد حي سلطان أحمد. قصر طوب كابي. آيا صوفيا. المسجد الأزرق. نتمشى بعدها حتى البازار. تطالعنا صورة من مبنى لبديع الزمن النورسي. أتوقف أمامها. تجذبني بشرى. كان هواها

لمصطفى كمال. تغشى مكتبة وتشتري كتاباً لصور مصطفى أتاتورك.

نتناول شاياً بالبازار. ثم تُعجلني بالسؤال:

- لمَ لمْ ينبعث منا مصطفى كمال؟

- لأنه تجلّي لانكسار. كاد العقد أن ينفرط، وهو من جمع نثار العقد.

- وقد انفرط العقد عندنا فكيف لا يبدر منا مصطفى كمال؟

- نحن شِيَع. لمَ صددتني عن تملّي صورة بديع الزمن النورسي؟ قد يجمع نثار العقد.

- لا أدري كيف. هل أنسلخ عن ذاتيتي؟ لا أجدني في بديع الزمن النورسي. أنتظر الفارس المغوار.

نقف عند جامعة إسطنبول. ما كان سابقاً مدرسة حربية. واجهتها مكتوبة إلى الآن باللغة العربية: دائرة أمور عسكرية. تصرخ بشرى: Youpi. أدرك مرماها. الهندسة الأندلسية. بشرى عربية تتكلم الفرنسية، وأنا الأمازيغي أضطرب في رحم الثقافة العربية. اللغات استعارة، والثقافات استئجار، والمهم ما نحمله من وعي. كنت مرآتها، وكانت مرآتي.

ألم نكذب نفسينا لأننا اختلقنا «الآخر» كما توهّمناه، لأننا كنا في حاجة إليه كي نرى أنفسنا، أو نراها كما نريد. وهبْ الأمر كذلك، أليس ذلك تمريناً مجدياً؟ بل ضرورياً؟

هل كان لزاماً بعدها أن نفترق؟ كنا في حاجة إلى الآخر. كنا مُتعبَين. كنا نحمل، كل من جانبه، جروحاً غائرة وتمزقاً مريعاً. كانت علامته علاقات أسرية مهلهلة. آوى كل منا إلى الآخر، وأنس

به كما يأنس الغرثان لظلٍّ وريف. ولكن داء العطب قديم، كما يقال. كان كل منا يحمل جراحات حضارة، وتأوّهات ثقافة، واضطرابات عالم وانكساراته وتموّجاته وطموحاته. كنا نلتقي في أشياء، وهي المجال الأرحب، ونختلف في أخرى، وهي الحيّز الضيق نبادرها بالاحتراز والتستر. كان كل منا يقبع في مربعه الخاص به لا يودّ أن يزعج الآخر فيما قد يؤذيه. هل افترقنا أو أننا في طور الافتراق لأننا كنا نتستر عن فتح الحيّز الضيق الذي نختلف حوله وعن الحديث بشأنه؟ ران علينا الملل مذ رحل سامي لاستكمال دراسته في باريس. رفضت بشرى أن نذهب سويّاً إلى الأندلس. رتّبتُ كل شيء. وفي آخر لحظة تنصلت. اذهب لوحدك، قالت لي.

وذهبتُ لوحدي. إلى قرطبة. استأجرت شقة مقابلة للجامع. كان ذلك يكفي ليشيع في نفسي شعور الطمأنينة. كان قرع النواقيس يقطع رتابة اليوم. سعيت ألا أبدي أثناء مقامي شيئاً يفضحني أو يفضح علاقتي ببشرى. ومع ذلك فاجأتني سيدة إسبانية بالسؤال، في المكتبة الأندلسية الحية، كيف تزعم الحديث عن شيء تجهله؟ ثم عقبتْ: عبثٌ جهدك أن تبعث الموتى.

تلطفتُ في الجواب. قلت لها لا يضيرني أن أتعلّم ما أجهله، ولا أتحدّث إلا عمّا أحمله في أحشائي، ولا أسعى أن أبعث الموتى بل أن أوقظ النيام. نحن أسرة واحدة فرّقتنا الأوهام والأحلام. حملت كأس بيرة كي أطمئنها. ألامبرا. هو اسم البيرة. قصر الحمراء. نقعت منها. كنت أشرب دماً. وانسرب الثمل إلى ذهني ألماً. رفعت يداي وصفقت بهما كمن يتأهّب ليرقص الفلامينكو ثم صرخت من التعابير القليلة التي أعرفها بالإسبانية: Olé، مشفوعة

بالأنين. كنت أعرف أن مصدر الكلمة هو الله، تمَّ تحويرها. لم ترتَبِ السيدة أن الثمل قدح النشوة، ولم تكن تعرف أنه أثار الشجى وبعث الشجن.

ذهبت إلى غرناطة عند الغد. وتمشيت بأرجاء حي البيازين. كأنما الزمن بالبيازين يوقف حثيثه. كأنما الموتى يُبعثون. يتصالحون. ينسون إحَن الماضي وشؤون الحياة وما تحمله التصورات وما تفرّقه الأيديولوجيات. يمكن الانتقال في حيّز صغير، وفي يسر، من حانة تعلوها علامة «لا غالب إلا الله» إلى مسجد تحوّل إلى كنيسة. يمكن أن تنتقل من تأوّهات المتصوفة بالتكبير إلى أنّة راقصة الفلامينكو بلا نشاز. يتحول المقدّس إلى شؤون الحياة، وتتحول الحياة وشؤونها إلى مقدّس. ليس هناك مكان في العالم يجمع الشتيتين سوى.. سوى البيازين. روح الأندلس، أو ما أردته كذلك.

كنت أودّ حينها أن أجالس آخر ملوك بني الأحمر أبا عبد الله، بمقهى يحدّثني عن زفرته، وكنت أودّ أن أتحدث لابن باجة عن رسائله وما لم يقله غبَّ مقتله... أعجلتني أنّاتُ الموتورين عن الرسائل غير المكتملة للموتى. دخلت متحف محاكم التفتيش. استمعت إلى كل أنة. نفذت آلامهم وحشرجاتهم إلى سويداء قلبي. سألت محافظ المتحف، وأين الموريسكي؟ ولم لا يتحدث المكان عن أنّة الموريسكي؟

أعدت ما قلته للسيدة: لست أبعث الموتى، ولكني أسعى أن أوقظ النيام. قلتها لنفسي، وأنا أستمع إلى غجرية تغنّي بساحة قرب كنيسة. ذهلتُ عن كل شيء وهي تعزف من قيثارتها وتجأر من مواويلها. من أنّة الفلامينكو. لم أكن في حاجة إلى فهم الكلمات.

كان سرّها ينفذ إلى قلبي. كانت تنتقل في يسر. عقلي الباطن، أو جنوني يُحولها.

Ya arriba el limón
Abajo la oliva
Olé, olé Holanda

يا رب العالمين
الله أكبر
لا إله إلا الله.
صرختُ:

Agua, agua

أقوى، أقوى[1].

ما ثلمه التاريخ، حفظته الجغرافية. صانته قلوب المجانين.

ذهبت إلى الزهراء. إلى أطلال الزهراء، وأعدت بناء عالمها في ذهني. خلاعة عبد الرحمن، فسولة الحَكم، دسائس جعفر، خيانةُ صبح، طموح ابن عامر. كل ذلك لم يكن ماضياً، بل حاضراً أعرفه. يسكنني. يغُلّني. كنت أستمع إلى المرشد السياحي يشرح تاريخ الزهراء بالإنجليزية مع جمع من السيّاح اليابانيين وهم يفغرون أفواههم تعجباً، ويحملقون بعيونهم شَدهاً، ويرسلون آهة من الذهول: آآآآ، أووووو، إي ي ي. عبد الرحمن الناصر وسفارة ملك

(1) يُنظر هنا إلى كتاب الباحث الإسباني أنتونيو مانويل حول الجذور الصوفية الإسلامية لغناء الفلامينكو:

Antonio Manuel: *Flamenco, Arqueología de lo jondo*, Almuzara, 2018.

بيزنطة، واستشفاع الملك شانشو بالحَكم، وحِجابة جعفر وقصر جعفر، وقصة حب صبح مع ابن عامر. ثم ضعف هشام المؤيد بالله. كدت أقطع حديث المرشد بالقول إن الماضي الذي يتحدث عنه حاضر، أو أن حاضرنا ماضٍ. كدت أجهر للسيّاح اليابانيين أنني أتيت للتو من عالم عبد الرحمن الناصر بحشمه ونزقه وحريمه وبطشه، وأني اشتغلت كاتباً في بلاط الحَكم، وأني نفرت من عالم الحاشيات لأنني لم أصطبر لتخرصات جعفر وألاعيبه، وزير الحَكم وساعده الأيمن وعضده ورجل ثقته، وما شئت من الألقاب. لم يكن جعفر يدرك أن حتفه سيكون على يد ابن عامر. هو من استقدم ابن عامر. ابن عامر من نفذ إلى قلب صبح، ومنها قلَب حكم بني أمية. صبح، الثلمة التي نفذ منها مكر التاريخ ليضع حدّاً لحكم بني أمية. كنت مبرمجاً لأعيد تمثيل مسرحية مكرّرة. مسرحية يلتقي فيها أمراء خاملون تستبد بهم الخلاعة ويغلب عليهم المجون، ولا يعرفون من شؤون الدنيا إلا ما يبث لهم دهاة من بطانتهم، يكذبونهم ليتحكموا في رقابهم. ولكي لا تنكشف الخدعة يتعقبون من ينطق باسم الحقيقة. كي يقبروا الحقيقة. ولحسن الحظ، ينتصب مكر التاريخ، لينسف ألاعيبهم وترّهاتهم. هل تستحق هذه الأندلس كل هذا الحنين؟ ما جدوى أن أعيد بناء ما انبنى على الدسائس، والكذب، والقتل والغيلة، والتهتك والمجون؟ قفزت من سطح الخشبة وتحللت من دور مُقدّر سلفاً. كي أوقظ النيام. لا حاجة أن أزعج السيّاح اليابانيين. الأمور أعقد ممّا قد تدركه عقولهم التي نفضت سطوة الحكم المطلق، وابن ماء السماء، والشوغونات، ونزوات الحكّام ودسائس الحاشيات. كي تعانق الحقيقة. كي تبرأ من الوهم. من الأوهام.

ثم حدث شيء غريب. شيء فريد. بقرطبة. بالبيت الأندلسي في الحي اليهودي. زرت القيّمة عليه. امرأة في السبعين. من بيت المقدس. من فلسطين. تعيد بناء ما انهدم. تأخذ بيدي في أرجاء البيت الأندلسي. إلى الصحن، عند الجُب. قرب النافورة. مع أكمام الزهر ونثار أوراقه وأريجه. تتحدث عن كتاب لابن عربي، مواقع النجوم. المرأة المُسنّة التي أخذت بيدي، لم تكن إلا بشرى. بشرى وقد تحولت إلى امرأة مسنّة. هي العينان ذاتهما، والشعر ذاته، والوجه ذاته وقد علته التجاعيد.

كدت أواجهها بحقيقة ما أرى، ما الذي جرى، تركتك ورائي ممتلئة برواء الحياة وغضارة الشباب، وها أنت هنا قد تحولت مكتملة التجربة، ممتلئة النظر، وقد تحللت من الهوى والرغبة. هل انتقلت بشرى من الذكرى إلى الفكرة؟ ومن الجسد إلى الروح؟ هل يسوغ أن أحتضن السيدة وأقبّلها على شفتيها كما أقبّل بشرى؟ دلفت إلى المرأة في خشوع وقبّلت يدها. لم تسحبها. استكانت للأمر كما لو أنها كانت تنتظر أن أفعل. افترّ ثغرها عن ابتسامة حبور ورضى. كنت أقبّل الفكرة. تقبيلي ليدها آصرة. بل عروة وثقى. قبّلت فكرة سكنت امرأة. فكرة ذات قيمة مطلقة كما في الرياضيات، مهما تحولت الإشارة أو المؤشر، الشخص أو صورته أو سنّه، ومن أي مكان قد ينبثق منه. سيّان أن يكون الدال بشرى أم سلمى الفاروقي، القيّمة على البيت الأندلسي. تذكرت لحظة أخرى تحمل عبق تقبيلي ليد السيدة المسنّة التي تلبّست روح بشرى عادت إلي ركضاً بالبيت الأندلسي. كنا قد ذهبنا أنا وبشرى بمراكش عند الكاتب الإسباني خوان غوتيسولو. ضربنا موعداً مع خوان في مقهى فرنسا بجامع

الفنا. التحق بنا، ثم أخذَنا في سراديب المدينة القديمة حتى بيته. توقفت بشرى في الردهة المفضية إلي البيت عند صورة طفل فلسطيني من أطفال الحجارة يواجه دبابة فلسطينية. عند زعيم شيشاني اغتاله الروس. عند راية مسلمي البوسنة. معذّبو الأرض أو المستضعفون في الأرض. اختار خوان، كما كنت أناديه، معسكره، يجأر بأناته. كان يمشي في عسر وهو يتقدمنا في دهليز بيته وقد انكسر حوضه بعد إذ هوى في الحمام ولمّا يبلْ. توقفت بشرى عند الكتابات في الدهليز باللغة العربية. أشعار ابن عربي، وابن زمرك، وابن زيدون، وابن مسرة، وابن سبعين... إلى أن بلغنا الصحن. إذّاك أكبّت بلا استئذان على يد خوان وقبّلتها. احمرَّ وجهه. غلبه الخجل. لم يتهيّأ للأمر. لم يُعَدّ له. استدار كي يداري خجله يسأل ماذا نريد أن نشرب. كان كتاب **الأبله** لدوستويفسكي مطروحاً على طاولة. تحولت بشرى تكلّمه بالإسبانية: «أنا سعيدة أني التقيت بك، وأنك صنت ذاكرة أهلي وذكرى الموتورين». لم تكن الشمس قد غابت حين عدنا للفندق. فاجأتني بالقول:

- تعال. أريد أن نتحابب.

لم أتوقع الأمر. دفعت أن لنا عشاء، ويمكن أن ننتظر بعد عودتنا من العشاء.

- أريد الآن.

تحولت إلى النافذة كي أسدل الستائر.

ردّت بقوة:

- لا تسدل الستائر.

- قد يرانا الناس من نوافذ غرفهم.

- فليكن. أريدهم أن يروننا. أريد أن نمارس الحب كما لم نمارسه من قبل ويكون الناس علينا شهداء.

ثم أضافت:

- أنا اليوم من يمسك الزمام.

خلعتْ لباسها كله والتصقت بي تقبّلني. حاولت أن أحجب النافذة بجسمي. أخذت تنزع حوائجي. رنّ الهاتف. هاتفي. أخذته من جيبي دون أن تُحوّل شفتيها من فمي وألقت به من النافذة. سحبتُها إلى السرير عسى أن ننحجب عن الأنظار. لم أعد أهتم بشيء. ثم امتددنا على السرير، وصرنا جسداً واحداً، وروحاً واحدة.

- هل؟...

- نعم عزيزتي.

لم أكن أعرف ما السؤال، وبادرت بالجواب. أو كنت أدركه حدساً. لم يكن هناك من سؤال. احتضنتني بشدة وقد غلبتها اللذة. ثم طوقت صدري بقوة.

- أنا سعيدة، قالت.

ولم أسمعها نطقت بذلك قبل ذاك اليوم.

بقينا مستلقين على السرير، إلى أن انسدل الظلام.

غلبتنا الرغبة وذهلنا عن الزمن.

- العشاء؟ سألتها. أردفت:

- اذهبْ أنت وعشاؤك إلى الجحيم.

ضممتها بقوة. لم أبتئس للتجريح، بل رأيته أبلغ تعبير عن تعلُّق.

انتسج من حميميتنا إرهاص فكرة. لم أكن أقدّر أن الفكرة لن تستوي إلا من انكسار، إلا من قطيعة. على جسر الألم ومناغاة الجنون.

تذكرت ما كانت اقتضته مني بشرى، أن أقرأ لها شذرات من ديوان المتنبي. لم تجد عِوضاً لما تراه من تحلُّل في عالم مضطرب فقد الأمل والذاكرة سوى أن تستنجد بالمتنبي. تجرّأت وقلت لها:

- وهل أنت عربية كي تبعثي المتنبي؟ أنت إسبانية، تكلَّم أجدادك العربية لفترة. تحملين طبقات إيبيريا. تحملين تراث الرومان وتحملين ميراث المسلمين، ومؤثرات اليهودية، ومخلفات المسيحية.

ردّت في رباطة جأش:

- أنا ما أريد أن أكونه. أنا أرتبط بجرح. بتراجيديا. بنكبة.

قالت ذلك وهي تقلب في الصالون صوراً من هاتفها المحمول. صور الفتى الخطيب الذي عذّبه الشبيحة حتى الموت لأنه كتب على الحائط كتابات منددة بالاستبداد. صورة الطفل إيلان الذي مات غرقاً. صورة الطفل السوري الذي اصطلك من انفجار. صور الدمار في حلب. صور الجثامين. صور الخراب. صور النكبة. منذ ميسلون صيف 1920، نكبة 48، حتى نكبة سوريا.

النكبة ليست حدثاً قالت لي، ولا سبيل للتغلب عليه سوى بالتهجُّد والتبتُّل. إلا بصون الذاكرة.

قلت لها: الذاكرة لا تكفي.

- صُغ منها فكرة إن شئت، أو إن استطعت. ما أستطيعه هو الذكرى.

ثم وضعتْ قرصاً من الغناء الغرناطي لبهجة رحال. أغمضتْ عينيها. أخذنا نستمع كلينا من شعر ولادة بنت المستكفي:

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق
سبيلٌ فيشكو كل صَبٍّ بما لقي
وقد كنت أوقات التزاور في الشتا
أبيت على جمر من الشوق محرق

ثم سالت دموعها.

لِمَ تناءت بشرى؟

أهو ثمن الانتقال من الذكرى إلى الفكرة؟ أيكون ثمن ذلك هو الفراق وألم الفراق؟

تماثلتُ للشفاء. ما أن بللت من سَقَمي حتى قصدت المتنبي بمستشفى الرازي. أخذ البرد ينجاب ويسري بعض الدفء. أخذت بعض الملابس الخفيفة وموسى الحلاقة كي أسَلّمها له.. فاجأني وهو يقعد على كرسي بجانب الحديقة بساحة المستشفى بلحية غير حليقة... جلست قربه على المقعد. كنت أود أن أخبره بما جرى لي مع بشرى ونفورها وأحجمت لما رأيته من حاله. لم أفاتحه في حكم القصيمي عليه كذلك. اقتربت منه وسألته بالعربية الفصيحة:

- كيف الحال يا أبا الطيب؟

فوجئت أن ردَّ علي بالدارجة المغربية من دون لكنة:

- شوية. الساعةُ لله. ها انت كتشوف بعينك.

رددت متعجِّباً بالدارجة:

- اش ك تقول؟

- اللي سمعت.

- كيف اش؟

- الحالة مْرَنكة، والقضية حامضة[1].

- عاود؟

- مكفسة[2].

ثم أخذ يغني أغنية للعنقاء:

الحبيب اللي ولفتو من بعد العشرة، مشى علي

ما بقى نسمع صوتو في اغصاني

استغربت لِما سمعت. يعسر على طارئ أن يتشرّب ثقافة ويتمثّلها في ظرف وجيز ويتكلم لسانها بنطق أهل البلد، دون أن يرتضخ لكنة ولو كانت له عبقرية المتنبي. أي شيء أسمع وأرى؟

رددت بالدارجة:

- شفتك ويليت (أصبحت) واحد آخر؟

- لا، أنا هو أنا، شوف أنت. هذاك خونا في الله ك يرقع.

ثم تلا البيت التالي:

عائبٌ عابني لديك ومنه

خُلقتْ في ذوي العيوب العيوب

كيف عرف المتنبي بشأن ما كتبه عنه القصيمي، وبحكمه عليه؟ بيته جواب شافٍ. فاجأني. المرض الذي غيّبني عنه، أحاله شخصاً آخر. شخص يتمثل طرائقي، وينطق بذات نفسي. هل غياب خولة ما ألقي به في الحزن؟ هل تراه لم يصطبر لفراقها؟

---

(1) مرنكة: تعني في جهات من المغرب والجزائر، سيئة. الكلمة في طور الانقراض. لم أهتدِ إلى أصل الكلمة، ولعلّ أن يكون قلباً لمركنة، أي راكنة، ومتوقفة.

(2) مكفسة: بمعنى سيئة، وهي كلمة من أصل أمازيغي، أكفوس وهو السخام.

استرسل بعدها يتلو بيتاً يذم فيه الفراق وكأنه يحدّث بما في ذاتي:

ومن خصّ بالذّم الفراقَ فإنني
من لا يرى في الدهر شيئاً يُحمد

كنت أود أن أسرِّي عن نفسي بزيارة المتنبي، فإذا حاله شبيه بحالي. غلبه الأسى مثلما غلبني. لو كنت أريد تعبيراً لما أشعر به لما وجدت أدق من بيت المتنبي الذي استشهد به. ران علينا الصمت. لم أجد ما أملأ به الفراغ سوى أن أحدّثه عن الخادم محجوبة.

- محجوبة تسأل عنك..

نظر إلي نظرة لا مبالية وردّ علي بالدارجة المغربية:

- محجوبة ك تدخل وتخرج في الهذرة. تخالطو لها النوامر (الأرقام)، ما بقت تعرف كوعّو من بوعّو.

غريب أن يفكر فيما أفكر فيه، ويشاطرني أحكامي، والأسوأ حالي، ويعبِّر عن ذلك بلساني.

نهض بعدها من المقعد. تقدّم خطوتين ثم استدار نحوي وأخذ في الإنشاد:

كأن الحزن مشغوفٌ بقلبي
فساعةَ هجْرها يجد الوصالا
كذا الدنيا على مَن كان قبلي
صروف لم يَدمن عليه حالا
فما حاولت في أرض مقاماً
ولا أزمعت عن أرض زوالا

علـى قـلـق كـأن الـريـح تـحـتـي
أوجّـهـهـا جـنـوبـاً أو شـمـالا

لم أتمالك، فصحتُ كما لو أني أحدّث المتنبي الذي عهدته، ولكي أقطع مع الحزن الذي شملنا:

- لله درُّك يا أبا الطيب. أحسنت.. يا لها من صورة رائعة بديعة، كأن القلق راحلة، بل سفينة بغير مِقود تعبث بها الرياح، وأنت لا تستكين لنزواتها، فتُوجّهها أنى شئت... وكم أحب هذا البيت الذي جمعت فيه المتناقضين:

فـمـا حـاولـتُ فـي أرض مـقـامـاً
ولا أزمـعـت عـن أرض زوالا

العبقرية هي الجمع بين النقيضين.. لا تقيم بمكان، ولا تظعن عن مكان. وكأن الهجر عندك هو الوصال. أمعنِ السمع لهذا القول لفيكتور هيغو: ما يصنع جمال جبل، يُحْدث بشاعة حديقة. الحديقة تخضع لقواعد الترصيص والاتساق، والجبل لا يخضع لقواعد، تمتزج فيه الأشجار الباسقة، والشجيرات الصغيرة، والأعشاب الطفيلية، بلا اتساق، وجماله في انعدام الاتساق.. هو ذا أنت يا أبا الطيب، جبل، ويحكمون عليك بقواعد الحديقة.. وهذا ما لم يفهمه الفتى الطائش بدر بن عمار الذي عرّضت به في هذه القصيدة؟ حتام تستكين للأسى؟

- مذ رحلت خولة.. ضقت ذرعاً ها هنا.. قصدتك لا لكي ينتهي بي الأمر إلى مستشفى المجانين، ويهزأ بي المرضى، وأقع في غياهب سجن، وتُسترخص حرمتي، وتتجاسر علي الدهماء، ويُغلظ علي الطغام أو يقتحمني المتطفلون الحاقدون وينفثونني بسمومهم..

ثم أردف منشداً:

أرى المتشاعرين غُروا بذمي
ومن ذا يحمد الداء العضالا

ومن يكُ ذا فم مر مريض
يجد مُرّاً به الماء الزلالا

أجبته من جنس قوله:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني كامل

فردّ:

- ولكني إنسان أتأذى ممّا يقال، ولا أفهم هذا التحامل علي.

أجبت:

- خلتك تجاوزت ذلك كله.

ثم أردفت:

- هيا نتمشى لبعض الوقت هنا بالحديقة. لا تَدَع الحزن يملك عليك نفسك.. كان للأمور أن تكون أسوأ لو بقيت في مفوضية الشرطة وأُحلت على القضاء. أرى أن العميد أحسن صنعاً بأن صرفك إلى هنا بمصلحة الأمراض النفسية..

- مع المجانين؟ يتوهمون ويختلقون ما به يؤمنون، فيضحى حبلاً في أعناقهم يغُلّهم ويصدّهم عن الحركة...

- دعهم وما يعتقدون. ماذا يفيد أن تُخرج الناس من ضلالهم إن هم وجدوا ضالتهم فيها وحسبوه وضعاً طبيعياً. سأكلِّم مدير المستشفى في شأنك كي يسمح لك بمغادرة المستشفى. لا أرى مصلحة أن يستبقيك هنا.. ينبغي أن تبذل جهداً بسيطاً.

- وما طبيعة هذا الجهد؟

- أن تنسى خولة. . . لا يمكنك أن ترتبط بالأحياء. . . نعم أنت عابر للأزمان، ولكن لا يمكن أن ترتبط بعلاقة دائمة بحياة الأحياء، أو الفانين كما يقول الإغريق. . . فأنت سترحل حتماً، ولا أريد أن يكون حجم الأضرار كبيراً.

- حلولي يقترن عندك بالضرر؟

- أريده أن يكون خيراً كله. لا يمكن لخولة أن تعالجك وأن ترتبط بك وترتبط بها. سيُفسد عليها ذلك ما انتُدبت من أجله وهو علاجك. فنحن نميّز ما بين الذاتية وما بين الموضوعية، ولا يمكن للموضوعية أن تقوم إلا بالتجرد من الذات. لا يمكن التصدي لأمر ومعالجته ونحن مثقلون بالذاتية أو الذاتيات. . . هذه مفاهيم لم نصغها، وأخذناها عن الغرب، يمكن أن تجد مقابلاً لها في كلمة «الهوى» أو الظن.

- مثل قولي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه
وصدّق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عِداته
وأصبح في ليل من الشك مظلم

- هو ذاك. فهمت إذاً.

- أن أنفصل عن خولة؟

- تماماً.

- كي يخلو لك الجو.

فاجأني الردّ. نعم فاجأني. هل نضح شيء ما يفضحني في

علاقتي بخولة؟ هل أخذ فؤادي يخفق لخولة؟ هل مصدر الجفاء مع بشرى هو خولة، أم أن خولة نتيجة الجفاء مع بشرى؟ ما السبب وما العَرض؟ هذه قضايا ليست ثانوية. الخلط بين السبب والعَرَض. كثير من مشاكل بني البشر فيما بينهم، فُرادى وجماعات، بل مع أنفسهم، مردّها الخلط ما بين السبب والعَرَض. نحت الغربيون مصطلحاً لهذه الحالة، حالة الخلط ما بين السبب والنتيجة: Métonymie، ممّا يعني بالإغريقية تغيير الاسم أو المعنى. بشرى وخولة هما امتزاج لحالة. ما الأصل وما الصورة؟ ما الدال وما المدلول؟ زعمت محجوبة بأن بشرى لم توجد، فهل خولة هي الأصل؟ أم كلاهما صورتان لشيء ثاوٍ في فؤادي. يا إلهي، هل جننت؟

نظرت حولي. كان المتنبي بصحبتي. كنت أعرف أن خولة تُحدّثه مثلما يحدّثها، وليس ببعيد أن تخبره بأننا تناولنا الغداء سوياً. صحيح أنني كنت «مهنياً» كما يقول الأميركيون، ولم أدَع ما بقلبي يطفح أو ينضح. . ليس ببعيد أن تقرأ خولة ما بقلبي. . . هي ذكية، وصاحبة إحساس مرهف، ولن يعزب عنها ما يضطرب في أحشائي. . قد تخبر المتنبي بذلك، وقد يتندران بذلك.

أخذت نفَساً عميقاً كمن يستجمع قواه ثم قلت له بحدّة:

- الطبيبة هي من التمس الحديث إلي لأنها لا تعرف عنك شيئاً. لا تحسبنَّ أنك ذائع الصيت. السواد الأعظم غلبت عليه شِقوته، ولا يعرفك إلا جيل من المتعلمين في طور الانقراض، والجيل الحالي مصروف إلى المتع، تستهويه التسلية. يطرب لشعر ليس بشعر، ويفغر فاه لكتابة ليست بفكر وإنما هي كلمات مرصوفة، بلا اتساق ولا معنى، تتخللها مصطلحات مجلجلة، ويشد الرحال

لمغنّي يُهيج غرائزه، ولمطربة تتأود أو بلغتك تميس كغصن البان، ويضرب أكباد الإبل، كما كنتم تقولون في القِدم، لمباراة في كرة القدم. . أما شِعرك فمن ذا الذي يقرؤه، ومن يقوى على ذلك؟

إما أن يُرصف في ترتيب زمني، منه قولك في الصبا، ومديحك بالرملة، ومقامك عند التنوخيين، وتوددك لابن عشائر، وهجاؤك لابن كليغ. . أتوقف هنا، لأن لا أحد الآن يقوى على تتبع هذا المسار وتذكر الأسماء وإدراك ما تحيل إليه. وإما أن يوضع حسب ترتيب القافية، ويُشرح لفظياً، أو يُعرب وفق قواعد الإعراب القديمة. . . ينبغي للمرء أن يصاب بالجنون كي يقرأ شعرك، وأنت تستكثر علي أني أقرأ شعرك، وأُعرّف به للطبيبة المشرفة على علاجك. . تستكثر علي أن أشتار شهده، وهو يختلط بالصاب، وبما لا يفيد في عصرنا هذا.

زفر زفرة ثم أنشد:

وما كل هاوٍ للجميل بفاعل

ولا كل فعّال له بمُتمم

صادفتنا الزُّهْرة. هل هي مصادفة أم أنها كانت تتحين الفرصة للانقضاض على المتنبي؟ أنقذتني من توتر غلب على حديثنا. . قصدَته تواً. طلبت يده. مدّ يده لها. غلبته ابتسامة هو الذي لا يبسم إلا لماماً. .

- شوف أبو علام، سمحت لك دنيا وآخرة. . . دروك اللي ردّ بك الله، راني ما ندوزكش[1]. . فهمتْ؟ عارفة فيك البركة، أو ما كانت فيك البركة ما نرومك ش. . واه، أنا ما هي مجلية؟ شحال

(1) التعبير ترجمة حرفية عن الأمازيغية «إيزريت»، وتعني أعرض عن شيء ما.

ندّاوا عند السيد، يقول لي كلام، ونجاور، ونزاوگ[1]، وزايداها بالكتْبة، وانا كِالمدقوقة بالشفرة، ما خليت جبل، ما خليت وطا (السهل). أو تقول نزلت علي الرحمة! حتى السادات ما بقات فيهم البركة. زمان ممسوح من الخير ومن البركة. يا لطيف. الله ينجينا وينجيكم.. راني نبغيك يا بو علام، ربي اللي عالم. إوَ تحزمْ. جيب قالب سكر، ونخرجو العلام، نفجعوا المحاسيد، ويفرحوا الاحباب وتزغرت الزغراتات..

توجهتْ إثرها نحوي منتهرة إياي:

- أتّا، ما تخليش الراجل يدور براسو، لاصق فيه كالذبان... ك صباح ك عشية. سِرْ تقضي حاجة لراسك، وخلي عليك بنات الناس. يا لطيف على زمان. الصغير ما يحشم، والكبير ما يرحم.

وفجأة انبرى المتنبي صادحاً:

لم يتركِ الدهر من قلبي ولا كبدي
شيئاً تُتيّمه عينٌ ولا جيدُ
يا ساقييَّ أخمرٌ في كؤوسكما
أم في كؤوسكما همٌّ وتسهيد
إذا أردت كُميت اللون صافيةً
وجدتها وحبيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه
أني بما أنا شاك محسود

لم تتمالك الزهرة، فأجهشت بالبكاء. وحتى أنا غلبتني دموعي.

---

(1) كلمة أمازيغية تعني نادى، ومن ثمة توسّل.

عادت خولة من سفرها، والحقيقة أني ابتهجت لعودتها. جميع نزلاء المصلحة سُرّوا كذلك. أخذوا يصيحون في الساحة: «خولة، خولة» وهم يقومون بجولة العصر وقد خرجت لتتفقدهم. صادف ذلك حلولي بالمستشفى كي آتي بأغراض المتنبي. . تتبعت المشهد قريباً من خولة. وفجأة صاح ابن جني يدعو الجميع لالتزام الصمت. تقدّم المتنبي نحو خولة، وأشار لها برأسه. تجاهلني تماماً، ثم أخذ ينشد لها شعراً، وهي تصغي وتبتسم دون أن تفهم شيئاً:

وما أنا إلا عاشقٌ كل عاشق
أعقُّ خليليه الصفيين لائمه
وقد يتزيا بالهوى غير أهله
ويستصحب الإنسان مَن لا يلائمه
كئيباً توقّاني العواذل في الهوى
كما يتوقّى ريضَ الخيل حازمه
قفي تغرمِ الأولى من اللحظ مهجتي
بثانية ومتلف الشيء غارمه

إذا ظـفـرت مـنـك الـعـيـون بـنـظـرة

أثـاب بـهـا مُـعْـيـي الـمَـطـيّ ورازمـه

ومـا اسـتـغـربـت عـيـنـي فـراقـاً رأيـتـه

ولا عـلـمـتـني غـير مـا الـقـلـب عـالـمـه

فـلا يـتـهـمـني الـكـاشـحـون فـإنـنـي

رعيت الردى حتى حَلت لي علاقمه

كان أوّل ردّ من الزهرة التي لم تستسغ أن يقول المتنبي شعراً في خولة. حسبت أن غريمتها ولّت، فلما سمعت شعر المتنبي يُتلى على خولة، ولو لم تفهمه، صاحت مغاضبة:

- سر الله يمسخك أبو علام. الناس تزيد القدام، وانت تولي ل لور (الوراء)، ك بولة الجمل. الله يبقي الستر..

ضحكت الطبيبة من ردّ الزهرة. أخرجت هاتفها المحمول وأخذت تأخذ صوراً. بعد إذ فرغت، استدارت نحوي كي نقصد مكتبها. داريت انزعاجي. لم تكن القصيدة نسيباً في خولة فقط، بل تعريضاً بي. يُعرب المتنبي عن عشقه ويتجنى على من يلومه فينعته بالعقوق، ويصف حبي بالحب الزائف، ويعتبرني غير أهل لحبّ خولة ولا لصحبته حين قوله: «ويستصحب المرء من يلائمه». لم أفهم هذا التحامل من المتنبي أنا من استضافه، وضحّى من أجله.

غشيت مكتب الطبيبة خولة. أجلستني كرسياً، وسألتني عن فحوى القصيدة. لم أتحدث إلا عن جانب العشق، فهو العاشق كل العشق الذي لا يقبل لوم اللائمين، وهو الحزين الذي أصبح كالفرس النافرة تستعصي على من يُروّضها، ومحبوبته قد قتلته بنظرتها، وعليها

أن تحييه بنظرة ثانية، ومن أتلف شيئاً غرمه. نظرة المحبين تبعث الحركة في المطايا إن كلّت، وفراقها علّم عينه ما قلبه يعلم. ثم هو يتهجّم على الحاقدين ويهزأ منهم لأنه أنس بالموت حتى غدت مألوفة كما المر يغدو حلواً.

سجّلت الدكتورة المعلومات التي قدمتها لها. كنت أود أن أقول لها إن المتنبي قد خرج عن طوره، وأن لا تأبه كثيراً لقوله، فهو شعر مجنون.. ثم إنه ليس من هذا العالم، وأن من يحبها صدقاً هو أنا، ولكني أحجمت. ليست لي عبقرية المتنبي. ليس لي حسن قريضه. قصارى ما قد أقوم به هو أن أتمثّل شعره وأستشهد به. وشتان ما بين امرأة تلد وأخرى تحتضن... أخذت الغيرة تسري في وتنال مني... سعيت ألا يرشح شيء من دخائل نفسي، وشفعت بابتسامة زائفة. شكرتني الطبيبة. قلت لها متودِّداً:

- يمكن أن أبقى إنْ أنت أردتِ..

- هذا يكفي لهذا اليوم..

لم أعد أفهم الدكتورة خولة. أهي تفضّل المتنبي علي؟ أتستخدمني لا غير؟ كنت أحسبها تخصّني بعطف. هذا الذي استشعرته حين تناولنا الغداء سوية. خرجتُ من مكتبها كاسف البال. أجلْتُ النظر في سبورة العمل. عليها دوام الحراسة ليلة الخميس. آليت أن آتي ليلة الخميس يوم حراستها، وليكن ما يكون..

انتظرت ليلة الخميس بفارغ الصبر. لم آتِ المصحة يوم الخميس بعد الظهر كما دأبتُ لآتي للمتنبي بأغراضه. اتصلت بالماجور أخبره أن نزلة برد أقعدتني. كان ردّ الماجور أن المتنبي في

يد أمينة. جاوزت الساعة العاشرة ليلاً حين غادرت شقتي متوجِّهاً إلى مستشفى الرازي. ارتديت جاكتة دافئة، واعتمرت بيريه، وسُقت السيارة وركنتها بعيداً عن المستشفى حتى لا يقف أحد على رقمها ويربط الصلة بي، ووضعتها قرب بنايات السكن المحاذية. تمشّيت المسافة الفاصلة إلى بوابة المستشفى. لم أترك الوقت للحارس كي يستفسرني وبادرته:

- الأمور على ما يرام؟

اندهش واستشعر الخشية وحسبني مفتشاً أو مسؤولاً إدارياً من الوزارة. ردّ:

- كل شيء بخير، نعامس...

دخلت وأنا أصفّر كي أشيع شعور الاطمئنان... يكفي أن يوقفني الحارس كي تنكشف اللعبة وأنفضح. مرت المرحلة الأولى بسلام. حُمت حول غرفة خولة. كانت الإنارة تنبعث منها. لم تنم بعد. كانت نافذة الغرفة تطل على الحديقة ودفتاها من نوع الخشب المخلل الذي يحجب الشمس وينفذ منه النور، من النوع الفرنسي المعروف ببرسيان. كان ضلع من ضلوع النافذة منكسراً، ممّا يُمكّن من أن يتسلل النظر إلى ما في الداخل.. كانت خولة تلبس فستاناً خفيفاً، ومستلقاة على السرير تقرأ.. أهاجتني صورتها تلك وتمنيت لو كنت مستلقياً معها في السرير ذاته ووجنتي محاذية لوجنتها وأنا أقرأ عليها شعراً، لا يضيرني أن أقرأ لها شعر المتنبي ما دمت أنا من يستلقي معها على السرير وليس المتنبي. توقفتْ للحظة. نظرتْ في هاتفها المحمول كما لو هي تنتظر مكالمة أو رسالة.. ثم تفحّصت ساعتها. نهضت في هدوء. وقفت أمام مرآة. ألقت النظر على

صورتها المنعكسة من المرآة. أدارت رأسها، ثم سوّت من شعرها، ونفثت عطراً على عنقها. أشعلت مصباح الطاولة، ثم أطفأت إنارة الغرفة. وضعت شالاً على عنقها. فتحت الباب في يسر، وتسللت في الظلام وهي تحمل هاتفها المحمول تسترشد بنوره. تركتِ الباب مواربا. كان يبدو أن لها موعداً. الممر يفضي إلى باب الإدارة. حُمت في الاتجاه المقابل حتى بلغتُ الزاوية، وأخذت أنظر من طرْف. انفتح الباب. ألقت خولة نظرة يمنة ويسرة كي تتأكد أن لا أحد يتعقبها. كان الليل بهيماً، وكان يتعذّر أن تتبينني في دجنة الظلام.. تقدمتْ متسلِّلة حتى بناية المجانين. كانت الإنارة مطفأة، وهي تُطفأ مع التاسعة ليلاً، وقلّما يتجاوز نزيل تلك الساعة للنوم. كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة. طرقتْ طرقاً خفيفاً على نافذة..

استدرت حول البناية من الجهة الأخرى حتى أكون قريباً من مسرح الأحداث أسمع ما يتردد وأنا مختبئ وراء الزاوية.. لم يكن ممكناً أن أستمع إلى ما يجري في المكان الذي كنت به. كانت النافذة قد انفتحت حينما استدرتُ حول بناية الإدارة من الجهة الأخرى. تبيّنت وجه المتنبي. هو بعينه. انتهى إليّ صوت خولة وهي تكلمه بالفرنسية:

- Je l’ai fait pour toi, Al Mutanabbi.

ردّ بالفرنسية بلا لكنة.

- Merci, c’est vraiment adorable de ta part.

سألته بالفرنسية دوماً:

- Tu m’as beaucoup manqué chéri.

- Toi, de même. Tu m'as terriblement manqué.
- Ça va mieux?

وردّ المتنبي:

- Bof. Ça peut aller.
- Dis-moi chéri, ce qui te pèse sur le cœur. On est entre nous.
- Tu penses?

أين تعلّم الفرنسية؟ ثم هو ينطقها بلا لكنة. يا إلهي.

أضافت خولة:

- On est seuls. Alors récite-moi un de tes beaux poèmes.

أمسك الوغد يديها، واستسلمتْ له. قبّلهما، وأخذ يتلو شعراً. وددت لو كان جسدي غرضاً للنصال تقطعه إرباً إرباً، عوض ذلك الشعر الجميل الرائع، والصور البديعة، مع حُسن التعبير، وجميل الوصف، وسحر الجرس.. كنت أسمعه وهو يتلو هذا القول الذي لو لم يكن قائله المتنبي في خولة لطربت له:

أمِنَ ازديارك في الدُّجى الرقباءُ
إذ حيث أنتِ من الظلام ضياءُ
قلقُ المليحة وهي مسك هتكُها
ومسيرُها في الليل وهي ذُكاء
أسَفي على أسَفي الذي دلّهتني
عن علمه فبه عليّ خفاء
وشكيَّتي فقْدُ السقام لأنه
قد كان لما كان لي أعضاء
مثّلتْ عينيك في حشاي جراحة
فتشابها كلتاهما نجلاء

نفذت عليّ السامري وربما
تندق فيه الصَّعدة السمراء
أنا صخرة الوادي إذا ما زوحمت
وإذا نطقت فإنني الجوزاء
وإذا خفِيتُ على الغبيّ فعاذرٌ
ألاّ تراني مقلةٌ عمياء

عند سماعي هذا البيت اهتجت. ينعتني بالغبي والأعمى الذي لا يمكنه أن يبصر حقيقة المتنبي. أوشكت أن أصرخ.. أشهّر بالمتنبي وبخولة. أجدّف بالمتنبي وبخولة. «فلتذهب إلى الجحيم أيها المتكسب بشعره. تحلُّ ضيفاً علينا وتُفرغ علينا من رُؤاك وتَحملنا على نظرتك، ممّا أخنى عليه الدهر. ترتبط بسيدة غريرة لا تعرف حتى اللغة التي تحدّثها بها، مثلما تخدع شعوباً جاهلة. تخدعها بجرس كلماتك، وبمحسّناتك البلاغية التي تزري بالشعور ولا يتأتى معها الفكر، ولا تفيد في شيء سوى أنها معجم للسان انقرض، ولشعور خبا، وهبّة خبت. وأنتِ يا خولة، أين هي أخلاق المهنة؟ أتبيحين لنفسك أن تسقطي في هوى مريض من مرضاك؟»... ولكني تماسكت لأن الفضيحة لن توفرني كذلك.. المتنبي مجنون، ومن ذا يؤاخذ مجنوناً؟ ومن ذا سيؤاخذ طبيبة تعالج مجنوناً؟ يمكن للطبيبة أن تتذرع بتفقدها لمريض وهي الموكولة بالحراسة الليلة تلك، أما أنا فكيف تسلّلتُ إلى المستشفى، ولماذا تسلّلت إلى المستشفى، ولن تغيب الغاية على أحد: خولة. أتحرّش بخولة. وقد ينتقل الأمر للصحافة وتملأ صفحاتها الأولى: «ضُبط الكاتب فلان وهو يتحرّش بطبيبة أثناء

مزاولتها لعملها، وقد خلّف ذلك استياء عارماً لدى هيئة الأطباء، وأصدرت بياناً تندد فيه بالتصرفات الرعناء لواحد من المحسوبين على هيئة التدريس، وممن يزعمون التفكير في القضايا المتشعبة». وقد أقرأ عموداً لصحافي حاقد «نجم أفل» أو ما شابه ذلك، فضلاً عن الكتّاب الناقمين.

ألا ما أثقل أن يُعرّض بي المتنبي وينعتني بالغبي، وبصاحب المقلة العمياء التي لا تبصر. يناكفني ولا أستطيع الردّ. تبّاً له ولشعره. وتبّاً لخولة التي فضّلته علي. لِم تفضّله علي؟.. كنت أعرف الحقيقة. المتنبي هو الصوت ولست سوى الصدى. تردّد في نفسي شعر المتنبي كشفرات تقطع أحشائي:

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده
تصيّده الضرغام فيما تصيّدا

المتنبي هو الضرغام وأردتُه بازاً أصطاد به، فتصيّدني الضرغام فيما تصيّدا.

استدرت حول البناية، وقفت عائداً والخيبة ترين علي والحزن غالب علي، وأبيات المتنبي تتردد في دواخلي، وددت لو أني لم أحفظها، ولكنها علقت بنفسي، وكأنه يحدّثني ويهزأ مني، ينبعث صوته قوياً ينفذ في سويداء نفسي، في الليل البهيم:

وما الدهر إلا من رواة قلائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمّراً
وغنّى به من لا يغني مغردا

وَدَعْ كل صوت غير صوتي فإنني
أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

المتنبي هو الصائح المحكي وأنا الصدى، ومن الطَّبعي أن تحب خولة الصائحَ على الصدى، وتفضّل الضرغام على الباز...

عدت أدراجي. خسرت الجولة ولم يبقَ لي إلا أن أخفِّف من ثقل الهزيمة أمام الحارس... ينبغي أن أثبت أمامه. كان يستمع إلى المذياع. أمسك الصوت وقد اقتربت منه. توقفت وسألته متكلّفاً رباطة الجأش:

- شكون اللي عندو الحراسة في الأطباء؟

- الدكتورة خولة عواد، نعامس.

- جات؟

- معقولة. ما فيهاش التخرخيش نعامس. وما شهدنا إلا بما علمنا. نعامس.

- كل شيء في أمان الله؟

- الحمد لله، الله يرزقنا غير الصحة والسلامة، نعامس.

حييته متكلِّفاً نبرة سلطوية. ما أن ابتعدت حتى أشعل المذياع. كان صوتَ أم كلثوم ممّا تبثّه إذاعة بحر المتوسط ليلة الخميس، وهي تغني رباعيات الخيام:

أطفئ لظى القلب بشهد الرِّضاب
فإنما الأيام مثل السحاب

كان لظى قلبي مستعراً، أضحى أواراً لما شاهد. تُرى أتنتهي الحلقة ما بين المتنبي وخولة بتلاوة الشعر، أم الشعر بداية فقط؟ ألن

يطفئنا لظى الهوى بشهد الرضاب، فما يتلو شهد الرضاب؟.. عليه اللعنة، وعليها بمثلها.

توجّهتُ إلى السيارة. امتطيتها وعدت إلى شقتي، ورذاذ المطر يسّاقط، ونظرتي عشواء.

لم تكتحل عيناي بنوم. كنت أفكر في هذه الهزيمة النكراء التي مُنيت بها من قِبل المتنبي. كنت أريده أن ينأى عن خولة، لأنْ ليس له أن يرتبط بالأحياء، ولأني أنا الحي فأنا أولى بها، ولكنها فضّلت روحاً وذكرى، ولو هي لا تفهم عنه شيئاً، على حي يفهم عنها وتفهم عنه.

غادرت فراشي باكراً، ولم أقوَ على شيء، لا قراءة ولا كتابة. تناولت قهوة في مقهى محطة القطار، مع فطور خفيف، كروسان قضمته ولم أتمه. فكّرت في زمان المتنبي وزماننا. فكرت في هذا التشابه المريع، ممّا ألمعت إليه خولة حين تناولنا الغداء سوية، وتساءلتُ كيف يستطيع المتنبي أن ينجح اليوم فيما أخفق فيه أمس. يدعو للحرب في زمن لم تعد الحروب تقوم على الشجاعة ولا على الإقدام، بل اختلفت طبيعة الحروب، لأنها لم تعد تقوم على الدم والقتل والأسر، بل على الذكاء والعلم، ولا يقول المتنبي شيئاً عن ذلك. نعم يصوّر العرب أو سادتهم كما كانوا ولا يزالون. وما شأني بهم؟ أليس يخلق بي أن أدعه وشأنه؟ فليحب خولة، ولتحبه خولة، فهما يشتركان في النسب، أو ما يحسبانه كذلك، وليخلُ له الجو،

وليخلُ لها الجو، فليس لي بصاحب، ولا هي لي بقرين. فأنا مقترن بامرأة أحببتها وأحبتني، واشتركنا في أشياء نسجناها على مرّ السنين. نشترك في شيء وهو الحياة، ليس الخيال، ولا الأماني. واستحضرت قولاً لأبي حيان التوحيدي ما أجمله: «نحن نُساق بالطبيعة إلى الموت، ونساق بالعقل إلى الحياة». لو كنت مختاراً لاخترت هذه المقولة العجيبة لأبي حيان التوحيدي، وهذا الترابط القائم، أو الذي ينبغي أن يقوم بين الحياة والعقل. أشترك وقرينتي في هذه الأرض التي أنبتتنا، وبها امتزجنا. نعم هي سليلة الأندلس، وحلَّ أجدادها بأرضي لما أن طردوا منها، هي تمسك بطرف ممّا يُسمّى بالهوية المغربية، وأحسب أني أمسك بطرف، ولا يستقيم هذا الحبل من دون طرفيه... نعم، اعترى علاقتنا الملل كما يعتري كل علاقة، ولكن ألا يحسن أن أرمِّم علاقتي بالسيدة التي اقترنت بها، عوض أن أجري وراء طواحين الهواء؟ لماذا خدعتني خولة، أو لماذا انخدعت لها؟ جميلة، ولكن ليس الجمال وحده المقياس في علاقة الزوجين، فهناك الألفة، أو ما يسميه الفرنسيون بالاقتران في حبّ الشيء ذاته، أو التواطؤ، وهي ذكية، وليس الذكاء كل شيء، بل ما الذكاء في علاقة شخصين إن انتفى الود... لماذا أعرض عن بُشرى لفائدة خولة؟ لماذا أشيح عمّا هو لي، أملاً فيما ليس لي، ولا هو يميل إلي.. هل الانتقال من الذكرى إلى الفكر يمر عبر الحلم، وخولة حلم، وهي الجسر إلى الفكرة؟

شعرت بالحاجة إلى التدخين. كنت توقفت عن التدخين لأكثر من عشرين سنة، واعترتني لحظتئذ رغبة أن أمسك سيجارة وأُشعلها وأستنشق دخانها.. أعرف أن صدري لم يعد يطيق الدخان، ولكن

ذهني يختزن تلك اللذة التي كنت أستشعرها عقب الإفطار بإشعال سيجارتي الأولى، والتفكر في عمق وأناة عمّا أود القيام به أو التفكير في أمر يهمني. . أليس المتنبي جزءاً من هذه الذاكرة؟ من تلك الأبيات التي كان يتلوها أستاذي محمد شفيق عن المتنبي:

وُصولٌ إلى المستصعبات بخيله

فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا

أو هذا البيت الذي كان يروق له:

عجبتُ لمن له حدٌّ وقدٌّ

وينبو نبوة القضِم الكهام

أو تلك الأبيات أتلوها في حفل نهاية السنة الدراسية وأنا في الثانوي، في العيد الستين للملك المرحوم الحسن الثاني في قصره بفاس يوليو سنة 1979:

هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده

وعيد لمن سمّى وضحى وعيّدا

ولا زالت الأعياد لبسك بعده

تُسلّم مخروقاً وتُعطى مجددا

فذا اليوم في الأيام مثلك في الورى

كما كنت فيهم أوحداً كان أوحدا

لم يتمالك الملك إثرها فكسر قواعد البرتوكول، وقبّل التلاميذ. كان متأثراً أن تكون الهدية إليه شعراً من قصيد المتنبي.

أو الحاج امحمد باحنيني وهو يسترسل في إنشاد قصيدة رثاء المتنبي لخولة أخت سيف الدولة:

يا أختَ خير أخ، يا بنت خير أب
كنايةً بهما عن أشرف النسب
أُجلُّ قدرك أن تُسمي مُؤبنةً
ومن يصفْك فقد سماك للعرب

ثم وهو يُقطّع بقدمه البيتين الآتيين:

فليتَ طالعةَ الشمسين غائبةٌ
وليت غائبةَ الشمسين لم تغب
وليت عين التي آب النهار بها
فِداء عين التي زالت ولم تؤب

لقد اختزنت ذاكرتي ذلك كله، وحنّت إليه كما حنّت إلى سيجارة، وهي تدرك ضرر التدخين على صحتي، ويدرك عقلي ثقل هذا الأدب وهذا التراث علي... كلما تحللت منه كلما استطعت المشي خفيفاً.. التمرد حلقة مهمة. غير الحلم. هو جسر آخر إلى الفكرة. بل جسر أوثق من الحلم.

عانقت أشياء أخرى في حياتي، واعتبرت أن تمثل الحضارة الغربية هو السبيل المختصر للتقدم أو ما يُسمّى اليوم بالحداثة.. ولكني في الوقت ذاته وقفت على تكالب الغرب ونفاقه وكلبيته.. فأين يا ترى الخلاص؟ وما السبيل؟ علق في ذهني ما قاله لي الشيخ المخلوفي عن المتنبي: إنه يحدّث بأخلاق الناس. ليس المتنبي شاعر اللفظ الجزل، والقصيد الفخم، والمحسنات البلاغية، والحِكم المدرسية، كما ذهب ريجيس بلاشير، بل شاعراً إنسانياً. شاعرٌ يُحدّث عن الطبيعة الإنسانية من مادة الثقافة العربية. هو من

أسدى للغة العربية نياشين المجد. وهذا التراث جزء مني. لم أكذب خولة. تمردت عليه، ولكني لم أتخلّص منه. بل كان تمردي وسيلة لاستعادته. قرأت فيما بعد **اعترافات القديس أغسطين والحمار الذهبي** لأبوليوس. . المسألة ليست المفاضلة بين هذا النتاج أو ذاك، كلاهما امتزجا في وجداني. هو ذا أن يكون المرء مغربياً، هذا التزاوج ما بين العمق الأمازيغي والبُعد العربي، مع هذا التراث الذي أكلَف به، وأعمل على نفض الغبار عنه، تراث الأندلس. . كانت تزعجني تلك النظرة الضيقة التي تحصره في لغة، ونمط، وعقيدة، وحقبة زمنية.

كنت قرأت قولاً لـ ت. س. إليوت، عن أن التراث ليس تكراراً لما مضى ولا نسجاً على منوال وإنما تمثّلاً، وأن الأديب الغربي يحمل ميراث **الإلياذة والأوديسة**، ودانتي وشكسبير ومونتيني. . . لا يستطيع أن يقطع مع ذلك ولو أراد، ولا يستطيع النبوغ لو هو قطع مع هذا التراث. ليس احتذاء ولا نقلاً، بل تمثّلاً. . . ولذلك لا أستطيع أن أنكر أثر المتنبي علي ولا ارتباطي به. . كما لا أستطيع أن أدير ظهري لتراث أفولاي والقديس أغسطين، وما يتردد صداه في أحاجي القُرى ومحكيات الجدّات. . . وهل أنكر تراث الأندلس؟ بشرى ليست قريناً فقط، بل شريكاً. . . هي الحلقة المكملة لذلك الكشف الذي استشعرته برحاب قصر الحمراء، وهي التي رعت هذا الغرس، إذ تحيلني على كتاب صدر عن حضارة الأندلس، أو تسمعني غناء الغرناطي. ألم أكتب ما كتبته عن الأندلس وأهلِها براً بها، براً بهذه الوشيجة التي ارتبطنا بها. . . ألم أقرأ معها شعر ابن زيدون، **وطوق الحمامة**، واستعنت بها في

التنقيب عن تراث ابن باجة، رأس الفلسفة العقلانية الأندلسية. . . يحسن أن أتصالح مع بشرى. أليست بشرى هي من يقودني إلى المتنبي؟ هل انتقل كل ذلك إلى بشرى، وهل مرّرت بشرى إلي ذلك؟ ألست أنتقل من تراث الأندلس إلى المتنبي عبر هذه الوشيجة وهي اللغة، مثلما انتقلت هي من الأندلس إلى المتنبي. . ما علة هذا الارتباط. . . أليس هو الجنون؟ ألا تكون بشرى مجنونة هي التي تُعيّرني بالجنون؟. . . بُعدها جفاء، وجفاؤها بُعد، وكلاهما مفضيان إلى الجنون. هل الجنون أحد الطرق المفضية إلى الفكرة، فضلاً عن الحلم والتمرد؟ لا أنكر أثر بشرى علي. . . لأنسَ خولة. لأنسَ الحلم. ولأتصالح مع ما هو أقرب مني. بشرى صاغتني. لا يمكن أن أنكر أثرها علي أو أزيحه. رددت تعلقي بالتراث الأندلسي للشيخ الخلوفي. الشيخ الخلوفي رجل متصوف يحيل إلى الإنسان في صفائه، أو كما ينبغي، وبشرى امرأة الحياة، تحيل إلى الإنسان كما هو، بشغفه وشبقه وقوته وهوانه. الخلوفي قضى، وبشرى حية. الخلوفي ذكرى وخولة حلم. بشرى حاضر، ولو هو مثلوم. . وينبغي للأحياء أن يرتبطوا بالحاضر ولو كان مثلوماً. أندلس الخلوفي لا تتحدث إلا العربية، وأندلس بشرى، تأسى بالغناء الغرناطي، وترقص الفلامينكو، وتتكلم العربية والإسبانية على السواء فضلاً عن الفرنسية. هي أسمى من اللغة، ولا تُقصر في دين أو عقيدة. هل أرضى بالحاضر مشوباً بالجنون؟ هل أزيح الحلم، وأفضّل عليه الجنون؟ وما الحاضر من غير فكرة، أو فكر، أو تفكُّر؟ لسوف يفر من بين أيدينا كما النور يفر من البنان، كما في تلك الصورة الرائعة التي صوّرها المتنبي في شعب بوان.

ثم سامي. ربيبي. أذكر حين تعرفت إلى أمه أني اصطحبته معنا إلى أطلال وليلي الرومانية. منذ ذلك الحين تعلّق بي. جلنا لثلاثتنا في المدينة الرومانية، ثم حملته على كتفي وقد نال منه النّصب. عند الأصيل، كنا نرمق الغروب من فندق يطلُّ على المدينة الأثرية في يوم ربيعي أخّاذ. كنت حينها شعرت بدفق عاطفة نحو الصبي. وبعدها بقليل ونحن في قصبة الوداية، في المكان الذي احتضن الموريسكيين، والزمن شتاء، كنت وسامي أراجع معه دروسه في الرياضيات، وأمه تقرأ من قربنا. ثم غادرنا بعدها إلى المنظرة المشرفة على البحر. أخذت يده وشعرت بقشعريرة. شعرت أنا وحدة لثلاثتنا. نظرت إلى بشرى وقلت لها:

- أستأذنك في أن ينادي علي سامي ببابا. هو ابن لي.

نظرت إلي. ثم ارتمت في حضني وأخذت تبكي. وبقيت كذلك للحظات، ذاهلة عن كل شيء.

هل يهون هذا كله؟ وهل يذهب سدى؟ وكيف يكون سراباً؟

قمت من مقعدي بمقهى المحطة. اشتريت الجرائد بالكشك بها. ثم يممت شطر المصحّة. الساعة الثامنة صباحاً. عن قريب سيزداد ضغط دوران السيارات.. وصلت المصحّة وقصدت مكتب خولة... بادرتني بالقول:

- دكتور، أحسنت صنعاً أنْ أتيت. كنت سأتصل بك. أنا في حاجة إليك...

غشيت مكتبها... كنت أسعى أن أقرأ من ملامحها أثر ليلتها البارحة. أتكون قد حرمت من النوم وقد أتيحت الاقتران بالمتنبي؟

وهل انتهى بهما الأمر إلى. . . يا إلهي. لماذا ينصرف ذهني إلى أشياء حميمية؟. . . تُعجلني بالسؤال:

- تبدو متعباً يا دكتور؟ نحُلتَ مذ حللت بالمصحة. نتعبك دكتور، ولكن ينبغي أن نرى نهاية النفق، وينبغي أن تساعدنا على ذلك.

لو كنت أستطيع الجواب لاستشهدت ببيت للمتنبي:

ألـم يرَ هـذا الليلُ عينيك رؤيتي
فـتـظـهـرَ فـيـه رقـة ونـحـول

اكتفيت بابتسامة بلهاء. .

واسترسلتْ:

- هل يمكن أن تعينني في تفسير قصيدة للمتنبي؟

وأجبت جواباً مبتذلاً. قلت قولاً لا يعبِّر فعلاً عمّا أؤمن منه من هذه التعابير الملوكة التي لا تعبِّر عمّا يتلجلج في نفس الشخص.

- بكل فرح.

والحقيقة تفيد العكس. بكل حزن. هل اللغة أداة للتعبير أم نحن أداة في يدها؟ هل توجد بمعزل منا؟ وما الفائدة إن لم تحمل تصورنا، وتعبِّر عن إرادتنا؟

- قهوة؟ لا تبدو في حالة جيدة.

تعيد خولة الكَرّة.

- بلى.

ليست اللغة وحدها من يسكننا، بل القوالب الاجتماعية والعادات والطقوس. ظاهر حالي ينبئ أني لست في حالة جيدة، وأجيب بما ينفي ذلك، بما تقتضيه الأعراف، أو بما فرضته بنية

اللغة. . . هل يمكن أن يكون هناك فكر حين نتستر عمّا نشعر به ونخفي ما نؤمن به، ولا نصدح بما يتلجلج في صدورنا؟ هل نتحرر حين نروغ إلى انفصام الشخصية كي لا نرى الواقع، ونتجنب ما يفرضه من قطيعة؟ لا يعينني المتنبي في شيء من هذا، ولو كنت أبحث عن العون لألفيتيه عند أبي حيان التوحيدي. تذكرت للتو قولته في **الإشارات الإلهية**: «فإلى متى نعبد الصنمَ بعدَ الصنم، كأننا حُمُر أم نَعَم، إلى متى نقول بأفواهنا ما ليس في قلوبنا؟ إلى متى ندّعي الصدق والكذب شعارنا ودثارنا؟ إلى متى نبتلع السموم ونحن نظن أن الشفاء فيها؟ إلى متى نستظل بشجرة تقلص ظلها؟».

تشخيص دقيق لحالة الانفصام التي ترين على العرب، ينطق به واحد من العرب، ومن جرثومتها أو ذؤابتها. وما شأني أنا؟ فليذهبوا إلى الجحيم أو إلى الجِنان. العربي يجعل نفسه نقطة ارتكاز العالم. لأنه حمل لفترة رسالة، ويحسب أنه سيحملها ثانية، كما زعم ميشيل عفلق.

هل يمكن أن يكون هناك فكر حينما لا تسكننا هواجس الآخرين، ولا نضع أنفسنا مكانهم، ولا نسكنهم، ونكتفي بردود فعل جاهزة، وأحكام قائمة ومركزية، من توهمات وتخرصات؟

هل يمكن أن يكون هناك أدب، إن عبّرنا بما تفرضه الأعراف وتقتضيه الطقوس لا لما يحيل على الواقع ويعبِّر عنه، ولمَ نطرح السؤال عمّا الذي نريده من الأدب، ومن الفن؟ أتسلية، أم حافزاً، أم متعة. . . أم وعياً؟

صرفتني خولة عن هواجسي. أرتني القصيدة. ولم تكن القصيدة

سوى ما سمعته البارحة «أمِن اَزديارك في الدجى الرقباء. . .»، مع ترجمة لها إلى الفرنسية. . كانت تريد تفسيراً لها باللغة العربية، وانبريت أفسّرها تفسيراً مغرضاً. تفسيراً دفعتني إليه الغيرة. قلت إن المتنبي يروغ إلى تصوير فيه كثير من الغلو وكأن حبيبته ضوء تفضح الرقباء الذين لا يمكن أن يتستروا في الظلام، ومصدر قلقها هي ما يضوع منها من مسك، ممّا يهتك سرّها، وهو يأسف للأسف، لأنه لم يعد يأسف لشيء وقد تلاشت أعضاؤه. . . صوٌر يطبعها الغلو والمبالغة. هكذا ختمت قولي. . .

لماذا حكمتُ بالهوى أو الذاتية؟ هل يمكن أن أنفصل عن ذاتيتي؟ وهل يمكن أن أنكر جمال القصيدة؟ جمالها في هذا الشيء الذي لا يستطيع تفسير ولا ترجمة أن تقدّمه أو تعبِّر عنه، جمالها مرتبط في هذا الطباق، وفي الجناس، وفي الموسيقى، والوزن. . أي في عبقرية اللغة. وهذه أشياء لا يمكن تمريرها من لغة إلى أخرى، وهذا الذي جعل المتنبي مستغلَقاً على عالِم كبير مثل ريجيس بلاشير. . . اللغة هي أساس الذاكرة ومستودع التراث اللامادي مثلما يقال اليوم ولو أن المصطلح يعود لديفيد هيوم. اللغة هي المفتاح. ولذلك سيظل تراث الحضارة العربية مستغلقاً من دون اللغة العربية، وإن ضاعت اللغة ضاع ما حملته من تراث. ضاعت روح حضارة. . ضاعت حلقة مهمة من مسيرة الحضارة الإنسانية، مزجت ما بين تراث الإغريق والفرس والبيزنطيين والسودان والأمازيغ. كان الغرب شيئاً آخر، حينما كان يُعلِّم لناشئته اللاتينية والإغريقية، وأضحى شيئاً آخر، حينما ألقى بذلك ظهرياً. قلت قولاً استغربت له الدكتورة خولة:

- لا أريد للغة العربية أن تموت.

أجابت:

- لن تموت ما دام الفقهاء يرتلون القرآن..

- عفواً، صحّحت، ليس المهم أن تبقى محنّطة، لأنها إذّاك ستحملنا على ما تريد، لا على ما نريد. ينبغي أن تطفح بالحياة.

- أن تصبح لغة الحياة؟

- أكثر من ذلك. لغة الوجدان والذاكرة كي تحمل فكراً. لا الذكرى وحدها، ولا الحلم وحده. لا يمكن أن تُختزل اللغة في وظيفة نفعية.

ليس هذا ما قصدته في زيارتي. كنت أود أن أبدِّد غماً وأفرّج عن كربة، لا أن أغور في حديث عن اللغة.

- دكتورة، هل يمكن أن ألتقي بالمتنبي؟

- طبعاً، أعتقد أن زيارتك ستخفّف عنه.

- ممَّ؟

- لا أدري. لا يبدو في صحّة جيدة. لا حاجة لأن تلتقي به في الساحة. سأهيّئ لك مكتباً يمكنكما الحديث فيه على سجيتكما.

غشيت مكتباً لوحدي. جلست على كرسي خشبي وأرخيت رأسي من تعب وهَمٍّ وكدر. انتظرت أن يحضر المتنبي. لم يأتِ. لماذا حلّ المتنبي بساحتنا في زماننا هذا؟ أليست الحروب التي صورها وأحسن تصويرها ما بين جند سيف الدولة الحمداني والروم، تجلياً للحروب الدائرة حالياً بسوريا؟ حرب مدمِّرة، اختلط فيها الحابل والنابل، ومع ذلك يمكن أن نفهمها لو عدنا لزمن المتنبي. نقطة تماس بين ثقافتين وحضارتين. تجلٍّ لإمبريالية قديمة في لبوس

جديد. عالم أوشك لسانه على الانطفاء كما يقول ابن خلدون. وسينبعث في شكل آخر، من مكان آخر... أعرف ما حدث زمن المتنبي، هذه الهبّة من العُبديين بسجلماسة، حيث أصولي، وانتقالهم بعدها إلى أفريقيا، وانحياشهم إلى مصر وإقامتهم لدولة الفاطميين. أعرف ذلك البعث من ربوع الصحراء مع يوسف بن تاشفين.. هل آن أوان البربر، أو الأمازيغ؟ هل سينبعث منا ابن تاشفين جديد؟ اعترتني رغبة جامحة لحظتئذ أن أتكلّم لغة أمي. لغتي الأمازيغية. لم أجد مخاطباً. كنت لوحدي. أخذت أحرّك شفتَي، في كلام بلا معنى سوى أنه لسان أمي. وكأني إذ أردّده أستدعي ابن تاشفين. ها أنذا أنتظرك يا ابن تاشفين. لا تجزعْ. لسانك حي لأن روحك حية، وروحك حية لأن لسانك حي... لمَ تأخرت؟.. هيا، اضرب على أيدي العابثين، من ملوك الطوائف، الذين انقادوا لمتعهم ولهوهم ومجونهم وعبثهم وأسلموا أمرهم للعدو وتعاهدوا معه وأبرموا معه الصفقات تلو الصفقات. لمَ تركني وحيداً لأحقاب يعبث بي العابثون؟ منذ أن رحلت وأنا أتبلّغ بوضيع الأشغال، أصرف بها عني الملل، عبر العصور والأحقاب. أواري ما في قلبي. أشتغل كاتباً في بلاط، أو شاعراً متكسباً في حاشية، أو صحافياً مرتزقاً، أو أسترزق بوظيفة تقنية. أداري عجزي في فقه الحواشي، وحواشي الحواشي، ونقل ما انتهى إليه الغير. آنف من التجديد. من رؤية للعالم. أزجي الوقت وأداري الزمن. أنفث بين حين وحين نار الإحن بين إخوة متناحرين عوض أن أؤلف بينهم وأضطلع بما ينبغي لي كحامل لفكر. لقرون، لا أقوم بشيء ذي بال. أضحيت غريباً في أرضي، أستجدي ما هو ملك لي. مثلما أني ضيف على زمن غير زماني. لم أشعر

بالزمن وأنا لوحدي على كرسي نهْباً لهواجس شتى. فاجأني شخص بوزرة. سألني بفجاجة:

- تتسنى (شي) أحد؟
- يوسف بن تاشفين.
- معنا في Service؟
- لا، Stage.
- اخرج، الله يجازيك بخير، استناه برّة، ما قادرين على صداع.

خرجت إلى الساحة. مشيت لوحدي. شعرت براحة. كمن خبَت نار مضطرمة في أحشائه. كمن انجلى ما هو مختلط في ذهنه، كمن تبدّد ضباب كثيف أمام ناظريه، واتضحت الرؤية وانجلت معالم الطريق. راودتني نفسي أن أعود أدراجي أحدّث الطبيب الذي أخرجني من المصحة كي أطمئنه حتى لا يظن بي الظنون. كان يكفي أن أحدث نفسي، وهي لن تهزأ مني. قلت لها إنني لا أعتبر البربر مفهوماً عرقياً، بل تاريخياً، وسوسيولوجياً، أي ساكنة شمال أفريقيا. كنت أود أن أقول للطبيب ولنفسي إننا التقاء عوالم. لن ينقم العرب منا حبنا للغتهم. سيعرف لنا الفرس محبتنا لآل البيت، ولن يذهل العثمانيون عن تاريخ مشترك، ظاهر في بلاد المغرب كلها، وضامر في المغرب الأقصى، ولنا وشائج عميقة مع بلاد السودان، ولنا تاريخ مشترك مع الضفة الشمالية، مصاغ من الحروب والصراع والأيديولوجيات، وكذا تداخل العلاقات الإنسانية والمصالح. وهل يأبى علينا العرب لغة نريدها رشيقة غير مترهّلة في غير إسفاف، وهل

يُكرهوننا على فهم متحجّر للعقيدة، وهل ندير الظهر لتراث الأندلس؟ لا نحلم بالأندلس الرقعة، بل بالأندلس الفكرة. لا نريد أن نفتحها بالسيف، بل نود أن نشيعها بالفكر والمحبة والإخاء. لا نُفرق بين أحد بناء على عرق أو عقيدة.

قرّ قراري أن أعود عند الطبيب الذي صرفني. أتيته بأدب وبادرته:

- عافاك الأخ ما تديرهاش مني قلة الصواب، بغيت نطلب لك طلب.

ردّ في جفاء:

- أش كاين؟

- عافى خويا إلا (إذا) جاء Stagiaire يوسف بن تاشفين خبّرني. راني نتسناه.

انتهرني:

- مالي خدّام عند باك. سِرْ قلّب عليه.

عدت إلى الساحة. وجدت ابن جني يشرح شعر المتنبي عن الحروب ضدّ الروم. انبرى ابن جني يردّد:

ألهى الممالك عن فخر قفلتْ به

شُربُ المُدامة والأوتار والنغَمِ

ثم أضاف كما لو كان يقرأ ما بخلدي:

أرى المسلمين مع المشركيـ

ـن إما لعجز وإما رهب

درت من جنبات الساحة عدة دورات وأنا لا ألوي على شيء. مُخلّفات أرق البارحة. ألقى علي فقيه نزيل بالمصلحة الآية وكان ماراً بمحاذاتي: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾. ناشط أمازيغي نزيل بالمصحة هزأ مني بالقول «بايع الماتش»، أي أني خذلتَ الأمازيغ، أو خذلت جذوري. الزهرة هي من لم يهزأ مني. ابتدرتني آمرة إياي أن أمد يدي. فعلت. أمسكتْ يدي، ثم قالت:

- شوف أولد الناس، صاحبك ما فيه خير، أنا قابلة بك، أنت بعدَ نشوفك وتشوفني، إوَ كن راجْل.. تحزّم. جب الهدية، راك عارف. كبش بالقرون، والحنة والشبة والحرمل، ما قادرين على العين... مولانا يبغيك حيث لاقك بي، ومولانا يحن علي حين لاقاني بك.. ما خْفَت (خفيت) عليه خافية.

نادى علي الماجور. سألته عن سبب غياب المتنبي ولم يرُدّ.. الطبيبة تسأل عني. غشيت مكتبها. ألقت علي:

- دكتور يمكن أن تستريح. تبدو متعباً.

- أستريح هنا؟

- طبعاً هنا.

استلقيت على سرير بالمصحة ونمت نوماً عميقاً.

استيقظت عند العصر. ناديت على الخادمة محجوبة، واستغربت أنْ حضر الماجور. كنت بالمصحة. ألقيت نظرة على لباسي، وكان لباس المرضى. هل غيّر الماجور لباسي وأنا نائم، ولماذا. . سألته عن المتنبي ولم يجب. طلبت منه الخروج إلى الساحة. كانت الساعة ساعة النزهة. . . ما أن اقتربت من الساحة حتى بدا لي المتنبي. عدوت نحوه. سألته لِم أنْ غاب، وسألني السؤال ذاته. واخذته على استهتاره، وفعل الشيء ذاته. . . تحول عني وهو ينشد:

لحى الله ذي الدنيا مناخا لراكبٍ
فكل بعيد الهم فيها معذّب
أحِنُّ إلى أهلي وأهوى لقاءهم
وأين من المشتاق عنقاءُ مُغرب

بدا لي في وضع غير طبيعي. . . تحول نحو الفتى الصحراوي الأسمر فأخذ يقذع فيه في شعر بذيء:

أنْوْكُ من عبد ومن عرسه
من حكَّم العبد على نفسه

وإنـــمـــا يـــظـــهـــر تـــحـــكـــيـــمـــه

تـــحـــكـــم الإفـــســـاد فـــي حـــســـه

فـــلا تـــرجُ الـــخـــيـــر عـــنـــد امـــرئ

مـــرّت يـــد الـــنـــخّـــاس فـــي رأســـه

وإنْ عَـــراك الـــشـــك فـــي نـــفـــســـه

بـــحـــالـــه فـــانـــظـــرْ إلـــى جـــنـــســـه

لم أتمالك أن صحت:

- اذهب لحال سبيلك يا أبا الطيب. جئت تفسد علينا أمرنا برؤياك العنصرية ونظرتك الضيقة.

وردّ المتنبي بعنف:

إذا أتـــت الإســـاءة مـــن وضـــيـــع

ولـــم ألـــم الـــمـــســـيء فـــمـــن ألـــومُ؟

لم أتمالك نفسي. قصدته فضربته بجماع يدي. ردّ بأخرى. تشابكنا. انحاز ابن جني يدافع عنه، ومال إلى جانبي كافور. يضربان ونضرب. يلكمان ويركلان، ونلكم ونركل.. سقط المتنبي على الأرض وأنا أركله. أمسكني ابن جني من وراء، فأسقطني أرضاً، وانهال علي ركلاً. لبّبني المتنبي بيديه من عنقي حتى خنقني. أخذت الزهرة تصرخ: «وهنا شي من الرجال، واعتقوا الروح».. لم أذكر إلا صوت الفقيه يشمت بي: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾، والناشط الأمازيغي يضحك ويسخر منا ويردّد: «اتفق العرب ألا يتفقوا..».

حضر الماجور. انتشلني من الأرض ونزعني بقوة. قلت له:

- هو سبب ما وقع. موجّهاً أصابع الاتهام للمتنبي.

ردّ الماجور بفجاجة أذهلتني:

- زد للقدام..

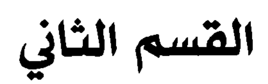
صرخت أتلو شعر المتنبي. لم أفهم كيف أتلو شعر من خاصمت ومع من اشتبكت:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى
صديقاً فأعيا أو عدواً مداجيا
أقل اشتياقاً أيها القلب ربما
رأيتك تصفى الود من ليس صافيا

سمعت صوت الزهرة تبكي وتستغيث:

- مسيكين، تزاد عليه الحال.

أدخلني الماجور الغرفة ذاتها التي هجعت بها. حقنني بحقنة، ونمت نوماً عميقاً.


القسم الثاني

كان وكأن أعضاءه قد قُدّت بشفرة. كان السرير يؤذيه، وكان يشعر برأسه وقد أثقل عليه كجسم غريب وُضع على كتفيه، وكأنْ لا صلة بين جسده ورأسه، وكما لو أنه وسط جُبّ غائر لا يقوى الخروج منه، فيزداد التصاقاً بالسرير. يؤلمه جسده، ويثقل عليه رأسه، ويودُّ الانسلال من الفراش فلا يستطيع. . . تشمله العتمة فيود إزاحتها، ولكنه في الوقت ذاته يخشى الضوء فيضع الوسادة على وجهه. تتناهى إلى أذانه أصوات غريبة، أصوات أناس يتحدّثون ولا يميّز شيئاً من كلامهم، ويقطع ذلك اللغطَ البعيد، صوتُ مطارق لعمّال ورش بناء، فكأنما تلك المطارق تهوي على رأسه مباشرة. . ينادي مرات ومرات على محجوبة. يصرخ باسمها ولا تستجيب. . يسمع نقراً لأقدام على الأرض متوجهة نحوه، ويخشى أن تنتهي إليه. . كان نهباً لشعورَين متضاربَين، شعور الحاجة إلى من ينقذه ممّا يحس به من عجز، وشعور التوجس من البشر، ومن النور، ومن الكلام. . انتهى إليه صوت الباب يُفتح، فانكمش بجسمه وأمسك بتلابيب الإزار، ووضعه على وجهي، ثم أخذ يصرخ:

- أطفي الضو. .

أصبح الضوء كشفرة تُقطّع جسده. تؤلمه... لم يعبأ الشخص به، وأزاح ستائر النافذة. ثم فتح النافذة.

- حرام عليكم.. صرخ بقوة.

انسل النسيم إلى الغرفة، فاعتراه البرد.

لم يأبه به الشخص الذي غشي غرفته. اقترب منه. أخذ سجلّ الحرارة والضغط المثبت على سريره ثم غادر.

حاول أن يتذكر ما وقع له، بيد أن ما يبدر من ذهنه يَعِنّ في صور مضطربة، وما أن تتبدى له صورة ما، حتى يخيل له وكأنه يسقط من شاهق، فيتناثر في صور متفرقة... يذكر أن الماجور حقنه حينما اشتبك والمتنبي بالأيدي، ولا يذكر شيئاً بعدها.

انفتح الباب، وانتهى إليه صوت أليف:

- حالك تحسنت أستاذ..

نهض من الفراش، واعتدل...

- حالي تحسنت..

قالها بصيغة تقريرية وهو يعني الاستفهام.

- نمتَ نوماً مستغرقاً، وكان نومك مضطرباً من قبل.

أجال نظرة فاحصة. الغرفة ليست غرفته، والبيت ليس بيته. الشيء الوحيد الذي استطاع أن يميزه هو الطبيبة خولة عواد.

- أين أنا، دكتورة؟

- بمصحة بوسيجور.

- لماذا؟

- كي تعالَج.

- أنا؟ وهل أنا مريض كي أعالج؟

- تشكو انهياراً عصبياً.

- المتنبي من يشكو انهياراً عصبياً. لِم خلطتموني به؟

- لم نخلطك به..

- بلى. هو من يرقد بالمصحة.

- أنت من ترقد بالمصحة.

- حلَّ عندي بالبيت، وأحدث الشغب أمام البرلمان وأودعه عميد الأمن مستشفى المجانين، وكنت أعوده بمستشفى الرازي. لماذا أمسكتموني عوضه؟

- لم نمسكك عوضه.

- ألا تذكرين؟ كنت أحل بمكتبك، دكتورة خولة، كي نشرح شِعره.

- اسمي فنيش.. مُنى فنيش.

- أغيرت اسمك؟

- لا، أبداً، أنا من يعالجك، ومختصة في الأمراض النفسية، وأشتغل لأكثر من عشر سنوات هنا.. أهذا ما تريد أن تعرفه؟ سوف نستمر في حصة الاستشفاء.

- الاستشفاء؟

- نعم.

- وهل أنا مريض؟

- الاضطرابات النفسية أمر طبيعي. يمكن الانتقال من الوضع الطبيعي إلى الوضع غير الطبيعي، بسهولة، كما يمكن للمرء أن يصاب بزكام... أصبتَ بانهيار عصبي. أنت أستاذ العلوم السياسية، ويمكنك أن تفهم ذلك.

- المتنبي من أودِع بمستشفى الرازي للأمراض النفسية، وكنت أعوده به.

- نحن في مصلحة بوسيجور.

- أتحولنا؟

- أبداً. حللت من أول وهلة بمصحة بوسيجور، وأنت تخضع للعلاج، وتقوم بعملية السرد، وأنا من يأخذ عنك بَوْحك مذ حللت. طبيعي أن تختلط في ذهنك الحقائق والتوهمات.

- دكتورة خولة، لم أعد أفهم شيئاً.

- فنيش.. هذا هو اسمي، يمكن أن تناديني بخولة مرحلياً إلى أن تستأنس باسمي..

- ألا تذكرين حين تناولنا الغداء بمطعم لاماما؟

- لم نتناول الغداء بمطعم لاماما قط، ولا بأي مطعم.

- كنتِ سألتِني عن المتنبي.. كان قد وقع في غرامك وكنتِ...

- حياتي الخاصة تهمني لوحدي..

- ألا تذكرين حين كان المتنبي يُنشد عليك قصيدته «أمِن ازديارك في الدُّجى الرقباء»؟

- لا يمكن، لأنه توفي قبل عشرة قرون ونيِّف.

- هل أنت متأكدة أنه لم يغازلك؟

- متأكدة، لم يغازلني لا هو ولا رونسار.. ولا حتى نزار قباني.

- دكتورة أنقذيني؟

- لذلك أنا هنا. هذا واجبي.

- دكتورة خولة، هل أنت متيقنة أن المتنبي لم يحلّ بيننا؟

- مُنى، منى فنيش.. المتنبي لم يَحلَّ بين ظهرانينا.. الدواء الذي تناولته يحدث اضطرابات وهلوسات.. عادي.. وهو ضروري لعملية البوح. سنستمر في حصص المعالجة. سأدعك لحالك الآن...

تحولتْ نحو كبير الممرضين:

- ماجور، قدّموا للمريض الفطور ونظفوا الغرفة. سأعود بعد الظهر. خذ ضغطه. سنمر للمرحلة الموالية. حقنة أقوى.

نظر النزيل إلى الماجور وانقشعت أساريره. وجد نقطة استدلال بين ما يحمل من رُؤى والواقع. الماجور.

- الماجور، أنت هو الماجور.

- أنا هو الماجور. ردّ المسعف في برودة، ثم أردف بطريقة آلية:

- مُدّ لي ذراعك.

مدّ النزيل ذراعه بتلقائية لأن الماجور هو الماجور، لم يختلط في ذهنه بشخص آخر، وله معرفة سابقة به. أخذ الماجور الضغط. بعد أن أنهى الماجور عملية قياس الضغط، صوَّب النزيلُ النظر إليه ثم تجرّأ بالقول:

- يبدو لي أن الأمور اختلطت في ذهن الطبيبة.

ردّ الماجور كمن لا يأبه بحديث المريض:

- من منظورك نعم.

- فقدت البوصلة.

- وما البوصلة، ومن يملك البوصلة؟

- كيف؟ ليس هنا سُلَّم للقيم، ولا وحدة قياس، ولا رؤية؟

- هل مهم ذلك؟

- نعم. رأيتكم تسترون عن الحقيقة.

- أية حقيقة؟

اضطرب النزيل لما سمع، واهتز جسمه ثم قال:

- هل حقاً أنت الماجور؟

ردّ كبير الممرضين:

- الضغط جيد. يمكنك أن تستريح.

اعتدل في الفراش.. وجد العنت في النهوض. نهض بعد لأي. دخل الحمام. نظر في المرآة، أنا هو أنا، ردّد مع نفسه، ولكن من أنا؟ كان يبدو بلحية غير حليقة، وبعينين غائرتين ووجه منتفخ... نظف أسنانه، وغسل وجهه... تمشى بجنبات الغرفة جيئة وذهاباً. غرفة أنيقة، سرير طبي جيد، وصالون زوار قرب الغرفة وإص به إكليل ورد. لا علاقة له بمستشفى الرازي حيث كان ينزل المتنبي. وقف بجانب النافذة.. الغرفة تطل على نهر أبي رقراق. ميّز صومعة حسان... أشجار النخيل تحف الشارع. بناية مارينا الجديدة... والزمن صيف 2017.

ضغط على زر وحضرت ممرضة أنيقة. سألته بأدب:

- أي خدمة؟

- قهوة من فضلك.

- مع فطور الصباح؟

- قهوة فقط..

قبل أن تغادر سألها:

- من فضلك من أنا، ومن نحن؟

- لا أدري. نحن في المصلحة لا نسأل هذا السؤال.
- كيف، ليس لنزلائكم هوية؟
- لا أفهم ما تقصد.
- ينبغي للنزيل هوية، هي المنطلق كي نلمّ بشؤونه. من أنا؟ أليس لي هوية؟
- هذا ليس من اختصاصي.
- والمكان؟
- أنت بمصحة بوسيجور في جناح الأمراض النفسية.
- ولماذا؟
- كي تعالَج.
- ممَّ؟
- لا أدري. ولكن الظاهر أنك تشكو اضطرابات.
رسم لحظة تملّي ثم نطق متبرّماً:
- شكراً على الإفادة..

عاد إلى النافذة. الجو معتدل. لم تكن الحركة محتدمة منتصف ذاك الصباح. رمق سيارة أمن صغيرة راكنة في زاوية. أمعن النظر. كان بها شخصان. لم يكونا يراقبان السير ومقدمة السيارة موجّهة نحو المصحة، ممّا يفيد أنهما كانا يراقبان المصحة.

عادت الممرضة بصحن عليه فنجان قهوة. وضعته على المائدة الملاصقة للسرير. أخذ الفنجان. ارتشف منه. نظر إلى الممرضة كمن يسترضيها كي تطمئن إليه وتنشرح له وتحدّثه بلا موانع:
- ما اسمك يا ابنتي؟
- جميلة.

- هل يمكن يا جميلة أن تساعديني على معرفة نوع اضطرابي؟

شعرت الممرضة بحرج، ثم استدارت حولها، ونطقت كمن تعتذر:

- لا أدري أستاذ.

ثم أضافت في صوت خافت:

- يمكن أن تسأل الطبيبة..

- نعم، ولكن الطبيبة ليست هنا، وهي لا تبدو في وضع طبيعي، ولذلك لجأت إليك، كي تساعديني على معرفة دائي.

- لا أدري. ردّت الممرضة جميلة في انزعاج، ثم استدارت كي تتأكد ألا أحد يسمعها، كما أنها تفشي سرّاً وقالت بصوت أقرب للهمس:

- سمعتهم هنا في المصلحة ينادونك بالمتنبي.

- المتنبي هو المجنون، لا أنا.

- لا أدري، سيدي، ولا أعرف المتنبي. لم ألتقِ به قط، ولا أذكر أنه كان نزيلاً بالمصحة.

- هو المريض. هو نزيل مستشفى الأمراض النفسية بالرازي.

- أنت النزيل.

قالتها وخرجت خشية أن يمتد الحديث وتُضبَط في حوار معه وإفشائها لسرّ مرضه. أغلقت الباب. عاد هو للفراش. تمدد ثم غلبه النوم.. كان يشعر بارتخاء. ما أن استيقظ حتى أجال نظره في المكان، وردّد مع نفسه أن القوم مسّهم مسّ. قرر أن يضع حدّاً للهزء الذي تعرّض له. ضغط على الزر. حضرت الممرضة. واجهها بحدّة:

- أين هو المتنبي، أحضريه بسرعة... تهزئين مني.

نظرت إليه في ذهول ثم ردّت:

- لا أدري من هو من. أنا ممرضة، وهذه قضايا تتجاوزني ولا تدخل في اختصاصي.

ثم توارت وأغلقت الباب ثانية.

عاد مرة أخرى للضغط على الزر دون أن يرفع يده عنه... فُتح الباب، ودخل الماجور..

- أنت ستفهم عني. قال متوجِّهاً لكبير الممرضين، ثم أردف:

- لماذا لم تحضروا المتنبي...

ابتسم الماجور له، وتوجّه إليه بالحديث:

- سيكون ما تريد.

- أريده حالاً... أريد أن أجهر له بما يعتمل في صدري. أريد أن أقتصَّ منه... أخذ مني حلمي، أخذ مني شريكتي... هل تتصور ذلك أيها الماجور؟...

- سوف نُحْضر المتنبي. مُد لي ذراعك.

- لماذا تريد أن تحقنني سيدي الماجور؟

- كي تلتحق بالمتنبي.

- لا، لا يمكن أن أغادر زمني. لا، لا.. لا أريد.

- مُد لي ذراعك.

- لماذا؟

- كي أحقنك.

- ولمَ تحقنني؟

- كي يكفّ اختلاط الأزمنة عندك. تنتقل من الحاضر إلى الماضي، ومن الماضي إلى الحاضر، وتحسبها واحداً. نحتاج إلى ترتيب الأزمنة في ذهنك، مثلما نحتاج إلى فصل الحقيقة عن التوهمات فيه.

- ألا يعيش المجتمع أزمنة متعدّدة في لحظة واحدة؟ ألا تختلط لدينا العصور الحديثة والقرون الوسطى؟ ألا تمتزج الحقيقة والتوهمات في أذهان الناس؟ فلمَ تُجهزون علي لوحدي. أنا لم أخلط شيئاً. هل ذنبي أني رصدت ما هو قائم فعلاً من تداخل الأزمنة، واختلاط الحقيقة والأوهام؟

- مُد لي ذراعك. بعد الظهر يمكن أن تقوم بعملية السرد للدكتورة فنيش.

- خولة عواد؟

- مُنى فنيش.

- لا أدري لمَ تخفي خولة اسمها، وتصرُّ على التستر... هل خشيت أن تختلط في ذهن المتنبي بخولة التي أحب في سالف حياته الأولى وغيّرت لذلك اسمها؟ هل استغواها بعد أن أخذ مني زوجتي؟ كان يتحرش بالخادمة محجوبة... غفرت له ذلك، ولكني لم أغفر له أن أخذ مني خليلتي...

- يمكن أن تحكي قصتك للدكتورة فنيش، أو خولة إن شئت. مد لي ذراعك.

- ماجور، أنت تعرف القصة. قصتي. قصتنا. حين اشتبكت مع المتنبي؟ ألا تذكر الزُّهرة؟ ألا تذكر ابن جني... وكافور الذي حلّ من زاكورة.

- اسمع يا أستاذ يمكن أن تحكي قصتك للدكتورة فنيش. ينبغي الآن أن أحقنك...

- هل أصبح الكل مجانين؟ لا مشكل لدي مع المتنبي. أو لم تكن لي مشكلة معه. كنت أحبه قبل أن ينقلب علي.. آويته حين أعرض عنه الجميع، واحتضنته ولم يكن له من يحضنه.. بذلت له من عطفي حينما أشاح عنه حتى أقرباؤه وأعرض عنه ذووه. صاحبته حين كان يشكو الوحدة ويعاني الهَجر... آويته ببيتي وفتحت له صدري وبثثته عُجَري وبُجري. كان أنيسي في وحدتي، وكنت أحب فيه من النفس عزتها، ومن الشخص همته، ومن القول جزالته...

- ألا تريد أن تمدَّ ذراعك؟

- ينبغي أن تعرف قصتي مع المتنبي. سلبني أعز ما أملك.

- وما هو أعز ما تملكه؟

- حاضري.

- ولكنك تعيش في الماضي.

- كي أغشى الحاضر وأعيش في بسْطة منه.

- من فضلك مد لي ذراعك، لدي مرضى آخرون، ولا طاقة لي الآن في تصريف الأزمة، وما الحاضر وما الماضي.

- ضبطته مع قرينتي.

- ممتاز.

- ممتاز؟ تقول ممتاز. تتستر عليه. تسترون عليه.

- ارفع كُمّ بذلتك.

لم يجد النزيل بدّاً من أن يمد ذراعه. مسح الماجور بقطعة من قطن مبللة بالكحول ثم حقنه.

- بعد فترة تُحْدث الحقنة أثرها، وستسرد قصتك على الدكتورة فنيش.

- فنيش هي خولة. وخولة هي فنيش؟

- والمتنبي أنت، وأنت المتنبي.

- أأبث فنيش ما أسررت به لخولة؟

- هي مرتبطة بسرّ المهنة، ونحن هنا مرتبطون بسرّ المهنة.

- لقد ذهبتُ بعيداً في البوح مع خولة، وأخشى أن يطّلع على سرّي وينقلب من ثمة علي..

- من؟

- المتنبي، الجحفي، الكِندي، أبو الطيب، من يزعم أنه مالئ الدنيا وشاغل الناس... نادِ عليه، من فضلك، أرجوك. أريد أن أسمعْه حقيقته.

- اسمع، سأقول لك قولاً حتى لا تنخدع، لا يمكن أن ننادي على المتنبي، ولا على ابن جني، ولا كافور... هما في العلاج، وتحت رقابة دقيقة، بأمر من الدكتور فنيش، رئيسة المصلحة.. حالما تأتي الطبيبة، تسرد عليها قصتك، إذاً.. اتفقنا؟ السرد جزء من العلاج. أنا لست طبيباً، وحتى الطبيبة لن تفيدك في شيء إن لم تُرد أنت العلاج، ولم تبذل جهداً من أجله. لا نستطيع أن نعالج من لا يستطيع أن يعالج نفسه.

دكتورة، المتنبي هو سبب المأساة، أو جزء منها. القول الفخم الذي يسحر ويأسر. سحَر الجميع بقوة نظمه وجزالة شعره... وكان أن وقعت زوجي تحت تأثير... كدت أقول قريضه، ولكنها لا تفقه شيئاً من لغته. ما أثّر فيها هو أسطورته. مالئ الدنيا وشاغل الناس.. إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً.. بسببه انفصلت عن زوجي.. آويته، سيدتي، وقد أعرض عنه الجميع.. آويته ولم يجد حاضناً ولا مُؤْنساً.. ومَن ذا يُؤوي شخصاً مُعتدّاً بنفسه، يملأه الزُّهو ويستبد به العُجب؟!... رقّ قلبي له وقد أتاني لاجئاً.. كنت أرى ما حلَّ بالعراق من تمزق، وما لحق بسوريا من دمار، وكان ذلك يُدمي قلبي... خشيت أن يندثر لسانه ويغور شعره... كنت زرت العراق سنة 2013 ثم سنة 2014 ووقفت بعيني على ما استحدثه التتار الجدد. هلهلوا سدى كان قائماً. آلمني ذلك سيدتي. ولم أكن الوحيد ممن تألم. لم تتمالك سيدة جامعية مغربية ونحن على أُهْبَة المغادرة من الوفد الذي كنت فيه، فأجشهت بالبكاء لكل ما شاهدنا من تحلل وبوار. حدثت بلساننا. الناس أفراد منفصلون بعضهم عن بعض أو شيع وميليشيات. حتى اللغة العربية لم يعودوا يحسنونها..

بل لم يعودوا يحسنون الحياة.. يعادون بعضهم بعضاً، ويقيمون المتاريس، وأضحوا كما في سالف الزمن حِلّاً لكلِّ غازٍ. للبويهيين الجدد والسلاجقة الجدد.. ثم كنت أرى ما حلَّ بسوريا.. دمشق جريحة، وحلب خراب، وحمص أنقاض، ودرعا حطام... وأما مصر، فكانت كما صوّرها المتنبي:

نامت نواطير مصر عن ثعالبها

فقد بَشِمْن، وما تفنى العناقيد

لم يكن المتنبي يخص مصر بالحب. ولا أدري أيحق أن أحب أياً من هذه الديار وقد أخذ المتنبي أعز ما لدي.. أخذ قرينتي.. الروح الأخت بتعبير الإغريق. ينبغي أن تفهمي عني، فأنا لم أتحول عن هذا العالم إلا لأنه أخذ مني أعز ما لدي.. كنت أؤمن به وأحبه ولم أكن أُراني غريباً عنه... أيْ والله، بل لم أكن لأنفصل عنه.. ولذلك آويت المتنبي..

لم أكن أعرف عاقبة أن تستضيف شخصاً منفلتاً من الماضي، ولم أكن أقدّر مغبَّته، وأنه سيراود قرينتي وسيسحرها بجزالة لفظه، وسيفصلني عنها ويفصلها عني.. كان حرياً بي أن أتذكر قول نيتشه من أن المرء يُؤتي من مكارم خُلقه.. بل كان حرياً أن أتذكر قول المتنبي نفسه إذ يقول:

فلما صار ودّ ناس خِبّاً جزيْت على ابتسام بابتسام

كنت أحسبه مَن يمسك مفاتيح الحلِّ لوضعٍ معضل... كنت أعُدّه نيتشه عربياً.. نيتشه من فصيلة أخرى يحقِّق الإنسان الأسمى.. يبرئ قومه من لعنة الميتافيزيقا والخمول والتواكل والتفسيرات الغيبية..

حلَّ ببيتي وأسكنته مكتبي، وأخذت العهد منه ألا يخرج منه... كنت إذ أعود من عملي، أخلص إليه، أحدّثه ويحدّثني.. وجدت عنده حُسن الرُّفقة وجميل العشرة ما أنساني ثقل الوحدة.. كانت علاقتي بزوجتي فاترة.. وهو الأمر الطبيعي في كل علاقة زوجية... كانت كثيرة الأسفار لطبيعة عملها... وشاب علاقتنا بعض الفتور... ولكني لم أقدّر أن يصل الأمر إلى الانفصال.

كنت أخلُص للمتنبي فيسألني أحوال العراق والوضع بالشام، فأبلّغه بعضاً منها وأكتم أغلبها... ذلك أني لمرة، ولم أقدّر عاقبة قولي، حدثته ما حلَّ بمنبج من دمار، وأبلغته استعمال الأسلحة الكيماوية على الساكنة بضواحي خان شيخون. قلت الحق، والحق أقول، ولم أرِدْ أن أتستر عن الحقيقة، فرأيت المتنبي يبكي، بل يجهش بالبكاء.. كنت أحسبه عصي الدمع، لا تلين له قناة، فإذا أنا أرى شخصاً آخر... ومنذ ذلك اليوم أقلعت عن قول الحقيقة. قلت قولاً مبهماً عن العراق، ومنه أنه استعاد عافيته، وأخذت أتستر عن أحوال سوريا..

نعم، أحب سوريا، أو إن شئتِ أحب الشام... أحبها لأن لنا بها أكثر من آصرة. الأندلس، وجندنا الذين يرقدون بنجها من قضوا في حرب 1973. أنا بربري، ويمكن أن أستعمل هذه الصفة، ولا يمكنك أن تقولي بذلك ولا أسمح لأحد بذلك. آكل لحمي ولا أدعه لآكل. الصواب أمازيغي، ويحز في نفسي ما فعله بنو أمية بطارق بن زياد. تركوه يموت في سجن في دمشق، مثلما فعلت روما بيوغرثن وقد حبسته ولم تطعمه حتى مات جوعاً. هذه أشياء تثقل علي ولا أبوح بها للأحياء. هل من الحكمة أن أقول للأحياء ما يحمله

التاريخ، وللأحياء اهتمامات غير التاريخ، وقد غلبتهم شقوة الحياة، وتاهوا في تضاريس الجغرافيا وضاعوا في تجاويف الأساطير؟ وهل من العقل في شيء أن أتستر عمّا يختزنه التاريخ، إن كان هذا التاريخ لم ينقضِ، وروح طارق تُبعث على الدوام، وتودع في السجن على الدوام. نصحتِني بأن أنفث ما بصدري. ما الفائدة؟ لمَ تُضيعي الجهد في سماع حكي مجنون؟ لا يُضيرني الأمر، إن كان لا يزعجك أن ألفظ ما بنفسي. أن أتقيأه. تزعمين أني لسوف أتعافى بالسرد. ولست أريد أن أتعافى لوحدي، بل أن نتعافى جميعاً. سأخضع لما أمرت في هذا الرباط، لأن لا حيلة لي غيرها. لست أنسى حدْب أهل الشام بي وقد زرت دمشق. . . تقولين هو انفصام الشخصية. وقفت سيدتي على هذه الآصرة العميقة من خلال أناس بسطاء احتضنوني وأحبوني. . . لست وغْداً دكتورة. لست ممن يتنكرون لأواصر التاريخ، ولو أنكم تُعدونني مجنوناً. . . فبمَ تؤاخذونني عليه؟ ألأنني أعيش في أزمنة متعددة، أو أزمنة متعددة تعيش في؟ ألأني لا أكتفي بالنظر، وأذهب أعمق من البصر إلى البصيرة؟ وبالمشاهدة أرى. كما لدى المتصوفة، ولو أني لا أستطيع أن أسلك مسلكهم رغم رفقتي بهم. آلم سيدتي لما يحيق بسوريا. . . آلم لذلك لأن التاريخ يسكنني، أو لأني أسكن التاريخ. .

كان المتنبي أنيسي إذ أعود من العمل. آتي البيت، فأجد المتنبي إما في الصالون، وإما بمكتبي، فأسأله كخدينَين:

- كيف حالك أبا الطيب؟

ويردُّ ممازحاً:

- كان حرياً أن أعرفك من ذي قبل أيها البربري. .

فأعمد أن أصحِّح له في رفق وأقول له إني أمازيغي، وأن الأمازيغي هو الحر. ناكفني الوغد مرة بالسؤال:

- وهل أنتم أحرار؟

رددت من جنس قوله:

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى
عدواً له ما من صداقته بدُّ

كان لزاماً أن أوقفه عند حدّه حتى لا يَفْرطَ به الحديث. أردفت:

- ليس لك أن تزجَّ بنفسك في قضايانا. أنت ضيف على عصرنا وعليك أن تلتزم بقواعد الضيافة.. فلستَ صاحب البيت.. أعني أنت لست من زماننا وليس لك أن تملي علينا شيئاً فيما يخص أمورنا..

- ولكن حقيقة الإنسان واحدة...

حدث مرة شيء مثير، ذلك أني إذ عدت أخذ يلحف في السؤال عن نيتشه.. فأغلظت له في القول:

- وما شأنك أنت ونيتشه؟ وما يهمك من أمر نيتشه؟

- وجدت كتاباً ها هنا واطّلعت عليه..

كان كتاباً قديماً من الكتب التي كتبها عبد الرحمن بدوي، وكانت قراءته لنيتشه تقريبية، لا تلتزم الدقة، وتروم التقريب في الترجمة، وكان ما يشفع لها جمال اللغة، مع تقريب فلسفة نيتشه، ولذلك لم يكن عسيراً على المتنبي أن يلمَّ بها..

شرحت له بعضاً من فلسفته التي هي تحيين لفلسفة شوبنهاور من أن العالم إرادة، وأخذ يجري تطابقاً ما بين قوله والإنسان الأسمى، و«ما شئت لا ما شاءت الأقدار»، وقوله:

إذا غـامـرت فـي شـرف مـروم

فـلا تـقـنـع بـمـا دون الـنـجـوم

وبعض المطابقات التي يتضمّنه شعره، وقد تلتقي مع بعض أفكار نيتشه، ومنها أنْ لا الحق ولا الخير مطلقان، في قوله:

ألا لا أرى الأحداث مدحاً ولا ذماً

فما بطشها جهلاً ولا كفُّها حِلما

حتى أتعبني. ثم دعاني أن آخذه إلى نيتشه... كان يريد أن يذهب عند نيتشه؟.. كان يحسب نفسه حِلّاً من الزمان، وهو الأمر الذي قبلته منه، وقبلته لأني كنت طرفاً في العملية، لأني أنا أنتقل من زمان إلى آخر، وكان يحسب نفسه حِلّاً من المكان، فينتقل من الكوفة إلى الرملة، ومنها إلى دمشق، ومن دمشق إلى منبج، ومنها إلى الفسطاط، فبغداد، إلى شيراز بفارس، وبعدها إلى الرباط، في شقتي بزنقة بغداد... وكنت أقبل ذلك منه لأنه رحّالة، ولأن البداوة سكنته، ولأنه أنِس السُّرى ومهامه الطريق والتكسب بالشعر.

ولكن كيف الانتقال إلى حضارة مغايرة؟ يمكن الانتقال من زمان المتنبي إلى زماننا، أو إلى الزمن العربي في يسر، لأن البنية لم تتغير، بل يمكن أن ننتقل إلى زمانه دون أن نشعر بالوحشة إلا ما قد نُحرم منه من بعض الأدوات التي اعتدناها، كالكهرباء والسيارة والكومبيوتر، ولكننا سنستأنس بسرعة لأنها البنية الذهنية ذاتها، يطبعها التفكير الميتافيزيقي، والمقاربة الانشطارية من علاقات ثنائية بين حاكم آمر ومحكوم خانع، وليست عقداً... المرأة بضاعة، والأطفال تحت الحِجر، ولا مكان إلا للرجال، ولا وضع إلا لهم، والرأي قاطع، لا مجال فيه للشك، ولا للفروقات التي قد تكتنف

الفكر. أما الانتقال لحضارة غير حضارتنا، فأمر عسير... قد يبدو ذلك سهلاً لأننا نلبس لباس الغربيين، وقد نرطن لغاتهم، ونستعمل أدواتهم، ولكن البنية الذهنية لم تتغير، وتأبى أن تتغير... كان ينبغي أن أجهر بالحقيقة للمتنبي حتى لا يذهبن به الخيال كل مذهب.

الحقيقة أننا نعيش زمناً غير زماننا، ولست على يقين أنك ستفهمين عني، نحن كمن يركب قطاراً ولم يؤدِّ ثمن التذكرة... يمكن أن يتم إنزاله في أي ساعة إن تمَّ ضبطه من قِبل المراقب..

لم يفهم المتنبي، ولم يكن ليفهم... كان يعيش زمناً يحسب فيه هيّناً تذليل كل عسير بفصل الخطاب وسحر البيان.. كلا يا أبا الطيب، كلا، نحن نعيش زمناً يقوم على الدقة في التعبير، وعلى مطابقة كلمة ما لمعنى أو لمفهوم، وعلى فروقات دقيقة في المعاني... وهو ما لم يتأتَّ للعرب، وجزء كبير من مشاكلهم هو أن لهم فهماً تقريبياً لأشياء. يفهمون الديمقراطية بشكلها لا بروحها، والتطور بمظاهره لا ببنيته، ويحكمون بالظن وما تهوى الأنفس، ويخلطون ما بين أشياء متشابهة أو متقاربة. واللغة غير دقيقة، لأن البنية الذهنية مضطربة. والتحديث يقوم على بنية ذهنية، تلك التي انتسجت في الغرب، وكانت نتيجة لصراع، لصراع مرير كانت الغلبة فيه للعلم لا للمعتقد، توارى فيه شأن الكنيسة، أو أصبح الدين شأناً شخصياً... عالَم قام على الشجاعة والمغامرة، وليس على الدسائس والكذب والافتراء والمتع... كان يعجبني بيتٌ للمتنبي يشرح أسباب الاغتياب وذهنية المغتاب: «وكل اغتياب جهد مَن ما له جهد». وما السياسية في بلاد بني يعرب سوى الاغتياب، أي جهد من ليس لهم جهد. لعقود وأحقاب وقرون. وينتهي الأمر إلى من

يحسنون الاغتياب والوشاية والكذب والاختلاق، إلا في فترات نادرة، كسحابة صيف ما تلبث أن تتبدد، وتُضحي أسطورة تُغلّ العقول والأذهان. عمر بن الخطاب، عمر بن عبد العزيز، جمال عبد الناصر. كنت أقرأ في تلك الفترة كتابَ **مصر الحديثة** للورد كرومر، وكان قد أجملَ أدواء الحضارة الشرقية في عدم الدقة، وأوصاب مصر في ثلاثة أشياء، الكرباج، والسخرة، والرشوة، وهي تبدأ بذات الحرف بالإنجليزية (وحتى في الفرنسية: Cravache, corvée, corruption...). ما الذي تغيّر منذ القرن التاسع عشر؟ نوعية الكرباج وكيفية السُّخرة وأساليب الرشوة. الأدواء هي هي، وإنما الأشكال تغيّرت. كنت أود أن أقول للمتنبي إنه يستطيع أن ينسلخ عن التفكير الغيبي، إن كان يمكن للتفسير الغيبي أن يكون فكراً، بصفته فرداً، ولكنه سيلظى مثلما تلظّى بعده أبو العلاء المعري، إلى طه حسين وكل أصحاب الفكر التنويري في زمننا هذا. يُنظر إليهم كضيوف ثقال... وكان ممّا أقدم عليه مناضلو «الربيع العربي» هدم نَصْبي كل من أبي العلاء المعري وطه حسين. ولم يخطئوا الغرض ولا الرميّة، لأن الرجلين كان يبصران بالعقل، ويريدان أن يُبصّرا عالمهما بالعقل، ولكن أقوامهما لم ينفصلوا عن الحقبة الميتافيزيقية، ولا هم يريدون أن ينفصلوا عنها أو يريدون أن يخرجوا إلى النور... تجد الجماعةُ ذاتَها في حضن الماضي ودفء التقاليد، كشخص يأبى أن يفارق دفء الفراش، أو أن ينسلخ عن متعة الوسن وإغراء الحُلم... نحن حالمون. حالمون أننا نعيش الحداثة، لأننا نركب الطائرة، ونتعالج بأدق التقنيات الطبية، ونلبس رابطة العنق أو التنورة... حالمون. لا غير. حالمون ولا نريد أن

نستيقظ. . . إذ لو استيقظنا لوجدنا أنفسنا زمن المتنبي. زمن القرامطة، ولو أنهم غيّروا اسمهم وأصبحوا داعش، والبوهيين ولو أنهم غيروا اسمهم، وأصبحوا حاملين لأيديولوجية شيعية، والسلاجقة، وقد أضحوا يدفعون بالعثمانية الجديدة، وسيف الدولة، ولو تسمى بناصر، وكافور، وهم كوافر حدِّثْ ولا حرج. . . ولست على يقين أن يكون كافور كما صوره المتنبي. كنت أحببت تلك الهَبَّة من المتنبي حين أراد أن يرتبط بالروح الإغريقية ويقطعَ مع تراث الأعراب وقد خاب ظنه فيمن يحمل مشعل العروبة. أحببت هذه الأبيات التي لم ترُق لطه حسين واعتبرها ضعيفة سخيفة، وهي تروقني، وتروقني لأنها ترتبط بأهم مرجع عقلي في تاريخ البشرية، ألا وهو التراث الإغريقي. ولا أرى فيها ضعفاً ولا سخفاً. وتعجبني لأن المتنبي سافر لا إلى زماننا بل إلى زمان الإغريق وجالس أئمتهم وأخذ عنهم. أتلو عليك هذه الأبيات:

من مُبلِغُ الأعرابَ أنّي بعدها
جالستُ رسطاليس والإسكندرا

وملِلت نحْرَ عِشارها فأضافني
من ينحر البدر النُّضار لمن قرى

وسمعت بطلميوس دارس كتْبه
متملّكاً متبدّياً متحضّرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما
ردّ الإله نفوسهم والأعصرا

نُسِقوا لنا نسِق الحساب مقدّماً
وأتى فذلك إذ أتيت مؤخرا

وأحب منه هذا التشخيص الدقيق لذهنية الأعراب. من يستغويهم الظاهر، ويغلون في تضخيم التافه، ويُسبلون على أنفسهم من المكرمات ما يجانف الحقيقة. اسمعي بطولات الأعراب وقد أتوا على جُرذ:

لقد أصبح الجُرَذُ المستغير — أسيرَ المنايا صريعَ العطب

رماه الكناني والعامري — وتلّاه للوجه فعْلَ العرب

كلا الرجلين اتّلى قتله — فأيكما غل حُرَّ السلب

وأيكما كان من خلفه — فإن به عضة في الذنَب

هو ذا قول المتنبي. هو ذا تصويره لبطولات العرب: أم المعارك. الحزم. العبور. القادسية الثانية. ولا واحدة تحيل إلى انتصار، وإنما هي شقشقة لفظية. ثم كان سفره بعد ذلك إلى زماننا، وهو لَعَمري سفر غير قاصد. لماذا يحلّ المتنبي بعصرنا؟ أضاقت به عشرة الأعراب ونحر العشار والتكسب بالشعر؟ نفوره من ذلك ما حببه إلي، ولكنه لم يبرأ من أدواء بني جلدته: القول الفخم والغزو والسبي... وأنا أشمئز من ذلك وأنفر. أنكر خطاباً بلا عمل، وقولاً مجلجلاً بلا فكر، وأكره قتل شاة، فما بالك بمن يجيزون قتل الإنسان ويفتون في ذلك. ولا يقبل ذهني بالسبي والفيء والغزو والإغارة والنقا[1]، وما شابه ذلك، وهي أشياء قائمة في الأذهان سارية في الواقع. وهي تسري في الواقع، لأنها تسكن الأذهان. ولم يبرأ صاحبنا من عالمه، ولو هو يعي أدواء عالمه. ولو أتيح لي بعض اليسار وأُنِلْت خَفْض العيش، لحملته إلى أمير من أمراء نجد وتهامة،

(1) النقا: تحذير بالإغارة، وهي ممارسة كانت سارية في الجزيرة العربية، حتى عهد قريب.

أو إمارات الجزيرة، فقد يكون ذلك أجدى له وأنفع، ومطابقاً لطبعه، فيشنف سمعَه بجزيل لفظه، وسحر قوله، ويأمر له الأمير بصلة، ويسبغ عليه بسَنيّة، ويشفع بمكرمة من أياديه البيضاء التي لا تنضب... إلا أن بني يعرب لم يعودوا يحسنون لسانهم ولن يفقهوا قوله أو يتذوقوا شعره. ولعلي لو أجريت رسكلة على المتنبي لَفهم عنه بنو يعرب وفهم عنهم. رسكلة بسيطة، أو أطليه كما يطلي لاعب السيرك وجهه، فيصبح صحافياً نحريراً، أو تقنياً لوذعياً، أو مفكراً كبيراً لا يقرأه أحد ولا يفهم قوله أحد، كلأته العناية الربانية بلغة ركيكة، وجهل لقواعد اللغة العربية، وزعْم لمعرفة لسانها، فيُنعم عليه بنو يعرب بالجوائز السنية، والصلات البهية، والمكرمات السابغة، ويفيضون عليه ممّا أفاء الله عليهم... كل ذلك ممكن، أما أن يحل المتنبي عند نيتشه وعالم نيتشه فأمر عسير.. عالم أوغست كونط (Auguste Comte) الوضعي، عالم العلم، عالم التفكير البارد، عالم الإنسان المتحرر الذي لا يَدين بوجوده لأحد، عالم يأتمّ بالعقل، ويؤمن بالحرية، ويرسي قواعد موضوعية للعدالة الاجتماعية... غير ممكن... كيف أشرح ذلك للمتنبي؟ وأخيراً اهتديت لحيلة قدّرت أنه سيفهمها.

- ينبغي الحصول على تأشيرة السفر إلى الزمن الحديث؟
- فلْنحصلْ على التأشيرة إذاً..
- وهل تحسب الأمر هيّناً يا أبا الطيب؟ يمكن أن نحرق، كما نقول نحن المغاربة، أو نهاجر للحداثة كما يفعل المهاجرون السرّيون، ونغشى عالمها بلا أوراق، أي بطريقة غير شرعية... لا، ليس ذلك ديدني... وصدق الشاعر إذ يقول:

فيا صاحبها بالغيد إن مزارها

قريب ولكن دون ذلك أهوال

- هذا قول حسن، فمن القائل؟

- أبو العلاء المعري.

- أبو العلاء؟

- من معرة النعمان... هي أنقاض الآن، كان أبو العلاء من أبنائها البررة... لا عليك.. بنو يعرب يهدمون ما يبنيه الآخرون.

- لم يحدّثني عنه أحد..

وحدّثته عن أبي العلاء المعري، واستغربت أنه لم يكن قد سمع به... كنت أظن وأنْ قد سافر من القرن الرابع الهجري، إلى القرن الخامس عشر منه، والصواب أن أقول الواحد والعشرين من التقويم الغريغوري، أنه وقف على مراحله كلها... إلا أنه لم يفعل، لأن العرب كسالى، وحتى شاعرهم العظيم لم يسلم من عيوبهم... حدّثته عن المعري إذاً، وتوخيت أن أنقل ما يروقه. حكيت له قصة أبي العلاء وقد كان حاضراً بمجلس مع الشريف الرضي، وقد أخذ هذا الأخير ينال من المتنبي ويُعرّض به، فردّ المتنبي:

- أوَ لو لم يقل إلا قصيدته التي مطلعها «لك يا منازل في القلوب منازل»؟

فما كان من الأمير إلا أن صاح:

- اسْحلوه.

فسحلوا المعري وهو الأعمى. وعقّب الأمير:

- أعرفتم ما أراد هذا التشلب، نطقت الكلب بلسان أهل

العراق. ليس ذلك بجميل شعر المتنبي ولكنه استشهد بها لأن في القصيدة بيتاً يريد أن يُعرض فيه بي، إذ يقول فيه المتنبي:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة بأني كامل

سُرّ المتنبي حين سماعه للقصة. لم أكن على يقين أن تكون القصة قد وقعت، ولكن العرب يكلفون بالقصص المثيرة أو الفانتساماغوريا، كالأطفال. هل سيصدّق من ينحدر من ميراث إغريقي هذه القصة؟ فاستزادني الحديث عن المعري، ففضّلت أن أحدّثه عن نثره، أو **رسالة غفرانه**، أو هذا السفر إلى الآخرة...

راودتني نفسي أن أجري مقارنة ما بين **رسالة الغفران** و**الكوميديا الإلهية** لدانتي... وخشيت أن يسألني المتنبي، ومَن دانتي، وقبيلته، ومن أي بطن منها، ويشفع بالسؤال عن مذهبه وعصبتيه وممدوحيه وأولياء نعمته... لا يمكن أن يخرج عن القوالب القديمة... ولست ألومه، ولكني ألوم من ولد في عصرنا، وبقي في القوالب القديمة... أو من يتصرف كما يتصرف الأطفال، نحن سبقنا الغرب في كل شيء. دانتي أخذ **كوميدياه** عن **رسالة غفران** المعري... وهلمّ جراً من التفاهات... وكيف نقارن سَفراً يطرح قضايا وجدانية ووجودية، ويقف عند أبواب جهنم، والمهاوي الموجبة للعقاب، في كل باب، من لا مبالاة وشبق وطمع، ومن جهة أخرى كلام عن البلاغة والجزالة، وكلامنا لفظ مفيد كاستقم كما حفظت في **ألفية** ابن مالك... والحطيئة وقد كاد أن يهوى في جهنم، بعد هيّاط وميّاط وشفاعة من قريش... وهلمّ جراً..

لماذا أسرد عليك لك هذا كله؟ أنتم هنا لا تطرحون أسئلة

وجودية؟ أعرف أنك بصفتك طبيبة صرفت جهداً للجواب عن سؤال كيف، هذا الذي تفرضه المقاربة العلمية، ولكن ذلك لا يكفي سيدتي، ثقي بي. لا بدَّ من السؤال الفلسفي، لماذا، أو غاية الأشياء؟ وأنا أطرح هذا السؤال، ممّا دفع الناس أن تنبذني، وحُكم علي من ثمة أن أقبع هنا في هذا الرباط مع زمرة المجانين. وأنا لا أستطيع أن أطرح هذا السؤال من دون التعريج على الماضي. وأنا لا أستطيع أن أسكن الحاضر، من دون كبح جموح الماضي وترويض نزواته، وإلا تملكتْ أشباح الماضي أمري، وأنا لا أستطيع أن أروّضها من دون قراءة نقدية للتراث.

افتحي سيدتي أي كتاب عن الحضارة الغربية، لسوف تجدين أنها قامت على الإبداع والابتكار واقتحام المجهول. وأصيخي السمع إلى ما يقال عندنا وما لا يقال، كل مستحدث بدعة، وكل بدعة في النار. رُفعت الأقلام وجفت الصحف، سيدتي.

لماذا ينتبذني المجتمع يا دكتورة؟ ولم تحيلون بيني وبينه؟ لأني أريد أن أبرأ من علل تاريخية. لأنني لم أعد أستطيع أن أتستر على الزيف؟

هل عنّت هذه الأسئلة من ذهني فُجاءة، جرّاء نزوة، أم انهيار عصبي كما تقولين، أم أن هناك أسباباً موضوعية دعت لذلك؟

ترفّقي وحاولي أن تجدي الجواب. وحاولوا أن تجدوا الجواب. حاولوا أن تنتقلوا من سؤال كيف إلى لماذا. ينبغي أن تذهبوا أبعد ممّا يتراءى من أشباح.

آسف دكتورة، على هذا المزج في الأزمنة، والخلط في الهوية، والاضطراب الناجم عن هذا الخلط. لن أصبح سويّاً، إن كنت قد فهمت، إلّا إن أنا وضعت حدّاً لمزج الأزمنة أو خلطها على الأصح، وتداخل الهويات، بل تجاوزها. تزعمين أن هذا الاضطراب طبيعي. وهل من الطبيعي أن أكون أنا المجنون وأنتم الأصحاء.. والدواء؟ أي دواء؟ والداء؟ ما الداء؟.. هناك مشكل وحدة القياس.. وهذا العالم الممتد من الماء إلى الماء، كما يقال، له وحدة قياس غير وحدة ما انتهت إليه الإنسانية، ممّا انتهى إليه المتنبي، فالعالِم فدمٌ، والحازم كلب، وأسهدهم فهد.

كنت، لا جَرم، صديقاً للمتنبي... لم أكن لأرتاب في شيء. أبداً.. كنت أحسبه أعزل. وما يقدر شخص منبعث من الماضي قضى منذ عشرة قرون ونيّف أن يفعل؟ وما تستطيع الأشباح؟ لن تزعج حيوات الأحياء أو تؤثر في مسارهم.. كان خليقاً بي أن أتذكر شكسبير وقصة هاملت والأشباح التي تُحدّث بما يتستر عنه الأحياء.. حفظت صغيراً تلك الأسطورة العربية لطائر يُسمّى الهامة، يصرخ على شاهدة قبر الموتور أن يُسقى الدم حتى تهدأ روح

الموتور. . نُشِّئْتُ على حب الدم والتعطش له. . . قال الشاعر يدعو للتِرات (بالتاء، بنقطتين، أصلحك الله):

يا عمرو إلّا تدعْ شتمي ومنقصتي
أضربْك حتى تقول الهامة اسقوني

وبُثّ في ذهني الثأر والقتل والغضب والأنفة والجهالة والقصاص والقَوَد. حفظت يافعاً قصة مقتل كليب كبير قومه على يد جسّاس، أخ جليلة زوجة كليب، فقامت حرب البسوس، لأربعين سنة. سأرأف بك من الأسماء، وما قبيلة بكر، وما تغلب، وأيامها، أي حروبها. ألهم مقتلُ كليب أخَ كليب، مَن تسمّى بالمُهلهل، بقول الشعر، وكان ساهياً لاهياً زيراً للنساء. . كل هذا كما لو أنه حقائق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا خلفها. والقصة كان يمكن أن يصاغ منها دراما، كما روميو وجوليت، ولكن أين هو الخيال الذي يستعيد التراث ويعيد بناءه؟ يُشحَن الطفل ببنية أخلاقية قديمة ولغة عتيقة ويوحى إليه أنها حقائق تاريخية، وأن لغته القديمة بحمولتها العتيقة يمكن أن تعيش معه، ويتعايش معها، ويسكن عصره بلا عسر ولا اضطراب. تصوري قصة جليلة وهي موزّعة بين زوجها القتيل وأخيها القاتل. نعم، حفظ لنا التراث شيئاً ممّا نُسب إليها من شِعر. وهل سيفهم التلميذ ذلك اليوم إن لم يُصَغ في وعاء أخّاذ. . وقلّما يقف المعلمون على قصيدة جليلة، وقلّما يعرفها المتعلمون. . وأنا أحب هذه القصيدة، وأعتبرها من أجمل ما جادت به قرائح شعراء العرب في ما يُسمّى بجاهليتهم. . أصيخي إلى كلامها وهي موزّعة بين زوج قتيل وأخ قاتل؟ وهل سيُشفيها ثأر أهل زوجها لزوجها، لأن المقتول لن يكون إلا أخاها. تبكي اليوم فقْد زوجها، وقد تبكي

غداً فقد أخيها. وأنتِ لا تحتاجين إلى قواميس لفهم هذه الأنّة.
استمعي إليها:

فِعل جسّاس على وجْدي به
قاطعٌ ظهري ومُدنٍ أجلي
يا قتيلاً قوَّض الدهر به
سقفَ بيتي جميعاً من عَلِ
هدم البيتَ الذي استحدثتُ
وانثنى في هدم بيتي الأول
خصني قتل كليب بلظى
من ورائي ولظى مستقبلي
ليس من يبكي ليومين كمن
إنما يبكي ليوم ينجلي
يشتفي المدرك بالثأر وفي
دَرَكي ثأري ثكل المثكل
إنني قاتلة مقتولة
ولعل الله أن يرتاح لي

كم من جهد كنا نبذله لكي نتأثّر بمنظومة قيم هي سبب ما نعانيه. وهم أهلها، عافاهم الله وأصلح بالهم، من أيقظونا. أيقظونا بعجرفتهم وهوانهم.. أوقعوا في خلدنا أنّا لا نستطيع أن نكون إلا عرباً من الدرجة الثانية، أو موالي، وحين كشفوا لنا ذلك، اكتشفنا ذاتنا... التاريخ يتقدّم من جوانبه السلبية، يقول ماركس. كافر. دكتورة، إنْ جعلنا معيار حديثنا للناس، ما قالته السماء، أو ما قوّلناه

السماء، فلن يكلّمنا أحد، ولن نفهم من أحد، وسنظل، بحمده ومنّه، كما نحن، أسوأ أمة أخرجت للناس.

هل تحسبين داحس والغبراء سِجِلاً من الماضي، ولا الشنآن ما بين بكر وتغلب، فترة من التاريخ مضت وانقضت؟ ذلك ما كنت أحسبه وقد غلبت علي سذاجتي. كلا. هي حاضر يمشي على رجلين، كما في تعبير هيغل. والويل لمن مال إلى بكر من تغلب، والويل لمن مال إلى تغلب من بكر. والمرصاد لمن التزم الحياد ونادى بإصلاح ذات البين ما بين بكر اليوم وتغلب اليوم. ولبكر وتغلب كليهما عصائب تهتدي بعصائب حسب القول المأثور للنابغة الذبياني، من قنوات تلفزية، وصحف ومراكز بحث، وكَتبة ومحللين وخبراء وأئمة وعلماء وفقهاء ومجاهدين ومغنين ومطربين وفنانين و. . . فنانات. . وما أدراك ما الفنانات. هو تعبير رقيق رشيق وتورية محمودة، لتسلية مشهودة. لعالم القيان والجواري الحسان، وما ملكت البنان. بأشكال شتى. الزواج العرفي. زواج المسيار. زواج المتعة. زواج «البوي فرند». فالواضح الفاضح، من سَبي لمن ملك السيف، والليالي الغُر، لمن كان ذا بسطة في المال. وقد شاءت الأقدار أن أُبتلى ببكر وبتغلب كليهما، وأبتلى منهما. وللحروف في لغة العرب معاني، وهم لم يعودوا يدركون فروقاتها. لا يعرفون معاني الحروف ولا حروف المعاني. لا يستنبطون بطون القواميس وكنوز التراث كما لو أن لغتهم يمكن أن تنهض لوحدها بقدرة قادر. ولا هم يقرؤون الواقع، أو يسعون أن يربطوا الصلة ما بين الماضي والحاضر. واللغة لا ترتقي بخربشات متحذلقين، وتنظير هواة، وفَواق مراهقين أو ضرطهم، وتجشؤ غرثى من غير شِبع. لا سيدتي.

لا بدَّ من جلَد في التنقيب عن كنوزها من لدن البزل القناعيس، وهي الإبل الشديدة، كما في هذا البيت الذي كان يتلوه علي أستاذي في النحو ابن سودة، ولعله أن يكون لجرير:

وابن اللّبون إذا ما لُز في قَرَن

لم يستطع صولة البُزل القناعيس

لا بدَّ من الغور في بحر اللغة، واستجلاء الدُّر الكامن فيها، ثم تعهده وصقله.. ولن يقوى على ذلك إلا متهجّد في محراب، راهب في دير، أو متصوّف في زاوية. أما مجامع اللغة، سيدتي، فتصلح لكل شي سوى خدمة اللغة العربية. تصلح للسياحة والترفيه والتنفيس عن الذات. مع إصدارات لا يقرؤها أحد.

عوْدٌ لما نحن بصدده. أو رجعٌ، كما كان يقال في حلقات جامع القرويين. لم يغفر لي بنو بكر ولا بنو تغلب أن التزمت الحياد في واقعتهم أو وقعتهم التي سارت بذكراها الركبان، ولم يغفروه لأنهم يتصرفون كأطفال لم يبلغوا سن التمييز، ويحسبون بفضل ما أفاء الله عليهم أن الكل بضاعة تباع وتشترى.

أين نحن من حديث؟ شبح المتنبي.. شبح المتنبي سكن بيتي وبعثر بيتي، مثلما تبعثر الأشباح عوالم هذا الفضاء من المحيط إلى الخليج... الأشباح تقول للأحياء، ينبغي أن تزْوّروا كي تتركوننا نعيش مكانكم.. تسكن الأشباح الحاكم بأمر الله، وتحل بجسد حاجبِ الحاكم بأمر الله، وتتلبس كاتب حاجب الحاكم بأمر الله. يُحدّث العرب عن السارد، والمحدّث عن الراوي، والراوي عن القاضي، والقاضي عن الحاكم بأمر الله، والحاكم بأمر الله عن الطيف الذي يسكنه، ويملى عليه ما يتوجب انتهاجه... كما لو هي

دُمى روسية. كل دمية تخفي أخرى. أعْفَوا أنفسهم من الاستدلال بالعنعنة وبقول الثقاة، والوشاة، وبالرؤيا، وبالأسرار السنّية والألطاف الخفية، واستبدلوا التحليل بالتعديل والتجريح... ويصرخون بعدها، نحن ضحايا.. العالم يتآمر علينا.. ولا يزعجهم البتة أن يكذبوا الناس، ويحتالوا على الناس، وهم يرددون آناء الليل وأطراف النهار ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، وهم يتلون ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾.

كنت أعرف ذلك كله، ولم أقدّر أنْ أقع ضحية له.. حكيت للمتنبي قصتي.. كصديقَين. كخِلَّين.. حكيت له كيف أني كنت خادماً عند الحاكم بأمر الله وقد ولّاني، أصلحه الله، خطة الكتابة.. ثم شفع عز عُلاه، فعهد لي بسيرة عترته السّنية.. بمعنى أن أكتب صحفاً مطهّرة، عن حياة غير مطهّرة، وأن أصرف طاقتي، دام سناه، للوشاية والدسائس والاختلاق.. فأنتظر النهار كله، وإن تقضّى شفعت بيوم ثانٍ، وإن لم يسعف ظرفه، زدت ثالثاً، ولِم عمراً، إلى أن يعنَّ يوماً ما فأرتمي على قدمه، وأقبّل رجله، وأتشفع به، فيربت علي، وأعلم إذّاك إني قد نلت رضاه، وحزت عطفه، فتهون الدنيا عندي وأنسى ما كنت أريد بثّه. وما أنسانيه إلا طول الانتظار..

الحاكم بأمر الله كان مسكوناً بشبح الحاكم بأمر الله، أو إن تشائي الدقة بطيف الحاكم بأمر الله. الحاكم بأمر الله إنسان ودود، محب للخير، مرهف الإحساس، قوّام على الحق، برّ بأهله، عطوف على صحبه. طيف الحاكم بأمر الله سكن الحاكم بأمر الله، فأتى الحاكم بأمر الله من الأمر ما لا يطابق طبعه. وكان طيف الحاكم

بأمر الله يملي على الحاكم بأمر الله، أن يغلظ في القول ويسرف في الفعل، ويغلو في السلوك. ويَحْدث أن يغضب الحاكم بأمر الله، عفواً طيف الحاكم بأمر الله، فيهشّم الحاكم بأمر الله ما يبْدر أمامه، ويأتي على ما يعكر مزاجه، ولا يهدأ إلا أن تُعفَّر له الجباه وتخضع له الرقاب، فيهدأ أو يهدأ طيفه، أو شبحه. لم يكن ليقطع الرؤوس، لأن الغرب، قبّح الله سعيه، لم يكن ليصمت عن ذلك... كان الغرب يتكتم عن عالم الحريم، ولم يكن ليسكت عن قطع الأعناق. لا بأس بقطع الأرزاق... المفهوم الجديد لقطع الأعناق.. وكان للحاكم بأمر الله، حاجب تلبّس طيفَ الحاجب أو تلبسه الطيف، وكان للحاجب كاتب سكنه طيف الكاتب، وكان لأمين بيت المال طيف يملي عليه ما ينبغي فعله لما أفاء الله عليه وعلى صحبه، وكانوا جميعهم مسكونين بقواعد اللعبة التي كانت سارية ببغداد وقرطبة، والفسطاط ومنبج، أو حتى لا أغلو كانوا مسكونين بالأطياف التي سكنت في الغابرين حكام بغداد والفسطاط وقرطبة... ما جدوى أن تحدّثهم عن لوك وروسو ومونتسكيو؟.. هم درسوا ذلك بالجامعة في السوربون وكامبريدج وجورج تاون، ولكن الجامعة حلم، حلم في الكرى. وما ليس حلماً هو طيف الحاكم بأمر الله دام علاه، وهو طيف الحاجب المنصور بالله، سدّد الله خطاه، وهو طيف صاحب الشرطة، المؤيد بالله، تَرِبت يداه، وهي الرعية المستكينة لمن اختارته العناية الربانية، فاجتبت لها من يسوسها، وعليها أن تخنع له وتطيعه في المنشط والمكره، لأن من مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة الجاهلية، والعياذ بالله... هكذا. في زمن حقوق الإنسان، وتوازن السلطة، والثورة

السيبرنيطقية. تُحكم شعوب بالنزوات والأهواء. وهل تُنازع نزوات الحاكم بأمر الله؟ والطاعة واجبة ومن خرج عنها حقّت عليه اللعنة، وباء بغضب من الله. ولنزوة الحاكم بأمر الله جنود شداد يفعلون ما تمليه عليه مصالحهم. يذبّون عن الحاكم بأمر الله، ظاهرياً، وهم لا يدافعون إلا عن مصالحهم باطنياً. ويكتب الكتبة ما يتلى أو ما يوحى من عميق فهم الحاكم بأمر الله وثاقب نظره، وحصيف رأيه وسابغ حلمه. كان مثلما تواتر عن الرواة يُفيض على رعيته من عطفه، ويُسبغ على خاصته من فضله، ما يعجز اللسان عن اللهج به، لما اختصته به العناية الربانية من جزيل الفضل وكريم السجايا. وكان يقف على شؤون الرعية ويَطلّع على أحوالها ويتدبر أمرها. ثم إنه أمر بعض المؤدبين أن يتلوَ قول الله تعالى في رواق الجامع الكبير... قد تمرق بعض الكتابات كما تنسل عن فضائح السلاطين مع جواريهم وخدمهم وحشمهم.. كما مع عبد الرحمن الناصر، ممّا انتهى إلينا ومنها أنه شوّه وجه جارية جميلة امتنعت عليه. ومنها أنه قتل ابنه الذي لم يصطبر على مجونه وجنوحه فذبحه بيده، يوم العيد. لا تستعجِلِنّ الفضائح، فسنُبلّغ أمرَها.

والمشكل، سيدتي، ليس الحاكم بأمر الله، ولا حاجب الحاكم بأمر الله، ولا صاحب الشرطة ولا المحتسب ولا وعاظ السلطان، ولكن الأشباح.. والمشكل الأكبر، ليس الأشباح، وإنما إيماننا بها.. ما كانت لتسكن عالمنا، وتزاحمنا حاضرنا لو أننا لم نُسكنها عقولنا وقلوبنا..

ودخلتُ ذاك العالم ولم أكن مقترناً بطيف يملي علي ما أصنعه.. كان ينبغي أن أنغمر في قالب يسكنه طيف، وأدعَ الطيف

يأخذ بيدي كما يشاء.. وعلة ذلك عمقي الأمازيغي الذي ما برح يسكنني، وهذا الذي حزته من ثقافة غربية لم تُبدِّد هذا العمق أو تأتي عليه وإنما حفظته ورعته، وإلا لكان قد أجهز علي خدم بني سلطان، ولمحقني بنو شُرطان، وقد أُوتوا وسائل جديدة في الرصد والضرب ممّا لا يترك كدماً ويتولى كمداً، ولقبلت بوضعي مولى من الموالي، أو رقماً في حاشية، وفُضْلة من فَضَلات.

حاشية الحاكم بأمر الله أدام الله علاه، كانت تدرك خطورة أن يُسند إليّ تدوين السيرة العطرة، من عوالم عطنة، فجرّدتني من القلم كي لا أخطّ شيئاً، وتعْهدَ لبعض الكتبة والنساخين والمتشاعرين والمتصاحفين، في زمن الكومبيوتر، بتدوين ما ينبغي تدوينه وتجميله وتحمليه... أتعبتني قصص البلاط، ودسائس البلاط، فصرفت جهدي أقرأ النظام القديم لفرنسا... لمؤرِّخ الملك لويس الرابع عشر، سان سيمون.. ليس الفيلسوف وإنما جده... قرأت يوميات سان سيمون، وحتى لا أكذبكِ، قرأت نتفاً منها، وأعدت قراءة **الطبائع** للا برويير، و**رسائل فارسية** لمونتسكيو... ثم شفعت بدو توكفيل عن النظام القديم... وانتهت إلى ما لا ينبغي أن أنتهي إليه. هؤلاء «الكفار» شرّحوا عالمهم بمبضع العقل كما يفعل كل بالغ عاقل، بلغة الفقهاء، وليس البلوغ عندنا إلا المرحلة الفيزيولوجية، ولا العقل عندنا إلا ما يعارض الجنون والعته والخبل، لا الاستدلال البارد. كان يُفترض أن أقرأ **سراج الملوك** للطرطوشي، و**العز والصولة في أحكام الدولة** لعبد الرحمن بن زيدان، و**الترجمانة** لأبي قاسم الزياني، و**مناهل الصفا** لعبد العزيز الفشتالي، بعد أن أكون

فرغت من أمهات الكتب، من **البيان والتبيين** للجاحظ، **والشعر والشعراء** لابن قتيبة، **والكامل** للمبرِّد أو المبرَّد، الله أعلم، **والأمالي** لأبي علي القالي... لا تعرفين تلك الكتب، وخير لك ألا تعرفيها، والأدهى أني قرأتها... قال «الكفار الفجرة»، أتى الله على بنائهم من أسّه، قولاً بارداً عن أخلاق الحاشيات، عن تحليل نفسيات صاحبيها، عن نفسيات حكّامها، عن هزء شعرائها بذلك كما فعل موليير في **عدو البشر** أو تارتوف... بنو يعرب لا يعرفون التحليل.. إما مديح إلى أن يفنى المادح في ممدوحه، وإما هجاء لا يُبقي ولا يذر، في أصل المهجي وأصله وفصله، وذويه وصاحبته التي تؤويه..

اسمعي ما حُفّظتُه في ذم الأنصار ممّا قاله الأخطل، أو دُفع لقوله:

ذهبت قريش بالمكارم كلها

واللؤم تحت عمائم الأنصار

لقوم يتلون ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾. الأنصار من آوى ونصر لئام. ومن اللئيم، بالله عليك؟ من آوى ونصر، أو من أُوِيَ ونُصر، وانقلب بعد ذلك؟

انقدحت ذبالة من ذهني أرى بها في عتمة الطقوس وظلمة النصوص.. وكان لا ينبغي للنور أن يغشى المكان. ألا يعلو صوت إلا صوت المادحين وقد لبسوا قناع الحداثة، ورطنوا بالفرنسية، وشفعوا بالمصطلح الإنجليزي، ولهم جيش من مردّدي الصدى، فينتهي للأجيال ما أريد أن ينتهي، ويُكتب بماء الذهب على رقّ الغزال:

«وقد اتسمت فترة الحاكم بأمر الله بالعدل حتى انعدم من تُؤدّى له الصدقات، واستتب الأمن في عهده، وكانت المرأة تسافر من صقع لآخر ولا يسألها أحد أمرها، وكان من حِلمه أنه لا يَرُد طلباً ولا يفشي سراً، ويسارع في الخيرات، وعُرف عنه، قدّس سره، ورعه وتقواه، وكانت عينه لا تكف عن الدمع من خشية الله، فإذا تُلي قوله تعالى فاضت شؤونه. وتواتر عنه حبه للعلماء وتعظيمه للفقهاء وتقريبه للوجهاء. وكان لا يقطع أمراً إلا بمشورة. ويُقلّب الأمر ظهراً لبطن...»، وهلمّ جراً..

آسف، أن أذكر لك بعضاً من شعر شعراء ملوك الطوائف وأي الأمور كان سادتهم يقلبون ظهراً لبطن... وحفظت ذلك عن ظهر قلب، وإن تشائي أتلُه عليك... تريدينني أن أبوح بكل شيء لأُخرج ما بنفسي، كي أُشفى.. أليس كذلك؟ لأني حالة عرضية. أليس كذلك؟ وما ذا لو كنا كلنا حالة عرضية؟ حسناً، سأستلقي على الديوان ككُلّ المرضى العقليين.. ككُلّ المجانين. يروق لك المصطلح. أليس كذلك؟ وأنا أهزأ من ذلك سيدتي. ها أنا ذا أفعل، وإن كنت غير متيقن أنك تفهمين عني. ولسوف أحدّثك مثلما يتحدّث العرب الأقحاح. وكان ابن حصن من فحول الشعراء، وله قول جميل في جارية، صوّر شؤونها فأحسن تصويريها في صورة شعرية رائعة قل نظيرها فقال لله دره:

فتساقينا إلى أن ... جازَ جوازُ الليل عني
قمت نشوان وقامت ... في تهادٍ وتثني
ونضت عنها قميصاً ... ثم لما ضاجعتني
قلبتْ بطناً لبطن ... قلت ظهراً لبطن

فانثنيت في خجل قا ئلة عند التثني
أنا حانوت بوجهين فلُط إن شئت وازْنِ

فأصيح بعد أن أكون انتهيت من التلاوة (تلاوة القصيدة، والتلاوة في دارجتنا عرفت شأنها، شرف الله قدرك، وهي العجيزة)، لله دره من شاعر أوتي جوامع البيان وفواصل الجُمان..

وأما السميسر فهو يجهر بحبه لمن يأتيه بأير مفضال، بأير فعّال، أو مفعال، أو فعول، وهي صيغة المبالغة حسب القاعدة «في كثرة عن فاعل بديل» كما يقول ابن مالك في **ألفيته**، ممّا حُفظته صغيراً ولم يفدني في شيء كبيراً.

رجعٌ. كان السميسر يحلم بأير غليظ. أير يملأ جنبات صقعه، لا يترك ثغراً إلا ملأه، ولذلك فهو يُحَذّر من المُرْد التي حتى إن قامت أوريتهم لم تحرك ساكناً ولم تُهِج لوعة لأنها كحَلَمة الثدي... ويَكْلف بهذا الشعر العربُ الأقحاح ويتناقلوه ويتناصحون بشأنه. سمعت ذلك وحضرته في مجالس المؤانسة في الوقت الذي تصرف فيه الأمم جهدها في المختبرات والبحث العلمي. يقول السميسر ممّا يلهج به العرب الأقحاح:

أوصيك حيث النُّصح معترض
إياك والمُرْدَ وهي محتلمة
الطفل ما أصبحت أويرته
إذا استشاطت كأنها حلَمة

ولذلك فضّل السميسرُ الكبارَ ممن اكتملت أيورهم يَشفون غليله:

وإذا ما اصطفيت كهلاً صفت لي مشاربه

أتريدين المزيد؟ آسف يا دكتورة. آسف على هذا الهُجر، إنما هو هُجر لسان لا هُجر فِعال. وناقل الهُجر ليس بصاحب هُجر. حضرت فيما سلف من حياتي، الحياة التي كنت فيها كما في مغارة أفلاطون لا أرى سوى الأشباح، ليلة سمر، وجرى فيها حديث مؤثر عن شاعر يُحدث عن رفيق له صاحبَه في حياته، ولازمه شؤونه. وحدث أن مات الرفيق.. ولم يرثه الشاعر ببيت، ولا بقصيدة، بل بديوان. منتهى الوفاء. أتريدين أن تعرفي الصديق الذي أسلم الروح ورثاه الشاعر بشعر يقطر حزناً؟ إنه أيره. مات وانقضى، ولم يعد الصارمَ المسلول الذي يطعن به ويفتك.. أعذريني أن أتلو عليك بعضاً من هذا القصيد، من هذه الحضارة التي جعلت مناط النعم البطن وأسفل البطن... أحفظه، وودت أني نسيته، ولم أنسه:

إن نــــوم الأيــــر ذُلٌّ ... فــاحــذر الــذلَّ وعــاره
قــلــمــا تــهــوى الــغــوانــي ... حِــلــمَ أيْــر ووقــاره
إنــمــا يــزْهَــدن فــيــه ... حــيــن يــعــرفــن انــكــساره
ويــواظــبــن عــلــيــه ... حــيــن يــحــمــدن اختــبــاره
صرتَ كالـهـدب الـمُـدلّى ... بـعـد حُـسـن وغـضـاره
لـيـس يـحـظـى بـك يـومـاً ... زائــر عــنــد الــزيــاره
لا، ولا تــنــفــع جــارا ... قــرَّب الــحــبُّ جــواره
أيــن مــا كــنــت عــلــيــه ... مــن نــشــاط وحــراره
فــلــعــهــدي بــك دهــراً ... قــائــمــاً مــثــل الــمــناره
ســاحــبــاً ذيــل مــجــون ... بــيــن فــتــك وشــطــاره
تــركــب الــهــول وتــجــري ... فــي مــيــاديــن الــجــساره
كــل قــرن لــك يــخــشــى ... وقــعــة مــنــك وغــاره

كنت في النيك أميراً   فانقضت تلك الإماره
وخَلت منك المغاني   بعد أنسٍ وعماره

تضحكين. وأما أنا فأبكي... لأن ما ترين من تصدّع وهوان وتطاحن، هو نتاج ما تسمعين. عالم يُختزل في المتع والمؤامرات والوشايات. ويشفع لي أني خرجت من مجالس الأنس والمضافات والديوانيات والنْزاهات والمُنيات، ولو إلى مصحة المجانين. أفضّل وضعي هذا على وضع السارد أو الشاهد. شاهد الزور.

حتى المتنبي، سيدتي، لم يسلم من هذا الانجراف. كلّمته في الأمر مرة، فغضب. غضب أني ذكّرته بما يريد أن ينسى أو يخفي. قتلت جماعة رجلاً، لأسباب سياسية، يُكنّى بضبة، وسبوا امرأته وسمّوها أم الطرطبة، ففسقوا فيها وفعلوا فيها الأفاعيل، ولعلها أن تكون غليظة قد تدلّى ثدياها وقصُرت قامتها، وهو معنى الطرطبة، وهي لذلك لا تصلح أن تناك، وانتدبوا المتنبي كي يقول شعراً في هذا الحدث العظيم، فقال قصيدته العصماء:

ما أنصف القومُ ضبة   وأمُّه الطرطبة
رموا برأس أبيه   وباكَوا الأم غلْبة
فلا بمن مات فخر   ولا بمن نيك رغبة
وما عليك من العا   ر أن أمك قحبة
وما يشق على الكلـ   ـب أن يكون ابن كلبة
ما ضرها من أتاها   وإنما ضر صُلبه
ولم يَنكها ولكن   عجانُها ناك زبَّه
كل الفُعول سهام   لمريم وهي جعبة

غضب مني المتنبي، ونسي أو تناسى أن من قتله، قتله ثأراً لهذا القول الفاحش.

أتوقف سيدتي. أنضح عرقاً لهذا الابتذال، لا للكلِم، فقد أغفر الفحشاء من القول، ولا أغفر للفحشاء من السلوك. أهانت نفسٌ بشرية كي يصورها المتنبي هذا التصوير الشنيع، ويزري بامرأة تعرضت لاغتصاب جماعي، وهي، حسب المتنبي، رغم ذلك، أخسّ من أن تُغتصب؟ وهل تعلمين ما تعني باك، يبوك، نزا الحمار على الأتان. لم يقل ضاجعوها ولا حتى اغتصبوها. باكوها، أي ركبوها كما تُركب الأتان لأنها أخس من أن تُؤتى، لأن من يؤتى ولو اغتصاباً بنو البشر. ولم يضربوها في شيء لأنها كلبة، وإنما ضروا سلاحهم، أو... ولم ينفذوا فيها بـ... وإنما حطوا بعجانها وهي منطقة التماس أو No man's land ما بين القُبل والدبر.. وهي شأنها شأن الكنانة أو الجعبة تحوي السهام..

أريدَ لي سيدتي أن أكون على سَنن ابن حصن والسميسر والشاعر المِصقع، صاحب المرثية في رفيق عمره والتي تلوتها عليك آنفاً، سميراً يسامر سامرين ماجنين. يأتون ويؤتون. نسوا أو تناسوا أني حفيد لأغسطين، وأفولاي، وتروتليان... غرّهم ما رأوا من وكس حال أهلي، في الجبال والصحاري.. غرّتهم رقصاتهم البدائية، غرّهم أن لسان بني أمي لا يُكتب، ونسوا أن روحه تسكنني وهي أعمق من الظاهر. وحيث أنا، ولو في مستشفى المجانين العقلية، أو هذا الرباط الذي ربطتموني فيه لن تمر الروايات الرسمية للتاريخ المجيد المرصع بماء الذهب والتي رقمها الكتبة وصاغها

الوشاة ونقّحها الرواة وتداولها الورّاقون، ونسخها الناسخون. . . أنا لها بالمرصاد، أتربّص لكي ألقيها بوابل الحقيقة. حقيقة ما أعرف، أو حقيقة ما يُعرف وما سيعرف. كالقناص. أدعها إلى أن تلبس باذخ الثياب، وتتعطر، وتخرج كغانية تقصد عشيقها في غفلة من أهلها، تنظر ذات اليمين وذات الشمال، كي تتأكد أن لا أحد يراها. . ذهب عنها أن قناصاً يترصدها من السطح، يصوب لها فُوَهة الحقيقة. . . أسدِّد. لست مستعجلاً أن أجر الزناد. . بل ما الفائدة أن أقذف من يبحث عن حتفه بظلفه؟

آسف، لك ولغيرك، لن يثمر ربيع العرب. . . لأن أرضهم قاحلة لم تنبت مونتسكيو ولا فولتير ولا هولباخ. . سينتقلون من نظام قديم إلى نظام أقدم منه، ومن قرون وسطى إلى أخرى. . مع رتوشات بسيطة. الحاكم بأمر الله سيتكلم بمنطق الانتخابات الشفافة والنزيهة، (كمنطق طير فريد الدين العطار) والحاجب سيُحدّث عن الحكامة الجيدة، وشاعر البلاط عن التواصل، وأمين بيت المال عن عودة الاستثمار، وفقهاء السلطان عن البناء المعرفي والمتن الأيديولوجي للمجتمع الحداثي الديمقراطي، ويتوسعون في الوقت ذاته في قواعد التكفير، والسدل والقبض في الصلاة، وأيهما يجيز الإخراج عن الملة، ويصد عن الجماعة، ويعصم من الفتنة، ونواقض الوضوء، والواجب والمستحب والمندوب والمكروه والحرام، في أحكام التدبير، ومستلزمات التسيير، وواجبات الطاعة، وآخرون فيما يجيز هدر الدم. ثم جيش من الموالي أو المرتزقة، من التكنوقراطيين، والخبراء، والمتسلّقين. . . وهم لم يبرحوا العصور الوسطى ولو أنهم لبسوا قناع العصور الحديثة وكذبوا

الناس ووثقت فيهم الناس. استعانوا بالسحرة والإمّعات والمافيوزيات والبلطجية والشبيحة والمُطوعين والمْشاورية الجدد والمْسخرين الجدد، وما شابه ذلك من التنظيمات والعناصر. وساعدهم في ذلك أجهزة أمنية انتقلت من خادم إلى ربّة البيت.

الأمم التي تقدمت تعقبت الأشباح وأزاحتها. الروس. وقالوا قولتهم، من يخدم القيصر لا يخدم بلده، ومن يخدم بلده لا يخدم القيصر. انتهوا إلى هذا الأمر المسلّم به، وهي أن البلدان ليست ضيعات شخصية لحاكم أو أمير، يفعل فيها وبأهلها ما يشاء، ويورّثها أهله. للحقيقة كان المعري انتهى إلى ذلك، ومن كان يستمع إليه؟ ومن يقبل بأعمى هادياً؟ ألم يقل بشار بن برد قولته:

أعمى يقود بصيراً لا أبا لكم
لقد ضلّ من كانت العميان تهديه

وكم من العميان يهدون. هوميروس، هاميلتون، بورخيس، طه حسين.. كان ممّا قاله المعري، الأعمى الذي كان يبصر بعقله:

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعَدَوا مصالحها وهم أجراؤها

أو في هذا القول الذي يسمو على الزمن:

كم أمة لعبت بها جهّالها
فتنطّست من قبل في تعذيبها
الخوف يلجئها إلى تصديقها
والعقل يحملها على تكذيبها
وجِبِلّة الناس الفساد، وقَلَّ من
يسمو بحكمته إلى تهذيبها

ينطلق المعري من الطبيعة البشرية المجبولة على الميل إلى السهل من الأمر بل على الفساد. وينتهي إلى هزال النتاج ممن يبذلون جهدهم في تهذيبها. حقائق إنسانية انتهى إليها المعري، قبل عشرة قرون، ولم ينتهِ إليها أقوام المعري إلى الآن. يحكمهم جهّالهم، ويستخفون بهم، وتنقاد الشعوب لهم خوفاً ورعباً، ولا يُعملون العقل لفكّ الإصر الذي يجثم عليهم.

الترك. وضعوا حدّاً لنزق التاريخ، وذهبوا في التحديث أبعد مدى وأدّوا الضريبة.. العرب لا يريدون أن يؤدّوا الضريبة. لا يستطيعون، لأنهم إن قطعوا حبل السماء انقطع سؤددهم وغار تميزهم.. من أطاع ولي الأمر فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وماذا يبقى إلا أن يقلب المرء الطاولة، فيتعرض إذّاك لغضب الله... ومشكلتي أعوص من بني يعرب، لأني لست عربياً، وبُثّ في ذهني أني عربي... كالقصة الشعبية التي تحكي أن شخصاً اعتقد أنه حبة قمح، وخشي أن يخرج من بيته كي لا يلتقطه الديك... وسعى أهل الدار أن يُقنعوه أنه ليس بحبة، واقتنع بعد لأي، ولكنه لم يجرؤ أن يخرج من بيته فسألوه عن ذلك، فما كان جوابه إلا قال لهم لَأنِ اقتنعتُ (لام التوكيد من فضلك، فهي تعابير مهددة بالانقراض، كالفاء السببية) فهل الديك اقتنع... ولا أدري هنا ما الديك، أو من الديك، وما الحبة، ومن الحبة، أنا أم هم. نَسْلُ ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؟ على العرب أن يحلوا مشاكلهم الوجودية، لكي أتعقبهم تعقب المولى يتَّبع سيده، وإن لم يحلوا قضاياهم رضيت بوضعي إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً. أنتظر ما يقوله ساطع الحصري، ثم بعدها ما يمليه علي ميشيل عفلق، ثم ما يفعله ناصر وما لا يفعله أو

يُفعل به، ففتاوى القرضاوي، فصراع ديكة الجزيرة... كشخص في مقهى شعبي، يشاهد برامج التلفزيون كلها، ينتظر برنامجاً يكون فيه البطل إلى أن يُغلق المقهى... وكيف يمر في البرنامج ولم يتم تصويره أو الاعتراف به. يؤدي ثمن القهوة، وينسى عمره الضائع، ويُذكّره صاحب المقهى أن يعود عند الغد.. لا أحد امتلك الجرأة أن يكسر طاحونة الخرافات والأساطير الآتية من الشرق، لأن الشمس تبزغ من الشرق... لا أحد كي يفضح الخدعة. لأني متصارع مع ذاتي... أعفتهم حروبي الداخلية أن يبذلوا أدنى جهد من أجل أن يُروّضونني وأكتشف الحقيقة.. أنا عبد لأني مستعبد، ومستعبد لأني عبد. ولا عدو لي إلا أخي الذي يزايد علي في العبودية.

ومع كل هذه المعرفة، وهذا الإدراك، أنا الذي حسبتُني أعيش عصري، هل تحسبين سيدتي الطبيبة أني انتصرت على ساكني الأشباح، أو من سكنتهم الأشباح. هزموني شر هزيمة، هزموني لأن الأشباح كانت تسكن العقول. عقول الناس.. كالشخص الذي حسب نفسه حبة تترصده الديكة. قلت ذلك للمتنبي، قلته له بلغته ولسانه عسى أن يفهم عني، ولا يضيرني اليوم ألا يفهم عني.. أعترف أني استشهدت بأبياته التالية، وهي لَعَمري جميلة:

فلا تنلْك الليالي، إن أيديَها
إذا ضربن كسرن النبع بالغَرَب
ولا يُعِنَّ عدواً أنت قاهرُه
فإنهنّ يَصْدن الصقر بالخرَب
وربما احتسب الإنسان غايتها
وفاجأته بأمر غير محتسب

وما قضى أحد منها لبانتَه

ولا انتهى أرِب إلى أرَب

لم تفهمي قول الشاعر.. يقول الشاعر ما معناه: قد تقصم الليالي الشجرَ العظيم أو النبع، بالنبت الضعيف أو الغَرَب، ويتم اصطياد الصقر بأوهى الطير، وهو الخرب، ذكَر الحبارى.. ولا انتهى الإنسان الأريب، ونطقها المتنبي بلا ياء لضرورة الشعر كي لا يسقط الوزن، إلى ما يروم من أرب أو حاجة.. لم تفهمي؟ إذاً ابحثي في القواميس، ودعيني وشأني. أريد أن أستريح.

خرج نزلاء مصلحة المرضى النفسيين من مصحة بوسيجور إلى الساحة يتنزهون خلال العصر. كان الجو صيفياً، ولكنه معتدل وأخّاذ، كجو الرباط صيفاً. . كانت الدكتورة فنيش تتابع حالة النزلاء، تحمل كرّاسة على لوحة خشبية تنقل ملاحظاتها، وبقربها وقف الماجور مرتدياً وزرته، ينظر إلى النزلاء، وقد شبك يديه وراء ظهره، في طريقة جامدة. من يشكو الذُّهان، ويحسب نفسه المتنبي مع أعراض هلوسة، يدور بساحة الحديقة ورأسه منكّس على الأرض، كأنما يفكر في شيء. وفجأة أخذ يصدح بصوت جهوري غير عابئ بالحضور:

غيري بأكثر هذا النّاسِ ينخدعُ
إن قاتلوا جبُنوا أو حدّثوا شجُعوا
أهل الحفيظة إلاّ أن تجربهم
وفي التجارب بعد الغيّ ما يزَعُ
وما الحياة ونفسي بعدما علمتْ
أن الحياة كما تشتهي طبعُ

والـمَـشْـرفـيـةُ لا زالـت مـشـرفـيـةً
دواءُ كـل كـريـم أو هـي الـوجـع
ليت الملوك على الأقدار مُعطيةٌ
فـلـم يـكـن لـدنـيءٍ عـنـدهـا طـمَـع
فـقـد يُـظـنُّ شـجـاعـاً مـن بـه خـرَقٌ
وقـد يُـظـن جـبـانـاً مـن بـه زمـعُ
إن الـسـلاح جـمـيـع الـنـاس تـحـمـلـه
ولـيـس كـل ذوات الـمـخـلـب الـسـبـعُ

عنّت الزهرة مهرولة في اتجاه المتنبي.. ما إن رآها المتنبي حتى توقف عن الإنشاد وأخذ يجري كي يتوارى عنها.. اختبأ وراء غيضة من الشجر الكثيف. أخذت تصرخ على أثَره:

- الله يبقي الستر، الرجال ما بقاو رجال، والنسا ما بقات نسا. والخو ما يعرف خوه، واللي يغلب ابن عمو يتمو. يا لطيف. واحد ما لقى القرآن يصلي به، واحد راه يغني به. حسبي الله ونعم الوكيل. الرجل مخردل، وأنا قابلة به.. تقول واكل التُّكال، تشوفو تقول بعقلو.. وما عالمْ باللي كاين غير مولانا سبحانه وتعالى.

ظلَّ المتنبي مختبئاً وهو يستمع إلى الزهرة. الدكتورة فنيش تسجِّل أقوال المجانين من هاتفها المحمول. أما الماجور فكان يتابع المشهد دون أن يتحرك..

ابن جني يمشي في حلقة دائرية وهو يحدّث نفسه:

«فهم البنية يقتضي تفكيك تمفصلاتها، لكي نقف على التناص ومدى تداخل العناصر الممتزجة في دينامية متفاعلة، للجدلية القائمة

للدواخل، بيد أن المسح الشامل، للغور في فهم البنية يقتضي تفكيك تمفصلاتها، لكي نقف على التناص ومدى تداخل العناصر...».

يكرّر ذلك مدة فترة الاستراحة...

كافور ينشد شعر شعبي مسمّى بالرسمة. سجّلت الدكتورة فنيش أقواله:

هَمَّ الدْنيا وخُوف ربّي والغيوان بثلاثة جاروا علي

هَمّ الدنيا بغيت شلاّ لمال الياسْرة ولملاك ولغراس

خوف الله قال لي تهنا راه الدنيا تفوت لا تسحاب تدوم

تُب لسيدك ف كل سية (سيئة)

قال لنا لا تبغو عرض الشيطان

بثلاثة جاورا علي

خوف الله عاد ف وراقي رقفني من الموت م الحراق

ماذا واسيت ف حماقي غير اللاقي ودرت فعل الملاق

يا ربي لا نعود شاقي يا اللاقي لمّنا مع مول البُراق

واعفُ يا خالقي علي

واغفر ذنبي نهار يندار الميزان والملايكة يشهدوا علي

بالخير ان شاء الله، يا رب الفوقان بثلاثة جاروا علي

قاطعته الزهرة:

- شفت الله رد بك ألضراوي؟

ردّ كافور:

- لو كان رد بي، لو كان أتاني بك، وأتاك ليَّ.

- القلب وما اراد، ألضرواي.

- أنتِ تبي اللي ما يبيك، وأنا نبي اللي ما يبيني..

- أش كتقول ألخنفوس؟

- أنا نبغيك، وأنتِ ما تبغيني، وأنتِ تبغيه، وهو ما يبغيك.

ثم أخذ ينشد من نظمه:

جورك يا الزهرة ما بحالو جور،

جورك كيما العطشان،

في المياه العذبة، وراسو مغلول،

ما لو فيها رشفة ولا نقعة..

كيتو كية،

جورك ما بحالو جور..

ما ف قلبك عطفة ولا رحمة

قلت شبابي يشفع لي،

قلت زينك يعطف علي،

قلت هبالي يرفه علي

جورك ما بحالو جور.

ردّت الزهرة:

- لهلا يحي الزمان، أنا ما نعرف نرصّع كلام، وربي عالم اللي في قليبي. كبرت في طاعتو وما عصيتو، حبيت حيث الحب الله بغاه. حبيت بوعلام، حيث في قليبي كيّة، بحبو يرجع لي شبابي. نبكي على ما طاري.. نبكي على اخوتي ضاعوا في بلدان الناس. فينك يا بغداد، وفين حلب. فين المحروسة، ربي يحرسها. راها تبكي وتلالي سقيمة، تذوب كالشمعة. فين عمر المختار، فين ناسو،

فين المهدي واهل الختمة، ناس الحشمة. هذي في خاطر الخواطر، من الرباط لام درمان. لا تقولوا دّانا الزمان. وما ننساش اهل الحكمة. اهل صنعاء وعدن. واخوتي من غزة لجنين، نقول لكم ما قالوا الاولين. يا جبل ما يهزك ريح. وبلا حزة ما ينعرف المليح. فين كنا وفين صرنا. فين واد الصومام وولادو. فين ناصر واصحابو. فين شنقيط ومّاليها، محاضرها ومعانيها. فين اخوتي في البحور غروقو، لو كان كانوا بحور الغيوان، ولا بحور العرفان، ما نرد لقليبي. نبكي على زمان، اللي راس ولّى رجل، واللي رجل راه يتبختر. ردتوني مجلية، ما تعرف ما جاري. كنبكي على اللي صاري. أش قضى نعرف إلا الزمان انقلب. الحليب انحلب، والحلم انسلب. اللي فاهم ما بقى فاهم، واللي ما فاهم هو الفاهم. اش قضى نعرف، حيث رزقنا مشى، كلاوهم العساسة، وارمونا في سوق النْخاسة. . مهبولة، وبغيت نبرا، ونبرا بحب بوعلام، مول الهمة والشان.

ردّ كافور:

- بوعلام ما مسوّق لك، وأنت ما تعرفي كلامو.
- نحس بقولو، وروحو ساكنة قليبي.
- شوفيه يدور كالمهبول..
- هذا زمان يا لطيف، كل شي انقلب...

كان المتنبي يدور وحيداً وهو يصدح بصوت مرتفع:

لا افتخارٌ إلا لمن لا يُضامُ
مدركٍ أو محاربٍ لا ينامُ
ليس عزماً ما مرّض المرءُ فيه
ليس همّاً ما عاق عنه الظلام

واحــتــمــال الأذى ورؤيــة جــانــيـ
ـه غِـذاء تَـضـوي بـه الأجـسـام
ذَلّ مـن يـغـبـط الـذلـيـلَ بـعـيـش
رُبّ عـيـش أخـف مـنـه الـحِـمـام
كـل حِـلـم أتـى بـغـيـر اقـتـدار
حُـجّـةٌ لاجـئ إلـيـهـا الـلـئـام
مـن يـهـنْ يـسـهـلِ الـهـوان عـلـيـه
مـا لـجـرحٍ بـمـيّـت إيـلام

نظرت الزهرة إلى المتنبي بأسى. مسحت دمعة من عينها، ثم قالت بعدها:

- شفّيتيني، وشفوني أخوتي. سر يا بوعلام الله يكون منك اللي كاينة واللي تكون..

ردّ عليها كافور:

- عرفت أش قال؟ ذوك اللي بيت (بغيتي) تفيّقي من رقادهم ماتوا. قتلهم الذل. ما بقى غير الجسدة. وإما الروح، مشات عند الله. بّاحْ.

استرجعت الزهرة حزمها وقالت في حدّة لكافور:

- إشويني فيك ألضرواي، وعلاش حنا في هذا الرباط إلا ما نحييو ش الروح. الروح عزيزة عند مولانا.

كانت الدكتورة فنيش تتابع حديث النزلاء وتسجِّل في دقّة ما كان يدور خلال النزهة.

دكتورة، لماذا يحققنني الماجور كل مرة تريدينني أن أنفث ما في صدري؟ هل لتُخدَع قواي العقلية وتُخدّر عناصر الوعي مني؟ وهل أحتاج إلى تنويم كي أبوح بكل ما يضيق به صدري؟ ما تريدينني أن أقوله لك؟ ليس هناك ما أخفيه، وليس هناك أمر أخشاه. وهل كل ما قد أُسِرّ به ذو بال لمن لا يبصر ولا يسمع ولا يعي؟ أنت مصرّة على أن أسرد كل شيء.. تلحّين وتلجّين. سأفعل لأزجي الوقت. أتت قرينتي من سفرها، وفوجئت أن وجدت عندي ضيفاً. كيف أشرح لها أن المتنبي حلَّ بظهرانينا.. درست الطب، ودرست بالفرنسية، ولا تعرف العربية ولا تاريخ العرب ولا ثقافة العرب... كان ينبغي بصفتها من أسرة عريقة، ومن العِلية، أن تدرس بالفرنسية، وتدرس دراسة علمية، أما اللغة العربية فشأن الرعاع. مثلي. ولكن الحياة نزقة لا تخضع دوماً للقوالب التي يضعها الناس ويتواضعون بشأنها.. ليست ميكانيكية وهذا الذي لم ينتبه إليه ماركس، وانتبه إليه غرامشي..

غضبتْ وهربتْ، واختفت. بحثت عنها أرجاء الدنيا. عادت، وليتها لم تعد.

تحسبينني أني تلبّست شبح المتنبي أو تلبّسني، أو بتعبيرك الطبي، أنا مصاب بالذُّهان مع أعراض هلوسة وهذر.. قولي ما شئت واكتبي ما شئت. أنا أعرف أن المتنبي حلّ ببيتي وانتهى به الأمر أن أخذ حليلتي... حليلتي سليلة الأندلس... تريدين أن أصورها لك كما يفعل العرب، بخدها الأسيل، وقوامها الجميل وحَوَر عينيها النجلاوين كالجآذر. وما الجآذر؟ هي المها. وما المها؟ هي الريم، وما الريم؟ هي الظبي. وما الظبي، هي الغزال... بالله عليك، كم من المتعلمين يعرفون هذه الكلمات، وقد يعرفونها ولا يعرفون بالضرورة ما تحيل إليه، وهو لعَمري من الآفات الكبرى للثقافة العربية. كانت ليلى جميلة، وأجمل ما فيها حياتها، وهذا الذي يهمني. وهكذا أرى الجمال. الحياة مغامرة، وجمالها في ركوبها. تلك فلسفتها في الحياة. وذلك هو جمالها الذي يعفيك من هذه الفروق المملة ما بين الجآذر والظبي والمها والريم وما إلى ذلك. والمتنبي، قُتل ما أكفره به، أدرك طبيعة جمالها. درست ليلي الطب، وبعدها رحلت إلى باريس للتخصص والتقت مَن سيصبح قرينها: روبيرتو. إيطالي. كان مهندساً معمارياً. عاشا بباريس. لم تكن في حاجة إلى عقد زواج، لأنها أسمى من المواضعات، ولم تكن في حاجة إلى أن تخاتل فيعتنق قرينها الإسلام، صورياً طبعاً، كي تتزوج به على سُنّة الله ورسوله، لأنها كانت تؤمن بالإنسان، وتؤمن بالحب. وحينما كف الحب بين ليلي وروبرتو افترقا... أثمر اقترانهما ولداً، فابيوس أو سامي.. اسم مركّب. فابيوس أو سامي هو في نحو من الأنحاء ابني... زهرة هذا الحياة... نشأ فابيوس مع أمه ليلي. وحين ارتبطتُ بليلي،

أصبحت له أباً. . . لم يكن أن نناديه بفابويس وأنا اسمي ما تعرفين، وما لا تعرفين، وأمه ليلي. كيف نشرح ذلك للمجتمع، وكيف يقبل المجتمع منا ذلك، فاتفقنا على سامي. . قلت لك قصتي معقّدة، وقد لا تستطيعين أن تفكي خبلها. . . لأني كنت متزوجاً من ذي قبل وأباً لبنت، ثم طالقاً. . . لن أتحدث عن هذا الجانب كي لا تختلط عليك الأمور. . . كانت الأمور معقدة بما فيه الكفاية. نسافر لثلاثتنا، وأفصح في مكتب الاستقبال بالفندق أو بالمطار أن فابيوس، عفواً سامي، ابني، فابيوس جيوفاني وأبوه أنا، بأوراق ثبوتية ووثيقة سفر تكتب من اليمين إلى الشمال. . ويزيد تعقيداً أنني لم أكن أستطيع أن أسافر إلى أوروبا بلا تأشيرة، أما ليلي فقد كانت جنسيتها الفرنسية تعفيها من ذلك، وفابيوس تعفيه جنسيته الإيطالية والفرنسية من التأشيرات، وكليهما من الممرات الطويلة التي يتكوّف فيها العرب مثلي (لأني بالنسبة إلى الغربيين عربي)، ويتكوف الأفارقة، وكل الثالثيين. من سيفهم أننا أسرة؟ قصارى ما قد ينتهي إليه محدّثي أن يعلنوني بأني مجنون مثلما فعلتم أنتم هنا في مصحة بوسيجور، أو رباطكم هذا الجميل. . . مقام جميل حقاً. . مشرف على نهر أبي رقراق، مشرئب لصومعة حسان، يحرسه الأمن، بمعنى يراقبه. . . لا يمكن أن نجد مكاناً أجمل كي تحكمون قبضتكم عليّ ولكي تزعمون بأني تحت الرعاية الكريمة والعناية المستفيضة، لما هو في حقيقة الأمر اعتقال. لم أغيّر المجتمع إلا أن المجتمع غيّرني. تمَّ إلحاق فابيوس بي. قانونياً. كنت أعتقد أن الجانب الوجداني يكفي. . . قمنا بعملية غش تواطأنا حولها جميعنا، أنا وأمه والإدارة. . . . تصوري لو أني أقع على شهادة تجعلني سليل

الدوحة الشريفة، فسينتهي الأمر بأن يكون فابيوس ونسله من النسب الشريف، ويُنطق اسمه تبعاً لذلك، مولاي فابيوس. . . ستقولين إنني غششت وألحقت فابَيوس؟ أليس هناك احتمالات غش، أو عقابيل نزوات البشرية، لملايين البشر على مدار أربعة عشرة قرناً في فضاء يشمل نصف الكرة الأرضية؟. . تريدين أن تعالجيني، لأنني مجنون، وأحرى بك أن تعالجي مجتمعاً موبوءاً وثقافة مجنونة وحضارة أصابها الصرع. عالم لا يميّز بين الثقافة والحضارة. الثقافة بنية ستاتيكية، والحضارة تصوّر للعالم. الثقافة تبعث على الراحة، ومن ثمة تنبني على الوثوقية، والحضارة تدعو للحركة، ودعامتها القلق وباعثها الشك. أو إن شئت هي مجاهدة ومغامرة. وقد تتزيّا بأزياء فاقعة مُخضبة بالدم، من فتح أو مهمة تمدينية. الثقافة وفاء لماضٍ، والحضارة تطلع للمستقل. وبنو يعرب، وبالتبعية بنو مازغ، لا يميزون بين الأمرين. الانفصام حيثما حللت، والذُّهان حيثما ارتحلت. الهلوسة إشراق أو كشف أو مشاهدة أو رؤيا. . بالألف من فضلك، لأن مُنظّري العروبة يخلطون الرؤيا والرؤية. لا غضاضة، لأنهم يؤمنون بالعروبة وهذا يكفي. . . والرؤيا تعفي من الرؤية. وهم عهدوا إلي أن أحفظ ذاكرتهم وأصون لغتهم. لله درّهم على هذه المكْرُمة. تصوري قبيلاً يعهدون لمغفّل مثلي أن يتعهّد أمهم العجوز وقد أصابها الخرف وأثقلَ عليها الوهن واستبد بها الجنون، فيمسح لعابها، ويصطبر على هذيانها، ويحملها لقضاء حاجتها، فيما هم قد نفروا يغازلون الغواني الحسان. فإذا أنا عبّرتُ عن تأففي، صرخوا في وجهي وبثوا وراء ظهري أني عاق كنود. قسمة ضيزي، دكتورة. ولِم لا أتعهد أمي وليس بأمي عجز ولا هوان. . . أذكر

فقيهاً علّمني اللغة العربية، خريج جامعة القرويين، كان يعهد لي بدور السارد قبل أن يبدأ الدرس. أوكل لي أن أصون لسان العرب، فأسمعه يُصوّب من لساني، ويُهذّب قولي، وأنتقل معه من قواعد اللغة للغلاييني إلى شرح ابن عقيل لـ **ألفية** مالك، إلى **النحو الواضح** لعلي الجارم، إلى **ميزان الذهب** لأحمد الهاشمي في قواعد العروض، **وشرح المعلقات** للتبريزي، وأستاذي يفيض علي بالإطراء بـ «أصلحك الله، وبورك فيك، وتربت يداك، ولله درك..». أستاذي، نور الله ترتبه وغفر له، فهم ما ينبغي أن يُفهم بأن أسند لي أن أحفظ لسان الضاد، وعهد لبنيه أن يتقنوا لسان العصر وعلومه، ذلك أنه وضع أبناءه في البعثة الفرنسية... والتقيتهم في مسار حياتي ومهامها سادة يُمسكون أعنة الحُكم والتدبير.. وأنا أمسك رأس القاعدة النحوية «كلامنا لفظ مفيد كاستقم...» وذيل الحياة..

وتَحْدث من بعض الأمور أمور، كما يقول المناطقة. والذي حدث هو أن فابيوس من ألحقني بأجداده فصرت منهم. عوض أن يصبح فرعاً من الدوحة الشريفة، أضحيت أنا نسلاً من التراث الإغريقي الروماني. بدأت الأمور في حديثنا وهو بعدُ تلميذ في الثانوي، عن النهضة الأوروبية، والجذور الإغريقية الرومانية للانبعاث الأوروبي.. وكانت مناسبةً أن أعيد قراءة ذلك التراث. وبعد الباكالوريا ارتحل فابيوس إلى باريس لدراسة الأدب اللاتيني، فأخذت أقرأ معه حين يحل فرجيل وجوفينال إلى أن قرر أن يُحضّر رسالته عن سينيك... ولم أفهم لمَ اختار سينيك. وهل لأن أصول سينيك قرطبية وفاء لأمه الأندلسية، وهل لأنه خدم الدولة، كما أبوه بالتبني، محدّثك المجنون، وهل لأن سينيك نصح لنيرون ثم انفصل

عنه، قبل أن يصبح نيرون نيرون؟ لا أدري. إلا أني ألفيت متعة ووجدت فائدة في أن أقرأ كتيباً لسينيك عن الحياة السعيدة. لا يمكن أن تقوم السعادة من دون انفصال عمّا يوثقها. ومن أسوأ الأغلال المانعة لبلوغها الاستبداد. وكان سينيك يراه رئي العين مجسّداً في هذا الفتى الخجول والذي تحول إلى طاغية يقتل ويدمر. قرأنا سوياً، أنا وفابيوس، مسرحية **بريتانيكوس** لراسين عن نيرون وقد امتدت يده لأخيه بريتانيكوس. يا لها من متعة ذهنية متأتية من تحليل للنفس البشرية وأعماقها لا مكان فيها للميتافيزيقا ونزقها، ولا للخرافة وهذيانها، ولا للهيام بالبيان على حساب المعاني.

كنت أدخل بيتاً مُرتّباً وأنا أقرأ سينيك. بيتاً يُحدّث عقلي.. كنت من دون شكّ سأكسب لو كنت أعرف اللاتينية كي أقف على جمال اللغة، ولكن الترجمة لم تكن حاجزاً كي أبلغ عمق الفكرة... حاولي أن تفعلي الشيء ذاته مع أساطين العربية. أن تترجمي الجاحظ إلى الفرنسية. وهل نستطيع أن ننقل **البيان والتبيين**، أو **رسالة التربيع والتدوير** إلى لغات أجنبية. مستحيل. أو دون ذلك خرط القتاد بلغة بني يعرب. ربما مع **البخلاء** بجهد جهيد. حاولي مع **الإشارات الإلهية** لأبي حيان التوحيدي، أو حتى **رسالة الغفران** للمعري... نصوص تنبني على الجمال اللفظي، من جناس وسجع وطباق ومقابلة، فيزري ذلك بالمعنى.

العالم السامي مُتعب، ولذلك وجدت شعوب كثيرة العَنت في فهم خطابها، ولأنها لم تدرك روحها أساءت فهم كلامها. ابن الله، وكلام الله، وخليل الله، وروح الله، وكلِم الله، ومحيي الموتى، ومن يكلّم الناس في المهد صبياً، وألواح الله سطرها يهوه بقلمه...

فهمتها الشعوب الآرية على علّاتها، وانتهى الأمر بأصحابها من الساميين أن تلقفوا الأمر على علّاته لأنهم وجدوا في الأمر ضالتهم... شعوب الدنيا تكلّم الله وترقى إليه، والشعوب السامية يكلّمها الله ويتنزل لها، عزّ جلاله، أو يَنزل كلامه إليها ويُنزّل أو يتنزل، ولا أدري الفرق بينها، ويخط ألواحه لها. ولم يبرأ العالم من هذه العلّة، أو اللعنة. من نزوع أصحابها التبشيري، وجعلهم خير أمة للناس، أو شعب الله المختار. المسيحية أنقذت نفسها من خلال التراث الإغريقي... ولي بعض الفضل في ذلك... أعني لجدي أغسطين بعض الفضل.. لأنه تمثل شيشرون والأفلاطونية الجديدة. لقّحها بالعقلانية.

العالم السامي مريح للكسالى. مريح لمن يأبى أن يُعمل عقله أو لا يستطيع... والعالم الحديث آري، أو إن تشائين إغريقي... لست أعني بالآري عرقاً. يكفي ما لدي من مشاكل كي تضاف إلي تهمة معاداة السامية وإنما تصوّراً للعالم، وهو عالم أُرسيت قواعده في **المدينة الفاضلة** التي تترجم خطأ إلى الجمهورية، لأفلاطون، حيث الاستنتاج العقلي أو التوليد، وفي **علم الأخلاق إلى نيقوماخوس** لأرسطو، وقواعد التحليل البارد التي أرساها في هذا المتن... وطبعاً فلسفة شيشرون عن الدولة أو الشيء العام، وبه ترجم المدينة الفاضلة، وفي دورات التاريخ، ممّا انتهى إلينا بعض من أريجه مع ابن خلدون. الأمور الأخرى فرع منها، **مدينة الله** لأغسطين **والمواطن** لهوبز. وتلك أمهات كتب الحداثة السياسية سيدتي، وهي تعفيك من أدبيات أخلاق الملوك، والنصيحة، والأحكام السلطانية.

ابن خلدون لم يكن يطرح مشكلاً علي. كان حامضه النووي

بالنسبة إلي ينتهي إلى الإغريق. أعني الفكري. لك ولكم ولكُنّ أن تلحقوه بحضر موت وبكندة وهوزان وما شئتم من بطون العرب. لا يهمني ذلك. بنيته الذهنية إغريقية، مثله مثل ابن رشد، مثل ابن باجة. تجدين صلة قرابة ما بين دورة الحكم عند أرسطو، ونظرية الحلقات عند بوليب، وأطوار الدولة عند ابن خلدون. الحضارة الأندلسية عربية اللسان، رومية الجسد، إغريقية الذهن. تفكر عقلانياً وتنطق بلسان العرب. كما الجاحظ. كما ابن مسكويه. بنية ذهنية عقلانية، تعبِّر عن ذاتها بلسان العرب. كان يمكن أن أتخذ الجاحظ صاحباً. ولكن للشعر صولة ليست للنثر. فهؤلاء الذين صاغوا وجدان الأمم شعراء، أمثال هوميروس، ودانتي، وشكسبير... وكان يمكن أن أتخذ المعري صاحباً، فهو شاعر، وهو أعلن على رؤوس الأشهاد أن لا إمام سوى العقل، ويروقني منه ذلك.. ولكني فضّلت المتنبي. لشعره، وحياته. المعري راهب، والمتنبي مهووس بالفعل. تمرّس بالسياسة واكتوى بلهيبها، ونسغ الفكر من الفعل، من السياسة وضروبها، ولو تولّى المرء منها بخيبة. كما أفلاطون، كما شيشرون، كما ابن خلدون، كما ماكيافيلي. أحترم الرهبان، ولكن سبيلهم غير سبيلي. لذلك أحببت المتنبي. حسبت أنه سيكسر لعنة العالم السامي. على الأقل لدى بني جلدته. وقد سبق لي أن حكيت لك عن سفره إلى عهد الإغريق ومجالسته لأرسطوطاليس والإسكندر وهزئه من عالم الأعراب وبطولات الأعراب، مثلما هزأ منها نزار قباني في هذه القصيدة الرائعة «هوامش على دفتر النكسة»..

خُلاصة القضية،

توجز في عبارة:

لقد لبسنا قشرة الحضارة

والروح جاهلية . . .

لم أكن أتوقع ما كان يبيّته المتنبي . . . كنت أظنه سيقوم بما قام به المسيحيون حينما لقّحوا الميراث السامي بمصل الحضارة الإغريقية، وما قام به مفكّرو اليهود من الارتباط بالعقلانية، ممّا يسمونه هاصقالة، ثم مع أنبيائهم الجدد من ماركس وأينشتاين وفرويد وتروتسكي . . لاحَ الفرج. يا لبشراي. أنعموا يا بني يعرب . . . الفرج على يد مالئ الدنيا وشاغل الناس . . سيبرّئكم من الخرافة والوعي الزائف والخنوع، ويربطكم والقوة. وبلسانكم. ولست أدري من ألوم، أهو، أم مجتمعه الذي فرض عليه التكسب . . أم ذووه الذين لا يعيشون إلا على الإغارة، والجنس، والتوهمات والأساطير والسياط؟ لم يعودوا يحسنون لغتهم، ولا بهم رغبة في أن ينهضوا بها، ولا أن يبذلوا الجهد من أجل ذلك، ولا أن يفكوا إصر الاستبداد، ولا أن يتخذوا السبيل لذلك وما يفترضه الأمر من جهد وتضحية.

حين ذهب فابيوس إلى باريس، سرى الملل ما بيني وبين ليلي، وأي الأزواج يسلم منه؟ وحينما عادت زوجي من سفرها إلى البيت ألْفت المتنبي . . أضحكها ما وجدت . . . وراقني أنه بعث منها السرور . . . وخرجنا ثلاثتنا للعشاء . . لم يتكلم المتنبي أثناء العشاء. كان الحديث بيني وبين ليلي باللغة الفرنسية . . . والوغد كان يسعى أن يحدّثها بلغة عينيه ولحظه الثاقب وبالإشارات الموحية. ضبطتهما ينظران إلى بعضهما البعض. ولم أقدّر تبعات ذلك. نامت ليلي في حضني . . وسكنتها. بعد هجران.

ذهبت بعدها أحاضر حول الأنوار في أماكن مُعتّمة. أنتقل من

مكان إلى مكان، أحدّث عن كانط، وهولباخ، وفولتير، بل عن توماس بين. كنت قد وقعت على كتاب له غير ذائع الصيت: *Common sense*. . والغريب أنني اكتشفت أن الحس العام، أو الفطرة، أو العقل، لأن ليس هناك كلمة تؤدّي معنى الكلمة الإنجليزية ومقابلها الفرنسي، لأن Common sense أو Le bon sens غير موجود في عالم بني يعرب. يقول توماس بين إن الديمقراطية لا تستقيم والحكم المطلق. منتهى المنطق. ويقول لك بنو يعرب إنهم يستطيعون أن يزاوجوا ما بين الديمقراطية والحكم المطلق، بل هم أصحاب الديمقراطية الحق. وعبث أن تجادل في ذلك. بل هو خطر كل الخطر. فقد تنتهي إلى السجن، أو تصيبك فاقرة، أو ما لا تدري من البلايا والبلوى. وكنت اتخذت كتاباً لإرنست كاسيرر عن فلسفة الأنوار مرجعاً. حاولت في أدب جمّ أن أحيل إلى هذه اللحظة المهمة التي اعتملت في الغرب وهي النهضة، وحاولت أن أذكّر في رفق أن النهضة مصاحبة للإصلاح، وليس الإصلاح ما تواتر عندنا من تقويم فعل، بل الإصلاح، في تاريخ الغرب، هو تقويم الفكر، وذكرت أن مدار الإصلاح الديني هو الإقرار بمسؤولية الإنسان. لا قدر ولا قضاء. لا مكتوب ولا قسمة. ولا خطيئة أصلية.

كنت قرأت نتفاً من إصلاح لوثر ونهوضه ضدّ الخطيئة الأصلية، وجعله الإنسان مسؤولاً عن أفعاله. أي أنه ينتقل من الإنسان إلى الله، يعرج إليه، ويخبت له، وهو الأمر الصحّي في كل دين، أو غير دين، أما الانتقال من الله إلى الإنسان، فلا تُؤمَن يا سيدتي غوائله. . . الحروب المقدّسة، ومحاكم التفتيش، والحسبة، والفريضة الغائبة، وهلمّ جراً. .

كان ممّا استهواني في كتاب إرنيست كاسيرر، هو الذهنية الهندسية التي استقاها من عند باسكال. . وكنت أعرف حدساً أن الذهنية العربية، أو فلنقل السامية، جَبْرية، تعتمد الاستنباط. وكنت أحب أن أؤمن أن الأندلس جمعت الحُسنَين، الذهنية الهندسية والجبرية. وكيف لجمال بنائها أن يستقيم من دون ذهنية هندسية، وذهنية جبرية، تأتت لها من لغة الضاد. . كل شيء لوغاريتم. ظاهر وباطن. بسط وقبض. إسراء ومعراج. . وقد يكون من الهلوسة والهذيان اللذين اعتراني أن أسبغ على بني يعرب ما هم غير قادرين عليه. فالجبر آري، يا سيدتي، والخوارزمي آري، وعلم الهندسة من الهندوس كما يدل على ذلك اسمها. . ومن النصْب الكبير الزعم بأن الجبر والصفر من صنع العرب. ولقد قال ابن خلدون بذلك، في مقدمته، وكان يمكن أن تكون مقدمة، ولكنها مقدمة وخاتمة.

توسعت مرة في حديث، وقلت إننا لن نستهدي بهدي الأنوار ما لم نُقِم إصلاحاً دينياً. ولا أدري ما دهاني حين قلت إن هذا الإصلاح لم يقم بعد. وقامت القيامة ضدّي في مجلس، فلم أجد بدّاً من الاستشهاد بحديث، ولا أدري مدى قوته أو ضعفه: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة عام من يجدِّد لها دينها»، ثم شفعت بالقول: «وفي رواية أخرى، من يجدد لها أمر دينها»، فوثق بي القوم وآنسوا بي، ودعوا لي بالهداية، والنجاة من الغواية والفوز في الآخرة، وغفروا لي زلتي وتجاوزوا عن حوبتي، وأخذني شيخ من حجزتي وأفاض علي من النصح، وأسبل علي من النصيحة ما أخجلني، وأهاب بي أن أسرد كم كذا من دعاء كذا، وأشفعها بالابتهال فالتوسل، فهي كلها تزيح الشيطان. . .

والحقيقة أنني كنت أريد الفوز لي ولبني جلدتي في الحياة الدنيا أولاً. ولم أكن أريد أن أزيح الشيطان من عالمي. فأنا محتاج إلى العراك معه حين يسعى أن يستغويني. وأي لذة أن أكسب نزالاً لا عراك فيه، أهزمه وقد سلبه الدعاء السلاح؟ فقوة المعركة من قوة الخصم، وأهمية الانتصار من ضراوة النزال. ولا بأس أن يهزمني مرة. والشيطان يدفعني لإعمال العقل، وأي بأس أن أُعمل عقلي. وهو يستثير غريزتي، وأي حياة إن محقت غريزتي أو طمستها؟ ويمكن أن أجري تطابقاً ما بين غريزتي التي تدعوني للحياة، والعقل الذي يدعوني للفهم، والضمير الذي يدعوني للأخلاق، فهذه لا تنفي تلك... وقد وعدت الشيخ خيراً بالمواظبة على الأدعية قبل الفجر، وبعد الفجر، ودعاء الضحى، وقبل غروب الشمس، وبعد غروبها، وعند الإسحار، وعند الإقبال وعند الإدبار، وحين الاضطجاع، وحين المضاجعة... وقول كذا قبل الأكل، وأثناء الأكل وبعد الأكل.. ولم أفعل، لأني خشيت أن تُطرد الشياطين، وكنت حريصاً على التطبيع معها.

لم أستطع أن أشرح لأي ممن كانوا يحجّون ليُزجوا الوقت فيما كنت ألقيه، أن دراستي للأنوار الغربية ليس بهدف التاريخ، فقصص **ألف ليلة وليلة** وسيرة بني هلال وسيف بن ذي يزن، أمتع من قراءة **العقد الاجتماعي** لروسو، أو **تاريخ لويس الرابع عشر** لفولتير، أو **روح القوانين** لمونتسكيو.. فلا معنى لأن أقرأ قصة «الغرير» لفولتير إن لم أقرأ واقعي أدحض فيه الدعاوى العتيقة ولم أحلل بنية الخطاب الديني. ولا معنى أن أقرأ **رسائل فارسية** لمونتسكيو إن لم أفكك بنية الفعل السياسي عند بني يعرب، وما تواتر من قول بني شيخان، ومتن

بن قحطان، وسيرة بني غلمان. . . ولِم لا الروض العاطر في سيرة الأمير الساهر، أفضحها، أو أجلّي مخافي السيرة العطرة والمسالك النيرة للحضرة المنيفة من ارتقى في مدارج الجندية، الضابط المأمور، والجندي المغمور، دون أن يكسب معركة واحدة إلا ضدّ شعبه، وضابط المخابرات الذي زكا رصيده البنكي دون أن يواكب، بحمد الله ومنّه، رصيده الذهني.

كنت كالأبله أسرد فصول معركة الأنوار التي حررت العقل والجسد من الخرافة، ومن الموانع الدينية والسياسية والمجتمعية والثقافية، وأرست متناً جديداً هو حقوق الإنسان وكرامته، ممّا يمليه العقل والضمير كليهما، لقوم أنِسوا بدياجيرهم ولا يريدون أن يخرجوا منها. يجدون في الظلمة متعة الأعمى في الظلام. وما مدار الأديان سوى كرامة الإنسان؟ فإذا أخلفت في ذلك، أو أخلف من يتكلم باسمها، فما يمنع أن ننظر فيها أو في من يتكلم باسمها. .

شخصان، سيدتي، ولا أرى ثالثاً لهما في عالم السُّنّة، قاما بما أسميه إرهاصَ إصلاح ديني، محمد عبده، من خلال كتابه **رسالة التوحيد** خاصة، ورؤيته المتحررة للنص، وعلي عبد الرزاق في كتابه **الإسلام وأصول الحكم**، وتمييزه ما بين الدين والسياسة. وما عدا هذا فصُور كربون باهتة.

أُجهز على الأول، وأُعلن الثاني كافراً. والفضل في كل هذا لصاحب المنار الذي أجهز على الأنوار، رشيد رضا. كل ما ترين، من حسن البنّا حتى أبي بكر البغدادي أبناء بررة لرشيد رضا. حتى فكرة الموصل موضعاً للخلافة، تعود لرشيد رضا.

دعيني والإسلام الشيعي. لماذا تلحّين؟ هو متقدم على الإسلام

السنّي. . وأتيح لي أن أدرس فكر علي شريعتي وقبله كاشاني ومطهري. . أجرت الرافضة، بلغة أهل السنّة، إصلاحها الديني. وفّقت ما بين الإنسان والله. وهو ما لا تجدينه عند السنّة. أو لأقولنّ إن شيعة العجم أجرت إصلاحها الديني. فالعرب بقدر قربهم من النصّ، بقدر بُعدهم من روحه، والعجم، بقدر بُعدهم من النص، بقدر قربهم من روحه. قلت قولاً شبيهاً بهذا في شبابي. ولم أذهب أبعد لكشف سبب ذلك. كنت حينها في مغارة السلطة، ولم أكن نفضت الأغلال كي أنسلخ من الظلام، فأرى ماهية الأشياء لا الأشباح.

عدت إلي بيتي بعد طواف وأنا أحمل ذبالة الأنوار، ولم يكن المتنبي يسكنه فحسب، بل تسلل في غفلة مني ليسكن قلب ليلي. والأدهى جسد ليلي. . مؤلم أن يخونك من أتمنته على بيتك، فيسلبك أعز ما لديك، ويثلم كرامتك ويمرّغك في الرغام. . . عدت إلى بيتي ووجدت ليلي نافرة.

- Voudrais-tu chercher du pain, chéri?

التمست مني، وخرجت كالأبله أبحث عن الخبز. . . وعدت من دون أن أضغط على الجرس. فتحت الباب بالمفتاح من غير صخب. . ووجدت ليلي ترقص التانغو مع المتنبي. أي نعم، رأيتهما بأم عيني. . رأيتهما وسمعتها من خلل باب الصالون، وهي تتهادى على أنغام موسيقى أرجنتينية، وهو يتلو عليها قصيده:

يا نظرةً نفت الرقادَ وغادرت
في حد قلبي ما حييت فلولا
كانت من الكحلاء سؤلي إنما
أجلي تمثل في فؤادي سولا

أجد الجفاء على سواك مروءةً

والصبر إلا في نواك جميلا

وأرى تدللك الكثير محبّباً

وأرى قليل تدلُّل مملولا

حدق الحسان من الغواني هجن لي

يوم الفراق صبابة وغليلا

لم أطق صبراً. ضعي نفسك مكاني. فتحت باب الصالون بقوة كي أثير ضجة.. ألطّخ سمعة المتنبي. أمرّغه في الوحل. أفضحه وأصرخ إلى أن يسمعني الملأ... وحتى ليلي لن أوفّرها... تبعثني كي أشتري الخبز ليخلو لها الجو مع المتنبي، كي يتلو عليها نسيبه ويستغويها بشِعره، كما استغوى أقواماً عديدين هو من ليس له قلب يرق... وهل مثله يرِق؟ لسوف أفضحه. سأخبرها ما فعله بعبده وقد فرَّ من مصر.. قتله وفخر بذلك.. أليس يحق فيه قوله:

وإذا ما خلا الجبان بأرض

طلب الطعن وحده والنزالا

لن تصدقيني دكتورة. لأني في عرفك، وفي عرفكم مجنون... بل معتوه. لأني لا أساير ما دأبتم عليه؟ لأني أسكن التاريخ، ولأن التاريخ يسكنني. لأنني أكلِّم الموتى، والموتى تكلمني؟ وهبْ أني مجنون، ألن تكسبوا أن ينبري واحد منك يكلم الموتى؟ يجلس إلى المتنبي ويجالسه، ويتواصل مع ابن خلدون، ويسامر ابن رشد، ويرتبط بقرابة مع أغسطين، فيخبركم شؤونهم... ها هم يُقرؤونكم السلام، أو يسألون عنكم، يستطلعون أحوالكم ويستقصون

أخباركم. ابن خلدون غاضب منكم لأنكم لا تسألون عنه، وابن رشد يَعدكم أنه سيعود بعد غيبة، وابن باجة يتعافى من مرض ألمّ به، ألزمه بطون المكتبات، فهو عن قريب سيخرج منها ليعانق فضاء الحياة. وأكتب في حسابي على تويتر أني أكلت سمك المسقوف مع الجاحظ على جنبات دجلة، وهو يعتزم أن يُخرج **رسالة التربيع والتدوير** فيلماً، بعد نجاح مسرحية **البخلاء**، وقد تكللت العملية الجراحية التي أجراها على حدقة عينيه بالنجاح، وأني التقيت بأبي حيان التوحيدي بباريس أثناء تقديمه لمسرحيته **الإمتاع والمؤانسة** بالأوبرا، وهو سعيد بالحفاوة التي لقيها من الجمهور الفرنسي. أو أنقل بعضاً من أموركم لأجدادكم، فأخبر أغسطين أن أهله في تيبازا وأزرو يسألون عنه، وأن فتية من أكادير أقاموا مأتماً في ذكر أبوليوس برّاً بجدهم... لا تريدون صلة وصل مع ذاكرتكم. ومَن يقوى على هذا الدور سوى المجانين؟ أحياء كأموات، وموتى كأحياء. وكيف تصاغ الأحلام بمعزل عن الذكرى؟ وكيف تقوم الأفكار إن لم تنسلخ عن الأحلام؟ وكيف تنسلخ عنها من غير جنون. من غير ألم. من غير معاناة. من غير انكسار. من غير قطيعة. ضبطت المتنبي. ضبطته متلبّساً. فتحت الباب... ووجدت ليلي جالسة على الصوفا تقرأ أو تتظاهر بالقراءة، كأنها لم تكن ترقص التانغو من قبل...

- لماذا ترقصين التانغو مع غريب يا ليلي؟..
- عزيزي، لا أرقص التانغو.
- وتكذبين. لقد رأيتكما.. إني رأيتكما. لا تكذبي..

ألا تحبين دكتورة موسيقى محمد عبد الوهاب؟ كنت أحبها، ولا أدري أيحق لي منذ الآن أن أحبها. صرخت ملء فمي:

- المتنبي رعديد. أنا أعرَف به منك... حذار يا ليلي.. حذار من المتنبي ومن العرب عموماً. قوتهم في خطابتهم.

- لا أدري عما تتحدث يا عزيزي.

أنكرت كل شيء. وتبخّرت الحجة لأن المتنبي انفلت. بحثت عنه تحت الطاولة، وراء الستائر، وراء الباب. انفلت الوغد.

- أين اختبأ الأفّاك.. اسمعي يا ليلي. لم أعد قادراً على التغاضي عن تحرشات المتنبي.. أين أخفيته يا ليلي. سأنادي على البوليس، بل الأنتربول..

- اختلطت عليك الأمور يا عزيزي؟

أنكرت كل شيء... رغم أني رأيتها ترقص التانغو مع المتنبي. رأيتها متطامنة في حضنه، مستكينة إليه.. أين تعلّم رقصة التانغو هو الأجلف؟ كان يحسن أن يسكن الكتب الصفراء التي علاها الغبار وسكنتها الأَرَضة.. فتحتُ له بيتي وغشي العالم الجديد، وامتدت عينه بل يده لما ليس له. هو خطر أن نبعث الموتى، دكتورة.. ينفلتون منا، يسكنوننا ثم يصبحون أصحاب الدار ونحن الضيوف.. لم أكن أعرف ذلك.

وأخيراً وجدت دليلاً دامغاً، كما رجل الأمن يقع على أثر البصمات... وجدته في قراءة ليلي لديوان المتنبي في ترجمة بالفرنسية..

- لماذا تكذبيني يا ليلي؟ أليس هذا أثر المتنبي وحضوره في بيتي، ومغازلته لك.

- حبيبي، تبدو مُتعباً.

- إن لم تتعبيني أنت فليس هناك ما يتعبني ولا من يتعبني..

- فلننسَ المتنبي. حدثني عن الأندلس..

- وما شأنك أنت والأندلس أو المتنبي؟

- هي جذوري، عزيزي.

- ومنذ متى تهتمين بالأندلس والمتنبي؟

- لا يمكن أن نبني شيئاً عظيماً من دون ذاكرة.

- ماذا تقولين؟

- الذاكرة هي وقود العمل.

- ماذا؟

- العربية لغة رائعة.

- العربية؟

- أي نعم.

- ولكنك لا تحسنينها.

- للأسف، وأنت من حببها إلي، بقراءاتك وكتاباتك. وأريدك أن تعينني على فكّ ما استغلق علي منها... أقرأُ شعر المتنبي في ترجمة فرنسية إلى أن يتأتى لى أن أنفذ إلى سحره.

- No way dear. المتنبي غير قابل للتصدير. نتاج محلي.. يُفترض أن تعرفي الزحاف وأشكالها من خبل وخزل، والعلل من ترفيل وتذييل وتسبيغ والوتد، وما أدراك ما الوتد، من حذف وقطف وتشعيث وصلم وحذذ، وفي النحو اللفيف المقرون واللفيف الفروق، والمصدر الميمي، وفي البلاغة والبيان، الجناس والمطابقة وهلمّ جراً من الخزعبلات لتنفذي إلى سرّ المتنبي أو سحره أو هرائه..

- ساعدني على امتلاك هذا التراث العظيم. أهلي يمرّون

بمحنة، وليس يخلق بي أن أتركهم لحالهم. بغداد حطام، ودمشق خراب، والقاهرة شاخت وترهّلت.. أريد أن أبعث روح قرطبة، وأنفث الحياة في فاس، وأشذب جِنان تلمسان، وأحيي ألق القيروان، فتستعيد الزيتونة وهجها وتنبعث المدارس العتيقة بسحر الضاد، ومثلها المُحَضرات في فيافي الصحاري، بشنقيط، ومعسكر، وتافيلالت... أريد للقرويين أن تكون منارة للفكر الحر والحوار المثمر.. أريد أن أستمتع بموسيقى المألوف..

الذهول. أصبت بالذهول. ليلي تهتم بعملها وتحدب على مرضاها، ولا يُقدح البتة في تفانيها في عملها، ولكنها كانت دوماً مسكونة بالغرب، وبنتاج الغرب.. فكيف تهفو لبغداد، وكيف تحن لحلب، وكيف تذكر القيروان، وتهيم بالضاد، وتحن لموسيقى حسن الغريبي من المألوف. ما كان يستهويني من ليلي هو هيامها بالغرب.. هي صورة منه.. ولكنها أخذت تنأى عنه.. لماذا؟ لا أدري. أزيغُ الغرب؟ أغلواؤه؟ أترهّله؟ أم انبعاث الذاكرة العميقة؟ بسبب المتنبي؟

قلت لها:

- كُفّي أن تخدعي نفسك. أنت إسبانية طردتها إسبانيا، بناء على نظرة أيديولوجية. انظري إلى وجهك في المرآة، وغوصي في بنية ذهنك، وفي لا وعيك الذي يحركك.

- أنا ما أريد أن أكونه. تعال عزيزي، لقد اختلط عليك الأمر.

وقعتُ في شرَك سحر ليلي. ربتت علي. احتضنتني بقوة. أسندتُ رأسي على ركبتها، وتغشتني سَنة من نوم. رأيت فيما يرى النائم أنني سكنني طيف. تلبّسني الجن. تلبّسني طيف المتنبي. كما

الحاكم بأمر الله، وحاجب الحاكم بأمر الله، وصاحب بيت مال الحاكم بأمر الله. كانت ليلي لا تزال تقرأ حين صحوت. . . قامت ثم عادت وأسدلت علي غطاء. . كانت تستتر عن فعلتها. كانت تخادعني. . والأدهى أني خادعت نفسي. . وأخيراً ضبطتها. تظاهرتُ بالنوم وأنا أسمع المتنبي ينشد عليها:

اليوم عهدكم فأين الموعد؟
هيهات ليس ليوم عهدكم غدُ
إن التي سفكت دمي بجفونها
لم تَدْرِ أن دمي الذي تتقلّدُ
قالت وقد رأت اصفراري من به
وتنهّدت فأجبتها المتنهد
فمضت وقد صبغ الحباء بياضها
لوني كما صبغ اللجين العسجد
فرأيت قرن الشمس في قمر الدجى
متأوّداً غصن به يتأوّد
عدوية بدوية من دونها
سلب النفوس ونار حرب توقد
أبلت مودتها الليالي بعدنا
ومشى عليها الدهر وهو مقيدُ

أمسكت الغطاء على وجهي وأنا أتميز من الغيظ، إلى أن أتمَّ المتنبي نسيبه. أزحت الغطاء متوجِّهاً بالحديث إلى ليلي:

- والآن، ألا أضبطك متلبسة، أو هو متلبساً؟

- هو وديع الصافي Chéri، يغني من قصيدة للمتنبي. لِم ترى المتنبي في كل مكان؟ دع المتنبي. حدثني عن الأندلس..

دكتورة، أحببت ليلي. أو على الأصح كنت أحبها... كنت أناديها أميرتي الأندلسية. ومن أجلها قرأت طائفة من أمهات الكُتب. قرأت **الإحاطة** للسان الدين بن الخطيب، **والذخيرة** لابن بسام، **والفصل في الملل والأهواء والنحل** لابن حزم، **والمقتبس في أخبار بلد الأندلس** لابن حيان، **وفي أخبار المغرب والأندلس** لابن عذارى المراكشي، **والنفح الطيب** للمقري، وزدت كتاب **الفصوص** لأبي العلاء البغدادي. ينبغي أن يكون للمرء صبر أيوب كي يقرأ كل هذا الهراء. وينبغي الحذق كل الحذق، والأرب كل الأرب، لنقله إلى ليلي. ولحسن الحظ كنت أستطيع أن أمزجه مع قراءات حديثة مثل **فجر الأندلس** لحسين مؤنس وكتابات محمد عبد الله عنان وليفي بروفانسال... ولم أقرأ ما ينبغي أن أقرأ، أو قرأت عنه بالفرنسية، لأن لا أحد يأبه به، ابن باجة.. رأس العقلانية في الأندلس. قرأت معها شعراً لابن زيدون مترجماً إلى الفرنسية.. هل سبق أن قرأتِ ما نظمته عنه ولّادة من شعر بذيء؟... دعي نونيته التي تُحَفّظ للمغاربة «أضحى التنائي بديلاً من تدانينا»، أو كانت تُحَفّظ لهم، وهو حالنا، أضحى التنائي بديلاً من تدانينا فعلاً.. لم يعد يُحفَّظ للمغاربة أي شيء. أصبحوا شأنهم شأن المشارقة، بلا ذاكرة. قالت بنت المكارم، ولّادة، في هجو من كان حبيبها:

إن ابنَ زيدون له فقْحة . تعشق قضبان السراويل

لو أبصرَتْ أيراً على نخلة صارت من الطير الأبابيل

والفقحة هي المؤخّرة. لم أحدّث ليلي عن ذلك، لأنها لا تريد

أن ترى من الأندلس إلا صورتها الزاهية، ومن علاقة ابن زيدون وولّادة إلا الصورة الرومانسية السارية.

راودتني الفكرة أن أكاتب فابيوس أخبره بتبدل أمه.. كنت أريد أن أقول له إن أمه جُنت، وأحجمتُ عن ذلك. في تلك الأثناء كانت في نزاع قضائي مع قرينها السابق روبرتو حول فابيوس يدفع فيه أن فابيوس، وقد بلغ أشدّه، لم يعد تحت الوصاية، ويستطيع أن يقرر في حياته ما يشاء. كان روبرتو يريد أن يسترد ابنه.. ولكنه ابني كذلك. عاش معي أكثر ممّا عاش مع أبيه البيولوجي. لم يكن من الذكاء أن نعلن خلافنا أنا وليلي على الملأ حتى لا يستغله الآخر، وهل هو آخر؟ بعد كل ما انتسج من علاقات، نرفض أن نرى الآخر، الذي هو معنا وجزء منا، ونرى «الأنا» في من هو بعيد منا، وقرّبه منا جهلنا، ونظرات أيديولوجية، تعقبها نظرات تتخللها عبرات.

هل أستطيع أن أقول لفابيوس إن أمه ارتبطت بعلاقة غير شرعية بالمتنبي؟ تصوري أن يُقدّم في الملف القضائي علاقة ليلي مع المتنبي والخطر الذي يشكله ذلك على مآل الدعوى. يكفي أن يُقدم بيت: «لا يَسْلَم الشرف الرفيع من الأذى / حتى يُراق على جوانبه الدم» في المرافعة حتى يفصل فابيوس عن أمه ومن ثمة عني. لم يكن روبرتو على علم بعملية الإلحاق. لم يكن يعرف أن فابيوس صار ابني، وأن لفابيوس لذلك أبوين، أب روماني قح، وأب بربري ملقّح بلسان عربي، ويحسن بي وبروبرتو والحالة هذه أن نتصالح، وإذ نتصالح نَصرف ليلي عن إغراء الشرق، وهوس المتنبي. ولكني كنت نفسي تحت تأثيره. وهو الأدهى والأمَر. والحقيقة أن روبرتو لم يُسهل

علي الأمر. دفعني إلى التمترس بجانب المتنبي، لا عن اختيار بل اضطرار.

لو كنت مجنوناً لهان الأمر.. لو كان ما أصدرتموه في حقي حقاً. الجنون تخفيف من وطأة واقع معقّد وأوضاع معضلة... نحن نحتاج في الوضع الحالي إلى مجانين لا يخضعون للقواعد المتعارف حولها. وأنا كنت ألظى بواقع معضل... ألا ليت الجنون أصابني حقاً... ما قد ينتظم أمام ناظري لن يكون له أثر أو تأثير لأني سأكون تحت التخدير. أم ترانا كلنا تحت التخدير، لا نشعر بما يعتمل، لأن قدرتنا النقدية غاضت، والغالبية أوقرتها شؤون الحياة.

لم تعد ليلي مخلصة لي. أفهم أن تنأى عن ذاكرة روبرتو وقد انفصلت عنه. وأما أنا زوجها، من عاش معها لأحقاب، فلِم ترتبطُ بعلاقة جانبية؟.. ومع المتنبي؟ جرثومة العروبة، ولسانها الصادح، وصناجتها، ومالئ الدنيا وشاغل الناس، وما شئت من الألقاب.

هل تفهمين يا دكتورة لِم أصبحتُ بربرياً؟ أو لِم استرددت بربريتي؟ والصواب أمازيغيتي.. لأن المتنبي سلبني أعز ما لدي.. زهرة الأندلس ونفحها الطيب. لأن العرب عموماً، ومن يحسبون أنفسهم كذلك، لا يعترفون بي..

دكتورة، أريد أن أستريح.. تعبت، وذكرى أميرتي الأندلسية تشق علي. هي أميرتي أنا، ولو هي ارتحلت مع المتنبي... لماذا تفكر في أهلها، ومن تحسبهم أهلها، وتعرض عني أنا زوجها، ألأني بربري؟ الحقيقة التي كانت تتستر عنها، أو تجهلها، أنها لم تكن عربية. قلتها لها مرة في حالة غضب، أنت إسبانية، تكلَّم أجدادك العربية، فحسبت نفسك عربية. جذورك اللاتينية لا تزال

تنبض فيك. تكذبين نفسك، وتنفقين جهدك فيما لا يفيد، وتَجرين وراء سراب. عودي سيرتك الأولى. لا تنسي ابنك فابيوس. ابننا فابيوس. لا تنسي صلتنا اللاتينية وتراثنا الروماني وجذوره الإغريقية.

لم أعد أفهم ليلي. اختلقت أسطورة ووثقت بها وأوثقت بها نفسها. وما يفيد أن نجادل من يؤمنون بالأساطير؟

استيقظت الممرضة جميلة، وكان عليها دوام الحراسة الليلية، على صخب في مرقد جناح المرضى النفسيين، ثم انتهى إليها صوت العويل والبكاء.. نهضت من فراشها، ووضعت قبعتها، ثم نظرت في المرآة وهي تُعبّر عن تأفّفها مرددة:

- تلّات (أخلفت) بنا الأيام، نداوي والهبال.

اشتدَّ صوت العويل. انتعلتْ خُفّاً بسرعة، وقطعت الدهليز في اتجاه جناح المجانين.. بلغت عتبة باب غرفة المدعو بالمتنبي.. كان واقفاً، والزُّهرة متطامنة في حضنه، وهي تبكي بكاء مراً. بدا الحزن من كافور. نكس رأسه... أما ابن جني، فكان يبرغم كلاماً غير مفهوم. اتسعت الغرفة للجمع رغم صغرها.

كان الجو جو مأتم..

وقفت الممرضة على عتبة الباب ولم تكن مُغلقة. لاحظت أن حضورها لم يؤثر في المجانين. لم يأبهوا إليها. تساءلت مع نفسها ما يمكن أن تفعله. الطبيبة فنيش أنهت دوامها. أبلست الممرضة، فدورها يقتصر على الحراسة، وتقديم الدواء في الحالات الحرجة،

والمناداة على الماجور في الحالات القصوى لحقن النزلاء. انتهى إليها ترجيع الزهرة وهي تحرك رأسها أسى:

- سرْ يا حنيني الله يحن عليك.. الموت دراها ربي، وليني الفراق صعيب.. الله يصبرك يا حنيني، يا زين العقل والكلمة، ما مول الرأي والحكمة.. الدنيا تبكي على اللي خليت. على اللي مشات وما ولّات..

توقفت الزهرة لتسوي شعرها، وكانت ضفيرتها قد انحلت.. أخذ الفتى ابن جني يبرغم:

- كل إنسان ميت، سقراط إنسان، سقراط ميت، كل إنسان ميت، المتنبي إنسان، المتنبي ميت. كل إنسان ميت... أنا إنسان، هو إنسان، هي إنسان، نحن ميتون. أنتم ميتون. الميت ميت. هنا الميت حي والحي ميت. هناك الميت ميت والحي حي.

انتفضت الزهرة في وجه ابن جني:

- اللّقوة[1].. الموت هاذي.. بارَكا من الفلسفة.

تقدّم كافور وعانق المتنبي عناقاً قوياً وهو يردِّد:

- مسامحين أخوي. همّ الدنيا يبقى فيها.. راني مسامحك دنيا وآخرة.

انسلخ المتنبي عن الزُّهرة، وعن الجمع. رفع رأسه. ساد صمت مذهل. لم يأبه أحد للممرضة أو تقع عليها الأنظار. أخذ المتنبي في الإنشاد والجميع يستمع في صمت رهيب:

ألا لا أُرى الأحداث حمداً ولا ذماً

فما بطشها جهلاً ولا كفُّها حِلما

---

(1) اللقوة: عربية فصيحة، وهي شلل الوجه (Paralysie faciale).

إلى مثل ما كان الفتى، مرجعُ الفتى
يعود كما أُبْدِي ويُكري كما أرْمى[1]
لك الله من مفجوعة بحبيبها
قتيلة شوق غير ملحقها وصما
أحِنّ إلى الكأس التي شربت بها
وأهوى لمثواها التراب وما ضمّا
حرامٌ على قلبي السرورُ فإنني
أعُدّ الذي ماتت به بعدها سُمّا
وما انسدت الدنيا علي لضيقها
ولكنّ طرْفاً لا أراك به أعمى
وما الجمع بين الماء والنار في يدي
بأصعبَ أن أجمع الجَّد والفهما[2]
وإني لمن قوم كأنا نفوسنا
بها أنَف أن تسكن اللحم والعظما
كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي
ويا نفس زيدي في كرائهها قُدما[3]
فلا عبرتْ بي ساعةٌ لا تُعزّني
ولا صحبتني مهجة تقبل الظُّلما

(1) أبدي: أي كما بدأ، ويُكري، ينقص. وأرمى، زاد وأربى. فالإنسان يعود إلى ما كانه، وينقص كما قد يزيد.
(2) الجد: الحظ.
(3) كرائهها: جمع كراهة، قدْما لضرورة الشعر، والأصل، قدُما.

عقّب كافور:

- باباباا. كلام قاسح ذا، كلام واعر. كلام يهرس الحجر... مسامحين أخويَ، مسااااامحين.. الله يصبرك... كلنا اليها.

انتفضت الزهرة تنوح وهي تُلوّح برأسها:

- أمّمتي، وما داز (مر) عليك. ما يعرف الجمرة غير اللي مكوي بها.. بوعلام يا النوارة، الدنيا ظلمة، وأنت قمرة تضوي في السما. بو علام يا مول التاج، اللي ما يبغيك، الله يحسك لو الأوداج. بو علام يا مول الفانوس، اللي ما يبغيك مولانا يعلقو من كراعو، عمرو، ما يصيب طريقو.

أخذ ابن جني يهرف:

- الإنسان الأسمى لا يخشى الحزَن.. الإنسان الأسمى يركب الحزَن. الحُزْن معراج الإنسان الأسمى. المتنبي يركب الحزَن. المتنبي إنسان أسمى. الإنسان الأسمى لا يخشى الحزَن...

انتهرته الزهرة:

- الله يكون لنا ولك، أوليدي، ساحرين ليك. الله يفك سراحك... دّيتها في الكتب وخلّيت ابن ادم.

لم يأبه المتنبي للجلبة التي علت الحلقة فاسترسل في الإنشاد:

كأن الموت لم يَفجع بنفسٍ
ولم يخطر لمخلوق ببال

وما أحد يُخلَّد في البرايا
بل الدنيا تؤول إلى زوال

وأفجع من فقدنا من وجدنا
قُبيل الفقد مفقودَ المثال

يُدفَّن بعضنا بعضاً وتمشي
أواخرُنا على هام الأوالي

رفع كافور عقيرته بالقول:

- الله يرحمها روح..

استدارت الزهرة نحو كافور:

- أضراوي، خوك في الحزّة خوك.

- واه ابنت ولاد حريز، غير انا ما أخوك.

ثم أخذ يصفق كما لو هو يُقطّع شعر الملحون:

أتيني في الصبح والعْشِي،
أتيني في النهار والظلام.
أتيني في الصحو والمنام،
أتيني يا زينة الغرة والاكمام،
أتيني ناتيك..
يا مولاتي الزهرة.

- أنت ما تعرف قرح من فرح. قلبي يبغي بوعلام، وما عنديش مع اللوين.

- في الظلام كل شيء يتساوا ألزهرة.. نفرحك ألزهرة في الظلمة.

استرسل المتنبي غير عابئ بما دار بين الزهرة وكافور:

وليستِ كالإناث ولا اللواتي
تُعد لها القبور من الحجال

همست الزهرة في أذن كافور، تسأله عن معنى قوله في البيت المُتلى. شرح كافور بالقول:

- المرأة اللي مشات، ما شي بحال العيالات، ولا بحال اللي مدفونات في اللثام والحجاب.

صرخت الزهرة:

- حسبي الله، الله يبقي الستر. أنا ما نلبس حجاب. وجهي ما نخبيه، شوف أبو علام، إلا مشات اللي تبغيها، راه مولانا بدلك بما احسن..

ثم استسلمت للنشيج.. قالت والدمع يختلط بحديثها:

- اعرفتك حنين يا بو علام. مولانا يبغيك..

كانت الممرضة تنظر إلى جو المأتم. رقّت للمجانين وغلبتها دموعها. كان يبدو منهم الحزن، وتبيّنت أنها أخطأت في حقّهم، وأن رزية حلت بالمتنبي، وأن المجانين الآخرين تحلقوا حوله يواسونه، وأنه لا يحسن بها أن تبقى كما هي. أرخت السمع للمتنبي وهو يتلو:

ولو كان النساءُ كمن فقدنا
لفُضّلتِ النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب
ولا التذكير فخر للهلال

تقدّمت الممرضة في استحياء نحو الزهرة وسألتها همساً:

- شكون اللي مات؟

- اللي مات؟ ما مات حد..

- شفتكم تبكيوا..

- نتونسوا بالبكاء.

- ما مات احد؟

- كل يوم يموت شيء واحد؟ نبكي وعلى اللي ميتين، ونفرحُ للي حيين. الكاينين، واللي جايين.

- المتنبي مات لو شيء احد؟

- هو اللي مات، الله يرحمه.

- ويلي. شفتو كيقرا المحفوظة.

- شفتك ما كتفرقي ما بين الشجرة وظلها. الرجوع لله. اللي حي يموت، واللي ما عندو قلب ميت ولو هو حي. واللي بقلبو، يحيى ولو داتو الموت وغطاه التراب... بو علام يحي ويموت، ويموت ويحي. شفتك لِك المهبولة أخيتي؟ اللي مهبول يدّاوى.. الله يرد بك.

عقّب كافور:

- كاينة، كاينة ألّلا زهرة. قالها صاحبك:

في الناس أمثلةٌ تدور حياتها
كمماتها ومماتها كحياتها

- أو شفت؟ عقبت الزهرة. أنا وبوعلام القلب على القلب.

- لذاك الشي ما يصلاح لك، ردّ كافور. شوفي غيرو...

تقدمت الممرضة نحو المتنبي ودموعها تسيل على خدها:

- البركة في راسك. الأستاذ. الله يبدل المحبة بالصبر.

ردّ المتنبي:

إني لأُبغضُ طيفَ من أحببته
إذْ كان يهجرنا زمانَ وصاله
مثلُ الصبابة والكآبة والأسى
فارقته فحدثن من تِرحاله

وقد استقدتُ من الهوى وأذقتُه

من عِفتي ما ذقتُ من بلِباله[1]

ولقد خبأتُ من الكلام سُلافَه

وسقَيْت من نادمت من جرياله[2]

أنغضت الممرضة رأسها وردّت:

- بارك الله فيك، ولو ما فهمت والو.

استدارت الزهرة نحو كافور:

- الضراوي، حتى أنا ما فهمت والو، ياك ما كيتزلّل (بتفخيم الزاي. يغازل) على الفرملية (الممرضة)؟ يديرها (يفعلها).

- كيبغي طيفها، زعم جنها، حيث هو عايش مع الأطياف، كيسكنهم ويسكنوه. هو كاع ما ممسوق لنا، داير بحال إلا معنا، وهو ما معنا.

- وشوف هذا المزغوب، أنا نعطيه اللقمة للفم، وهو يعطينا الضربة للعظم.

- عندو النوامر (الأرقام) مخلطة، ما تديري ش راسك فيه، أنا معك، عايش معك، لا جن ضاربني، ولا ضارب جن. ألـلا الزهرة، روفي علي، ألغزال الزهرة.

- قل لي أش كيقول هذا الغدار؟..

- قتل الحب، حيث اللي كان يبي مشت عليه.. تهنّا. الباب اللي يجيك منو الريح سدو. بلعو، كيف نقولو حنا. ما بى يبي احد.

---

(1) استقدت: اقتصصت. والبلبال: الهم والحزن.

(2) السلافة: جيد الخمر، الجريال ما هو دون السلافة جودة.

- أش كتقول؟

- سامحيني، كلامنا مفروق، ما بغى يبغي حد. ورأينا مفروق حيث كلامنا مفروق.

- والسوالف اللي كان يتكلم عليهم؟

- قال لك زعمَ بالعربية وتاعرابت: ما قال ش كل شيء. خلّى الكلام الزين، اللي هو السلافة، وهو الشراب النقعة، شامباني، واعطى لخوروطو الجِّريال، رويجة، زعم دم الكلب وكويلة.

- تعرف هذا الشي ألضراوي؟...

- خدمت في ديور الألبّة، يضربوا الطاسة ونهار الجمعة يلبسوا الجلابة البيضاء، ويمشوا للجامع يصلوا، ومن بعد يأكلوا كسكسو.. وفي Samedi soir، هارا حالك. أنا ألللا الزهرة، اللي كان نقولوا. كيف الجمعة، كيف السبت، كيف الأحد. كيف وجهي، كيف قفاي.

- سِرْ، الله يحسن قفاك بلا ماء.

- ياك ألالة الزهرة. دروك نوريك.

في تلك الأثناء نفر كافور من مكانه، وبخفة نزع قبعة الممرضة، واسترسل في الضحك...

- وكيف جيتك ألالة الزهرة؟

أصيبت الممرضة بالفزع فبعثت صرخة.. تحوّل كافور نحو باب الغرفة ثم أغلقها. أخذت الممرضة تصرخ:

- وهنا شيء من الرجال. واعتقوا الروح...

ردعت الزهرة كافور:

- الضراوي، المرأة مشيّرة، خلي ذنوبها معها. . العواشر هاذي. الملايكة مع الرحمان، والشيطان مخالط مع الناس، مسيف في صفة بن ادم. دابا يصرعوك جنونها.

لم تجد الممرضة نصيراً سوى المتنبي:

- أنا مزاوگة (متوسلة) فيك الأستاذ. . عنداك يتكرفصو (يشينوا التصرف) علي.

أخذ ابن جني يبرغم بهينمة سريعة:

- المرأة مستقبل الرجل، مستقبل الرجل المرأة، الرجل المرأة مستقبل، مستقبل المرأة الرجل. . . مستقبل مستقبل المستقبل الرجلُ، مستقبل مستقبل المرأة الرجلُ المرأة. المرأة الرجل لا مستقبل. الرجل المرأة لا مستقبل. لا رجل، لا امرأة، لا مستقبل. لا مستقبل. لا رجل. لا امرأة.

عقّب كافور:

- اسمعوا أش كيقول هذا ليشّير، زعم هذا الوليّد. لا مستقبل. لا رجل. لا امرأة.

في هذه الأثناء حاولت الممرضة أن تفر. قصدت الباب إلا أن كافوراً كان أسرع منها. انتصب قبالة الباب ومدَّ ذراعيه كي يحول بينها والباب ويصدها عن الهروب.

عادت الممرضة نحو المتنبي متوسلة:

- عافاك، ألأستاذ، أنت باين شي شوية بعقلك، ما طايرلك ش الفريِّخ بالمرة. . خليوني نمشي، جيت ندير الخير ندمت عليه. .

لم يبدُ أن المتنبي حفل بشكاتها فاسترسل في التلاوة:

وقد فارق الناسُ الأحبةَ قبلنا

وأعيا دواء الموت كلَّ طبيبِ

سُبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها

مُنعنا بها من جَيْئة وذُهوبِ

كأن الردى عادٍ على كل ماجدٍ

إذا لم يُعوّذْ مجدَه بعيوب

ولَلتّركُ للإحسان خيرٌ لمحسن

إذا جعل الإحسانَ غيرَ ربيب

علينا لك الإسعادُ إن كان نافعاً

بشق قلوب لا بشق جيوب

فرُبّ كئيب ليس تندى جفونُه

ورُبّ ندي الجفن غير كئيب

وللواجد المكروب من زفراته

سكون عزاء أو سكون لغوب

ردّت الممرضة:

- اسمح لي أسيدي، ما فهمت والو. خليوني نمشي واخا ما فهمت ش.

ردّ كافور:

- علاه ألممرضة، دخول الحمام بحال خرجو..

ثم أخذ يصفق بيديه ويُقطّع من الأغنية:

قولوا للممرضة، هي تداوي في المرضى

وحبيبها مجروح..

نطقت الزهرة:

- ياك الضراوي، قلت تبغيني، ووليت تبغيها هي..

- وكنغني ألالة الزهرة.. ما بقى حد يغني. بيت، اسمحي لي، بغيت الممرضة تشوف المرضى ماشي مرضى، وتشوف اللي ماشي مرضى مرضى. نقادّو الميل، راه معوج. ونعاود الحساب في ضْروف الميزان. مغشوشين.

- أويلي الضرواي، ولتي تتكلم بحال الوليد.. ياك ما صرعك جنو..

- شوية. كيحوّم علي. قريت الطب، عام، وما جاب ش الله. الفلوس، بّاح. زد اللوين.. درت الصحافة، رمتني في الحباسات. جاب الله نسمة لهبال كاينة.

- ما عرفتك قاري، ألضرواي.

- ما نفعتني ش. إلّي ما نفعتو قرايتو ينفعو هبالو. هذا الرباطي اللي رابطينا بهم في هذا الرباط، نحلوهم.. دقة دقة. لا زربة على صلاح. نحلوهم بصاحبك اللي راكي تبغيه وما يبغي ك.

- ما خطاتو بركة.

- ما ك يامن ش بالبركة. ما ك يعرف غير القوة.

نظرت الممرضة نظرة استعطاف إلى الجميع مُحولة نظرها إليهم. أمسكت وزرتها بيديها خشية أن تُنزع منها وقالت متوسلة:

- شوفو غير خليوني نمشي، انتم ما شي حماق، أنا مستعدة نعترف لكم بأن الحمّاق (الحمقى) هما حنا. كنفيقو، كنخدمو، كنرجعو من الخدمة، كاليوم كغدا. ما كنعرفو ش علاش كنخدموا،

ماكنعرفوش إمتى نوقفوا. احنا اللي حمّاق، ودابا غير خليوني نمشي. . نكتب لكم في Bulletin (دفتر البيانات) باش يخليوكم تخرجوا.

ردّ كافور:

- الله يجازيك بخير على هذه الحسنة. عرفتِ، أش قال لك خونا في الله، هذا اللي صرعو جن المتنبي. . قال لك، ما تدير خير ما ترى باس. .

- كاينة. إمتى قالها.

- دروك، بالشعر. .

- ما عنديش مع المحفوظة. . مناش كنت في المدرسة. أنا كيعجوني أغاني بحال أنت باغية راجل عمرو ما يهذر. .

- وبغيتي نخليوك تمشي ألممرضة. .

- ما درت والو.

أخذ كافور يغني:

- أنت امعلم، منك نتعلم، لما تتكلم ما نتكلم.

ثم أردف:

- وما دايرة والو؟

ثم جأر بطريقة متفصحة وصوت جهوري:

- الفن الرخيص أفيون الشعوب.

أخذ يقلد بعدها صوت مذيع في الراديو:

- هنا صوت العرب.

ثم بعده قلد الإشارة الصوتية لساعة بيغ بين.

«أفاد البيان الختامي في أعقاب اجتماع طارئ لقادة العرب وزعمائهم، أنه تمَّ تبني خطة من أجل القضاء الجذري على العدو المشترك، الوعي المتربّص بالوطن العربي، من خلال رص كل المَقْدرات الكامنة في الأمة العربية الماجدة، من جهل وتسطيح وخرافة وغواية، لمحق كل نية مبيتة للنهوض والارتقاء ودرء كل خطر مُحدق للفهم.

ومن جهته أعرب متحدث فضّل عدم الكشف عن هويته، عن الاتفاق الحاصل على ضرورة تمكين المواطن العربي، من كل أسباب الطرب والشطيح والرديح (الرقص والقصف) من أجل الهدف النبيل ألا وهو تدجين قواه الفكرية، وبموازاة من ذلك اجتمع وزراء الشؤون الإسلامية، من أجل الاستعمال الأمثل للحنفية السمحة من سمع وطاعة، في المكره والمنشط، والتسليم بالقضاء والقدر، والتبرّك بالأولياء والصالحين، والاعتكاف في الزوايا والتكايا، وعدم خوض المؤمنين الصادقين فيما لا يعنيهم، والدعاء الصالح لمن ولاه الله جل وعلا شؤون البلاد والعباد.

هذا وأفاد مصدر أن الشيوخ وزراء الشباب، تبنّوا خطة موحّدة من أجل تمكينهم من قاط جديد، يصرف حيويتهم وطاقتهم للتدجين الفعّال.

وأعرب وزراء الثقافة عن ارتياحهم للنتائج المشجّعة للمهرجانات في كافة أرجاء الوطن العربي، والجهود المثمرة في ميادين التكليخ (التبليد) والتضبيع. . .

وقد ثمّن المشاركون جهود وزراء الاقتصاد في أن تبقى ثروات الأمة في أيدي أمينة من الخُلّص من أبنائها، ممن يرضى عنهم ولاة

الأمر.

عاش الشغَب العربي.

أمة واحدة ذات رسالة فاسدة».

ثم انفجر ضاحكاً. ومن دون رابط ندّ عنه صوت ألم:

- أي. أي..

انكمش وأمسك أصبعه، وضغط عليه.

نظرت إليه الزُّهرة نظرة مواساة. أصاب الذهول الممرضة.

صاحت الزهرة:

- مالك ألخنوفس، جرحت اصبعك؟

رفع كافور رأسه كمن يعالج ألمه، ثم ندَّ عنه صوت ألم:

- ديدي

وانبرى يغني:

أنا بحر علي...

ما ندريك بعيدة، ما نبكي عليك،

ما ندريك بعيدة، ما نسقصي عليك

لا زره لا ميمون، لا عرقوب زين

ديدي، واه، ديدي، ديدي

نظرت إليه الزهرة مستفسرة:

- أش كيقول هذا؟

استرسل كافور في الغناء:

Zohra,
Chérie
Mon amour

نبغيك ونموت عليك..

تحوّل بعدها يغني أغنية شعبية مغربية متوجِّهاً بالغناء إلى الزهرة:

- شوفي غيرو، واش قدك ديما تابعاه

والعزارة، اعطى الله...

ثم بلا فاصل تحول إلى أغنية لأم كلثوم، وهو يقلّد صاحبتها في الصوت وقسمات الوجه:

صعبان علي جفاك

بعد اللي شُفتو في حبك

مش قادر أنسى رضاك

ولكن اعمل إيه

وأنا قلبي لسة صعبان علي.

أخذ بعدها يُقطّع من أغنية سودانية:

دق الباب وجانا

وانا جريت له عريانة

دق الباب بشدة

وانا جريت ليه مستعدة.

راق الجو للممرضة. واصل كافور الغناء من أغنية سميرة توفيق، وهو يغمز بعينه اليسري:

بع الجمل يا علي

واشتر مهر لي

بع الجمل قبل ما يروح الجمال.

بعدها أعقبها بوصلة أخرى للطفي بوشناق:

لاموني لي اللي غاروا مني

قالوا لي واش عجبك فيها

قلت اللي جهلوا فني

خذوا عيني شوفو بها.

أخذ إثرها يغني لصباح فخري مقلّداً رقصته بخفة:

يا ما للشام، ياالله يا مالو

طال المطالي، يا حلوة تعالي.

ثم انتقل لناظم الغزالي في أغنيته:

طالعة من بيت أبوها رايحة لبيت الجيران

سلمى سلم عليها

عطشان مية اسقني

قالت روح روح يا مسكين.

بعدها أخذ يغني أغنية خليجية:

ويا لالي، أش كيقولا فينا

ويا ليلا أش كا يقول فينا.

وانتقل بعدها إلى مقطوعة أندلسية:

بُشرى لنا، بشرى، نلنا المنى

الفرح أقبل والهنا

والشمل مجموع

أحسنت يا ليل في تألفنا

بالله يا ليل طل، وزد وزد...

احتبى على الأرض إثرها، كمن يعزف على قيثارة تيدني الصحراوية أغنية منينة منت المختار ولد المدّاح:

عندما يحلو السمر	حبذا هذا السهر
مجلس ليس فيه	غير شمس أو قمر
فالثريا أنت فيه	وأنت فيه عمر
تيمتني غادة	صبغت بعض الشعر
فسباني ثغرها	وسبتني بالنظر
فأميري حبها	فاعل بي ما أمر

لم تتمالك الزهرة عند سماعها لأغنية منينة بنت المختار، فأخذ ترقص رقصة صحراوية، وهي تعبث بيديها وأصابعها، وكأنما هي مشتملة بملحفة.

وقف كافور وأخذ يجاريها في رقصها. ثم أخذ يغني:

جميل واسمر
بيتمختر
شاغل قلبي
بكم نظرة
يقول سُكر

تردُّ عليه الزهرة وعلامات الابتهاج بادية عليها:

- أقول سكر.

انبهرت الممرضة وابتهجت. أما المتنبي فلم يستطع أن يخفي حبوره. كانت ابتسامة تعلو محياه وهو يرى كافوراً ينتقل في يسر من صنف غنائي إلى آخر. في هذه الأثناء تقدّم ابن جني وسط الحلقة

رغم ضيق الغرفة. جمع ذراعيه على مستوى صدره. لم يتحرك. نظرت إليه الممرضة ثم حوّلت نظرها إلى الحضور. قالت وكأن الحواجز قد انزاحت بينها والمجانين:

- الوليّد بغي يقول شي حاجة. خليوه يغني مسكين.

أعطى كافور الإشارة:

- إوَ تكلم أليشير.

توسّط ابن جني الحلقة، استجمع قواه وبدا بوجه لا يخالطه هزل والأنظار منصبّة عليه، ثم شرع مترنّماً بلا أدنى تعبير في الوجه:

واش حنا هما احنا أقلبي ولا مُحال،
واش الدنيا هكذا، أقلبي ولا محال
ما نويت الزمان يغدر ويتبدل الحال
ما نويت الناس تبيع عزها بالمال
يا نواح الطير ف السما، لله شكون قل لي
يجي رسول للخلق ويجيب السلم
ترجع المياه للمجرى، شكون؟ قل لي
يقاد لشيا (الأشياء) للحب، ويزول الغم
واش حنا هما احنا، أقلبي.

عبّر كافور عن إعجابه بحركة من وجه، ثم توجّه إلى ابن جني:

- قل لي ما عندك ش شي حاجة اخرى تغنيها؟

استجمع ابن جني نفسه ثم أخذ يترنم:

ومال كاسي حزين ما بين الكيسان؟
مال كاسي تايه تاينين (يئن)، زاد قوّا عليّ الاحزان؟
مال كاسي باكي وحدو؟

مال كاسي نادب حظو؟

مال كاسي يا وعدو هذا نكدو، غاب سعدو؟

آه يا الصينية

يا اللي ما شفتوني رحّموا علي

وانا راني مشيت والهول دّاني

والدي واحبابي ما سخاو بي

بحر الغيوان ما دخلتو بالعاني.

شُده الجمع وأصيبوا بالذهول. ابتدره كافور:

- احنا مقصرين أليشير، انت بتي (باغي) تفيق النائمين. الله يخلّي الحالة مستورة. ما لقيتْ ما تغني غير ناس الغيوان؟

تدخّلت الزهرة:

- خليه مسكين يفوج على قلبو.

ردّ كافور:

- أنا خايف عليكم. هليّ. علاه ما عرفتو علاش أنتم هنا ف بوسيجور؟ ثم بلهجة مصرية:

- الجدع دا ح يدينا في ستين داهية.

ثم في اتجاه ابن جني:

- تكايس، أبّا. شكون قال لك الناس بات (تريد) تفيق؟ غن شي حاجة نقصرو بها...

أخذ ابن جني يغني:

مُر الكلام

زيِّ الحُسام

يقطعْ مكان ما يمر

أمّا المديح

سهل ومريح

يخدع لكن بيضُر...

انفجر كافور ضحكاً، ثم عقب بصوت مرتفع:

- زدت فيه أبّا. الشيخ إمام من بعد ناس الغيوان. ك تتكلم بصوت الجماهير. ما راك ساهل ألشير. هاذو اللي حبسوك، عارفين علاش حبسوك. عارفين أش كايديرو.

في تلك الأثناء تقدّم ابن جني نحو الممرضة. وقف أمامها كما جندي يتأهّب لأداء التحية العسكرية. انصبّت عليه الأنظار. رسم لحظة زمنية. كانت قسمات وجهه جامدة لا تشي بشيء. ما تراه سيفعل؟ نظر إلى الممرضة بنظر حاد. أيصفعها؟ بدا الخوف من الممرضة. تسمّر الجميع وساد صمت رهيب. وفجأة انحنى وأخذ يدها في رفق وقبّلها، ثم عاد مكانه. أصيب الجميع بالذهول. قطع كافور الصمت بالقول:

- زيدني. فهمتوا شي حاجة؟

ارتعدت فرائص الممرضة بعد إذ قبّل ابن جني يدها، ثم انبرت قائلة في صوت خفيت:

- شفّني حالكم. ما فهمت ش علاش حابسينكم.

- دايرين علاش ألممرضة، ردّ كافور. الوعي مدسوس في الجنون. والجنون مدسوس في الوعي. عرفت أش يجيك مليح ألممرضة، غن لنا.

- وتخليوني نمشي؟

- غن هو الأول، ولها مدبر حكيم.

رفعت الممرضة عقيرتها بالغناء بصوت جميل من أغنية زهرة الفاسية، ممن له دربة بالغناء:

مولاي ابراهيم صاحب الفقرا

يقضي حوايجي بالقول والفعالة

هاك أماما

اعط لماما

ألا ماما

إذا عصينا احنا لله تايبين

الزين الزين ما ندوزو وخا نموت بالحديد

وتكون السلسلة ف عنقي من جديد

أخذ كافور يصفق وهو يردِّد:

- هاك أماما.

أخذت الزهرة ترقص رقصة شعبية، تتهادى بجسدها وترفق ذلك بذراعيها، تحرّكهما كمن يسعى أن يطير.

أما ابن جني فقد رفع رأسه وفغر فمه وهو يصفق بتثاقل كما لو هو صور من شريط سينمائي يُمرر ببطء. لم تفارق عينه جميلة.

- ودابا خليوني نمشي.

التمست الممرضة من كافور بعد أن أنهت غناء زهرة الفاسية.

- المشكل، عقب كافور، قال لك خونا فالله، هذا اللي ضربو جن المتنبي.. ذوك الدموع كذوب. ماشي نتاع الصح..

- ويلي. شوف وجهي، وشوف عيني.

- قال لك الدموع الصحيحة هي اللي خارجة من القلب، ولو ما تسيل..

- باش قال هذ الشي؟

- بلغة الضااااااد.

- شنو هي لغة الضد؟

- هي لغة الضد، نّيت.. ضد كل شيء، وكل شيء ضدها. الضاد، هي اللي ما شي صاد.. زعم ما كنصيدُ بها والو.

- علاه كتصيدو باللغة؟

- كنتصيدو.. إلا كملتِ هكذا، تبراي دغية (بسرعة) ألممرضة..

- علاه أنا مريضة؟

- ما يخص خير ألممرضة. وتبراي (تبرئين). نداووي ك. أنت راك في شامبر نوار، الغرفة السوداء بالعربية وتاعرابت، نتاع المجتمع. واش الذنب ذنبنا إلا قلبنا ذاك الشيء اللي في المجتمع كيبان مقاد، وهو مقلوب أصلاً. الصورة، باش تخرج خاصها الشامبر نوار.. حنا هما الشامبر نوار، أحيّاني على الشامبر نوار ألزهرة..

ردّت الممرضة:

- حنا في النيميرك (الرقمي) دابا ما بقيناش في الشامبر نوار.

- هما اللي في النميريك. هاذوك اللي صنعو النميريك. حنا مزاحمين. حاشين كرموستنا في الشريط. حنا كنصنعو شوية إرهاب، شوية فن مع الفنانات المتألقات. خلي بالك. هو الإسهام نتاعنا في العولمة. زد شوية دلال على الغرب. احن شادين لكم خورطو باش

ما يطرطقو. يا حبايبنا الغربيين، يا خواجة، إحنا ماسكين الهمج دول من شعوبنا عشان ما ينفجروا. الكرة، ما تنساوا ش الكرة، Foot، القضية الأولى لشعوبنا الأبية. والمعركة التي لا تعلو عليها معركة. عشان شعوبنا لما تصحى تنام من جديد، تستريّح من النوم، هي أصلاً تعبانة. تعبانة قوي. وأحسن منتوج كنتجوه، ما ينافسنا حد Delirium made in Arabia ومشتقاته: الحكم المطلق، التطرف، الخرافة، الحشيش، التكلاخ..

تدخّل ابن جني وهو يزمزم:

- الجنون حكمة. الحكمة جنون. تاريخ الجنون، تاريخ الإنسان. الجنون تاريخ. التاريخ جنون. الجنون وعي. الوعي جنون. الجنون حكمة، الحكمة جنون. تاريخ...

عقب كافور في اتجاه الممرضة:

- هذا كنسميوه ألسيدة الممرضة Traitement de choc، العلاج بالصدمة، أنا مشيت معك غير بالتي هي أحسن. حبة حبة، حبتين..

ثم أخذ يرقص، رقص المصري الصعيدي، كما لو هو يُلوّح بعكاز:

حبة، حبة، حبتين...

قاطعته الزهرة:

- أش كتقول ألضرواي؟

- دواء هذا الشّير، دقة ببطلة، بحال اسم الله. إلا درناه للممرضة تولي تتكلم بحاله: «العلاج مرض، المرض علاج.

الأطباء مرضى، المرضى أطباء، الحكام محكومون، والمحكومون محكومون بزاف» أوي (قوي)، كتير يعني، بارشا ياسر، حق بعْد، ويجيب الله التسير ونخرجُ من هنا . . .

- ذاك شيء اللي كان نقول مع راسي، فيه البركة. . .

استكانت الممرضة، والتصقت بالحائط، أخذت تتحرك بيسر في غفلة من المجانين، في تلك اللحظة رفع المتنبي عقيرته بالإنشاد:

أرى كلَّنا يبغي الحياة لنفسه
حريصاً عليها مستهاماً بها صبّا
فحُب الجبان النفس أورده البَقا
وحب الشجاع الحرب أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعل واحد
إلى أن ترى إحسان هذا لذا ذنبا
فأضحت. . .

في تلك الأثناء انفتح الباب بقوة وبزغ الماجور. فهم كافور ما جرى. .

- درتيها بنا ألممرضة، ناديت على الماجور من الناقوس. رقّدتنا بهاك أماما. . . ثقنا فيك. . الحساب تالي. ف الشامبر نوار نقلبوك كيما قولبتينا. خارجين من هذا الرباط، سوا اليوم سوا غدا. . بك ولا بلا بك.

عقب ابن جني:

- سوا اليوم سوا غداً، الحرية ولا بدّ.

صاح الماجور بسلطوية:

- ما تحركو ش.

تسمّر المجانين، وبطريقة آلية مدّوا أذرعهم.. حقنهم الماجور.

ما لبثوا إلا هنيهة، حتى أخذوا يصفقون ويتكلمون ببلاهة ويغنون:

- قولوا لي يا ناس، ماذا تعرفون، هل تعرفون اللعب ب...

أخذوا يتثاءبون ثم ما لبثوا أن غلبهم النوم، وقصدوا غرفهم.

لم أرْتَب في شيء حين فرغتُ من إلقاء محاضرتي على طلبة فرنسيين حول العالم العربي بالدار البيضاء وأتت ليلي لتأخذني بسيارتها كي نتناول الغداء سوية. كنت أتبلّغ بما تسبغه علي جامعة فرنسية، وقد قطع عني الرزق من حسبتهم ذوي قُربى. . . قصة طويلة لا يهم أن نقف عندها، وإن كان ينبغي أن نقف عند فحواها، وهي أننا لم نبرأ من منظومة عتيقة، تتلبّس خطاباً حديثاً، كامرأة عجوز، تتطرى بالمساحيق، وتلبس الدجين والتنورة كي تبدو في سنّ الغضارة. . . حينما تنظر إليها من بعيد، تحسبها غانية تسر الناظرين وتغري العاشقين فيتهافت عليها الغاوون، فإن اقتربت منها وعرفتها معرفتي بها وقفت على حقيقتها. عجوز شمطاء لم تأخذ من الدنيا إلا أسوأ ما فيها، الخديعة والغدر والهذر والنميمة والحقد. . . ولحسن الحظ، مثلما يقول المتنبي «مصائب قوم عند قوم فوائد»، ذلك أن الغرب كان يحرص أن يعرف هذا الجسد المصاب بالصرع، الساكن بمحاذاته، والمتداخل وأمشاجه، يهتز كل عشر سنين، فيحسب الناس أنه استعاد عقله واسترد عافيته. . وكنت، أنا البربري، أعلّم ثلة من بني الغرب شؤون بني يعرب. . . من نهضة لم تكن نهضة،

ومن يقظة لم يكن لها من اليقظة إلا الاسم، ومن ثورة عربية مع الأمير فيصل بن الحسين لم تكن ثورة... كان كل ذلك فعل الغرب.. فالنهضة شأن الفرنسي جومار وهو من نفث بعضاً من الرؤى التي عبَّر عنها رفاعة الطهطاوي في **تخليصه للإبريز في تلخيص باريز**، مع ثلة من السان سيمونيين، وأفكار محمد عبده مستقاة بعضها من الإنجليزي بلونت، وكتابات الكواكبي استنساخ لآلفيري الإيطالي، وكتاب **أم القرى** نَقلٌ من كتاب **مستقبل الإسلام** لبلونت، وكتاب **الأمة العربية** لنجيب عزوري صدى للمخابرات الفرنسية، والثورة العربية مؤامرة دبّرها لورنس العربي ورعتها الصحافية جيرترود بيل. كنت أعطف على ذلك العالم قبل أن يستفحل الشنآن بيني وبين المتنبي.. خذي مثلاً الأمير فيصل بن الحسين، لم يكن شخصاً عادياً، وجمع حوله نخبة من رجالات الدولة والفكر. تآمرت عليه بريطانيا وتحاملت عليه فرنسا ثم أجهزت عليه في خان ميسلون... أحببته وما أزال. تزعمين أني مصاب بالسكيزوفرينيا... أنأى عن العرب وأحبهم في آن.. لا أكرههم. لا أكره إلا من يحتقرني ويزري بي.. أحببت فيصل بن الحسين مثلما أعجبت بالعرب المسيحيين.. أو المسيحيين العرب. لا تقوّليني ما لم أقل، فتزعمين أني أضمر المسيحية، لأن جدي هو أغسطين... العرب المسيحيون كانوا متقدمين على العرب المسلمين، وهم من كانوا في الصدارة وحملوا شؤون الفكر.. هم من نفض الغبار عن اللغة العربية، والعرب المسلمون عاقّون، ناكرون للجميل، اعتبروا أن المسيحيين نفثوا سمومهم في اللغة الشريفة، ونزعوها من نسغها الديني وكانوا يضمرون حسيفة للإسلام والمسلمين ولذلك قوّضوا

اللغة العربية بتحديثها. . قرأت ذلك، ويمكن أن أحيلك عليه في مكتبتي لو أني كنت أستطيع أن أصل إليها. . . انظري إلى بطرس البستاني وعمله الضخم عن العربية **وقاموسه المحيط**. انظري إلى الأب شيخو ومختارات الأغاني التي جمعها، وسِفْر شعراء النصرانية الضخم، ثم هؤلاء الذين حملوا فكراً كأمين الريحاني، وإدموند رباطة، وقسطنطين زريق. ميشل عفلق حالة خاصة. . . نعم، يفيض إنسانية. ينضح بالمحبة المسيحية. أقام بناء يقوم على ثلاثي وحدة، حرية، اشتراكية، كأنما الأقانيم المسيحية. . . مسيحي مشبع بالمحبة المسيحية يستنهض عرباً مسلمين. منتهى الجنون. الفشل مضمون. عرب لم يبرؤوا من ذهنية الثأر والغارة، فكيف يُلقّحون بالمحبة والصفح، وكيف يُعبؤون للبناء وكل أمرهم فيء وسبي وثأر وجنس، أو وطء بالتعبير الصحيح؟. . . انظري إلى ما آل بفكرة البعث؟ جمهورية الرعب بالعراق، والشبيحة بسوريا، ولم نسلم في بلاد المغرب من أوار ذلك.

كان من الكتب التي اعتمدتها كتاب قيّم لجورج أنطونيوس، **يقظة العرب**، وهو أميركي من أصل فلسطيني. . مساكين هؤلاء المسيحيون، كانوا يحرثون البحر. . مثل غسان تويني، مثل جورج حبش، مثل كلوفيس مقصود، مثل جورج طرابيشي، مثل مروان معشر. . . والدليل أن شعوب المنطقة تحولت إلى خطاب يطابق ذهنيتها. . . من دعاة يحملون ألقاباً يوافق فيها شنٌّ طبقة، من أبي جهم، وذي أوار، وأم رمضاء، والبتار، وذو الفقار، وحُسام، والسيف المسلول، وابن سياف. . . لسوف أرفق بك حتى لا أسرد عليك فتاوى أبي قتادة. . . وأنت تعرفين أساليب داعش في الحديث

والنقاش وتبادل الرأي. الإحراق والإغراق والرمي من شاهق، أما أنضاؤهم من العروبيين الجدد فيحسنون الاختراق والتشهير، وأما ذوو الذؤابة من قريش ومن لف لفهم، فأصحاب صلة وجراية أو مكرمة وإلا فبُلَغة. . . وإن وقعت في مخالبهم لم يتستروا عليك. فضحوك. أو سلقوك بألسنة حداد. كما ورد في محكم التنزيل.

لا أذكر من قال لي إن العرب لن ينهضوا لأنهم أضاعوا شعوباً عايشتهم، وثقافات نهضت بجانبهم، وكانوا جميعاً مرآة لهم. Ils ont perdu leur altérité. وأحسب أن ذلك من صميم الفكر الرواقي. حين تجهز على إنسانية من يلازمك، فأنت تجهز بالتبعية على إنسانيتك.

العرب أضاعوا مثلما أضاع أبو حنيفة جارَه السكّير الذي كان يترنم ببيت العرجي، كما يروي صاحب **الأغاني**، أبو الفرج الأصفهاني:

أضاعوني وأيَّ فتى أضاعوا
لِيوم كريهة وسداد ثغر

ولم يهنأ بال أبي حنيفة حتى توسّط من أجل إطلاق جاره السكّير. والقصة مختلقة كغالبية قصص العرب، ولكن المهم رسالتها، في هذا التعايش بين صاحب الفضيلة، ومن يسلك سبيل الرذيلة، أو يُنظر إليه كذلك.

وهل يمكن أن نعرف أنفسنا من دون الآخر وننظر إليها من دون مرآته؟ نحن كسرنا كل المرايا. ونحب أن ننظر إلى ذواتنا المنبعثة من ذاتنا. وكان ينبغي أن نَصدر من نظرة موضوعية «ليوم كريهة، وسداد ثغر». والأيام الكريهة، من واقع العرب، حدّث ولا حرج، والخرق

اتسع على الراتق. ضاقت المنافذ بالمسيحيين في الشام والعراق فرحلوا أو أخذوا يرحلون، أما نحن في بلاد المغرب فيكاد ألا يعيش بها يهود. غادروا أغلبهم. وأقباط مصر أجانب في بلدهم. والشيعة في الجزيرة العربية رعايا من الدرجة الثانية، بل طابور خامس... وأنا، أنا البربري، أريد لي أن أكون عربياً من الدرجة الثانية، يصدح كبغاء:

ألا لا يجهلن أحد علينا

فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وهو كالأبله فاغر فاه. وأنا لا أريد أن أجهل. وهل من الضروري أن أجهل؟ وكيف أُحْرَم قراءة اعترافات أغسطين وأحفظ خطبة الحجّاج يتوعد بقطع الرؤوس؟ أليس في هذا ظلم صراح؟ وهل يستكثر علي العربي كريم المَحْتد، تاريخي وأيادي البيض عليه وعلى لسانه ورسالته؟ أفلا أتحول عنه، وعن لسانه ورسالاته إن تمادى في العُجب؟ ولو قدّرني حق قدري، لكُنا سواء، في معركة البناء..

في أي أمر كنا فيه؟ أتت ليلي وأخذتني بسيارتها كي نتناول الغداء سوية في مطعم أميركي، Rick's Café. كنت في مزاج راق... ولم أتوقع أمراً يعكر صفو يومنا... كانت ليلي منقبضة...

- ليلي، ماذا؟

- لا شيء، عزيزي.

- هل تجرأ عليك أحد؟ هل تحرش بك أحد؟ هل ضايقك أحد؟

ليلى انفلتت كما انفلت جني أبي العلاء من المصباح السحري. ليلي أخذت تسكن التاريخ، أو التاريخ أخذ يسكنها. ليلي مسّها مس، أو عنّ لها رئي من الجن. قالت:

- ألم ترَ جمعاً من السوريين ما بين الحدود الجزائرية المغربية، ملقى بهم، لا هؤلاء ولا أولئك يريدون بهم.. بالعراء. عرضة للجوع وللعطش، وللحِيّات والعقارب؟ ألا قلباً يرق لهؤلاء؟

وأسلمتني جريدة، وقرأت نداء طفلة: «ساعدونا احنا عم نموت هون، كليتنا 41 شخص. حرام عليكم. كل الدول ما لقيت لينا حل. ساعدونا كلياتكم. ما حد قدر يلاقينا حل».

أنا لست جلفاً، دكتورة.. لي قلب يرِقّ ونفس تأسى. آسى لأهل الشام، مثلما بكيت لبغداد حين كانت تُلقى بشواظ من نار. بكيت حينها بدموع حَرى. صرخت في شبابي حين شنت أميركا ما أسمته عاصفة الصحراء. كتبت ونددت وتظاهرت. وحين أعلنت الحرب سنة 2003، انزويت أبكي لأني هرمت، أو شخت، ولم يعد لي إلا البكاء... ب احْكي جد، كما يقول الشوام. ذهبت إلى زاوية، وتلوت القرآن مع الفقراء، الفقراء إلى الله، ورتلنا سورة الواقعة، وشفعنا بالمنفرجة، والدعاء الناصري، وقراءة اللطيف. أرجوك دكتورة، يبقى الأمر سرّاً بيننا. لو يعلم النشطاء الأمازيغيون بذلك لسوف يسلقونني بألسن حداد. للأسف لدى البعض منهم عيوب القوميين العرب. منهم من يعرف حديقتي الخلفية ويسعى أن يفضحني ولسان حاله يقول: احذروه، أمازيغيته مشوبة بالعروبة، لسانها وثقافتها وقضاياها، مثلما كان العروبيون يحاذّونني ويتجنون علي: «احذوره عروبته مشوبة بالأمازيغية، لسانها وثقافتها

وقضاياها». والأوائل مصيبون سيدتي، والأواخر مصيبون كذلك. فأنا أحمل العروبة لساناً وثقافة وقضايا. وأنا أحمل الأمازيغية لساناً وثقافة وقضية. لنبقَ اليوم في عالم العروبة... بكيت لمّا رأيت علَم الاحتلال يُرفع في أم قصر وانزويت في زاوية أنشج نشيج الموتور... بكيت حقيقة لا مجازاً، ولسان حالي يقول ما كان يقوله حزاقيل عن أورشليم، فليُقطع لساني إن نسيتك يا بغداد... هذه أمور أتستّر عنها، ولو لم تكوني طبيبة نفسانية لما بُحت لك بها... وهي معقّدة، لا أستطيع شرحها، بل حتى أنا لا أفهم أمرها. أغضب من العرب وأبكي لهم. قلت لك إني ذهبت لبغداد سنة 2013 لأني آليت ألا أنساها. صادف ذلك الذكرى العاشرة للحرب على العراق، والمناسبة بغداد عاصمة الثقافة العربية. هراء. يحتفلون بذكرى الحرب، بنصر هو هزيمة... أُحْسنُ التقية دكتورة. وانسللت إلى كربلاء. تمسكت بسياج مرقد الإمام الحسين وبكيت... هكذا. لا تسأليني دكتورة لماذا؟ بل أسالك لماذا لا أبكي؟ لم لا أبكي شخصاً يتعرض للظلم ويعترض على الظلم ويأبى الاستسلام؟ لم لا أبكي رجلاً حُرم وأهلُه الماء ومنهم رُضّع والماء مبذول من الفرات؟ لمَ لا أبكي رجلاً فتنه الطلقاء؟ ولِمَ لا أبكي أخاه أبا الفضل، يُمثّل به؟ ولِم لا أبكي أهله يقطعون الفيافي على قتب. والذي حدث دكتورة، أن الإمام الحسين وأنا أقف بمرقده، لم يعد ذكرى ولكن فكرة. فكرة تحيل إلى حالات الظلم حيث تكون، وكدت أجري حديثاً معه، وأكلمه وأستدر منه النصح، في شأن نسل يزيد، وقد تسللوا عبر الأزمنة، واندسّوا عبر الأنظمة، وتقنعوا بشتى الأقنعة، لو لم يعجلني مرافقي العراقي الذي كان بعثياً، واختلطت لديه بقايا

البعثية مع رواسب الشيعة، وحنين الشيوعية ووجد العنت الشديد في أن يقيم وحدة لشيء انشطر. ظلّ وفياً لشيء قد يجمع هذا الجمع المتنافر: العرَق. شراب العرق. وقد يكون العرَق نسغ العراق منذ البابليين والآشوريين، يسري في جسم أهلها، وسعى الإمام ابن حنيفة أن يدخله دار الإسلام. هناك أشياء لا يأتي عليها الزمن ولا الحضارات المهيمنة، ولا الأيديولوجيات المتسلطة. تبقى كامنة أو مستترة كما الآثار في عمق التراب. تبقى ثاوية في وجدان الشعوب، عند الدهماء خاصة. صاحبي العراقي من أهداني كتاب تبتلات بعنوان **مفاتيح الجنان**، وهي أدعية لآل البيت ومحبي آل البيت، وأحتفظ به وديعة لا من مرافقي، بل من الإمام الحسين... ينبغي أن أقول لك الحقيقة. نعم أحب آل البيت، وأحبهم لأنهم أحبوني. تزوّجوا مني. تكلموا لساني. لم يستعلوا علي.. وبوؤوني الصدارة، ولم يستأثروا بأمر دوني... تجدينهم في سوس، وفي الأطلس، وفي الصحراء... في معاقل بلاد البربر... وهذا ما ترجمه أهلي بالنّسب إلى العترة الشريفة. صعب عليهم أن يعبِّروا عن ذلك بالانتساب إلى فكرة. لم يقرؤوا أوغست كانط. كانوا في المرحلة الميتافيزيقية، وأنا دخلت المرحلة الموضوعية في مجتمع لا يزال مشدوداً للمرحلة الميتافيزيقية. وهذا سرّ جنوني. المجنون ليس أنا يا دكتورة. لا علينا. لست عاقاً. أنا أبرُّ بأجدادي ولو أظهر نقيض ذلك... أعبِّر بلغة جديدة وخطاب جديد عمّا كانوا يؤمنون به.
كنت بالقاهرة في معرض الكتاب لسنة 2016، والتقيت بيمني، وعانقني عناقاً حاراً كما لو هو عناق حميمَين التقيا بعد طول فراق. والحقيقة أنّا لم نلتقِ لمدة تنيف عن عشرة قرون. منذ الفاطميين. لا

تعرفين هذا الفصل. أعرف، لأنه لا يُدرّس في البرامج الرسمية. وهو فصل مشرق من تاريخ أهلي. وهو فصل جمع البربر والأقباط، أو المصريين في وحدة. وأنا أتوق لذلك، ولأني أتوق له، أحنُّ لهذه الحقبة. احتضنت اليمني، ولم نتكلم في شيء من شؤون السياسة. حلوى وشاي، يقطعه صمت طويل. كأن الصمت حديث، والحديث صمت... وإذ عدت لبلدي، نقلت رسالته التي لم يبح بها. جأرت أن الحرب على اليمن جائرة... مفهوم أن أبكي لصعدة وتعِز ولبغداد تئن، ولحلب وهي مضرّجة بالدماء، لأن اللغة فعلت فعلها، أما ليلي، خليلة روبرتو، خريجة جامعة باريس، من لا تحسن العربية، فلم أفهم... أو فهمت بعدها.. المتنبي. ومن أين تسلل المتنبي إلى ليلي؟ مني. أنا البربري. من سذاجتي. من وفائي لوشائج التاريخ، من سحر اللغة، وحبي لها. أم من النكبة أو النكبات التي ما تنفك تتواتر؟ ليست النكبة حدثاً بل حالة. هي لعنة. وهي لا تعالج إلا بالوعي، والوعي لا يكتسب إلا بالذكرى، ولا يتم إلا بالفكر. وسبيله الحلم أو الجنون. إخال أني قلت لك ذلك قبلاً.

كنا بالمطعم حين ذهبت ليلي إلى الحمّام. وضعت هاتفها على مائدة الأكل. ولا أدري لأي سبب غلبني حب الاطّلاع، فمددت يدي لهاتفها... وفتحته على رسائلها، وعنّ لي بحروف لاتينية اسم المتنبي.. وضعت الهاتف في جيبي. ما أن عادت ليلي، حتى تعللت بالذهاب إلى الحمّام..

فتحت الرسالة الأولى. كانت إلى ليلي، يقول لها فيها المتنبي بلا حياء ولا استحياء:

صلة الهجر لي وهجر الوصال

نكساني في السُّقم نكس الهلال

لا تلمني فإني أعشقُ العشّـ

ـاق فيها يا أعذل العُذّال

نحن ركبٌ ملجن في زي ناس

فوق طير لها شخوص الجمال

كانت شهادةً صارخة عن علاقة المتنبي المريبة بليلي كما يشي بذلك قوله «نحن ركب ملجن»، وقد اختلس نطقَها، أي نحن ركب من الجن في زي إنسان أو صورته وقد امتطوا طيوراً في شكل جِمال، كناية عن السرعة.. انفلت الجن من عصر البويهيين ليسكن عصري. جنّ المتنبي، لم يجد مكاناً سوى مكاني يحل به، ولا زماناً سوى زماني يحط فيه، ولا خليلة سوى حليلتي يستغويها. تصرفت كأن لا شيء طرأ. عادت ليلي. نظرتُ إليها نظرة مقطّبة. سألتني عن حالي.. تعللت بتسمّم أفضى إلى إسهال. قصدت الحمّام وقرأت نسيب المتنبي في حليلتي:

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

ليلي ضلع في الأمر. شريك في الجريمة.. قرأت جوابها بالفرنسية.. رد عليها بأن الفتى العربي غريب اللفظ واللسان. كتبت له بلغة عربية ركيكة. أنقلها لك في لغة مصوبة: «شكراً أن أتيت. كنت أشعر بالإحباط. أنت منتهى آمالي لتنقذ ما يمكن إنقاذه من وضع انشطر. إليك أحن أيها الفارس المغوار... يا فارس السيف والقلم».

كانت علامةً أن العلاقة ممتدة في الزمن.. استغلَّ المتنبي غيابي حين كنت أجوب الفيافي لأنشر فكر الأنوار.. كان خليقاً بي أن أترك الدياجير تملأ المكان إن كان ثمن ذلك أن تُنزع مني حليلتي. ماذا جنيت؟ ورنّ الهاتف.. هاتف ليلي. فضحني أو كاد يفضحني.. حولته إلى الرنة الصامتة.. ثم عدت إلى المائدة. كانت ليلي منقبضة. انفضح أمرها.

- زميلتي كان يفترض أن تكلمني ولم تفعل.

بحثت في جوانبها وحقيبتها وتبيّنت أنها لا تحمل الهاتف:

- لا أدري أين وضعت هاتفي النقال..

- لم تأخذيه معك.

- بلى، كلمتك منه حين كنتُ في مربض الجامعة...

- هل أنت متأكدة؟

- نعم، ينبغي أن نهيّئ حملة طبية إلى الجبل حيث النساء تمتن في الوضع...

- دعي هذه الحملات... ابقي قربي يا ليلي. لماذا تُغلّبين عملك علي؟

- لأنكَ تُغلّب عملك علي..

- أنا؟

- تَصرف وقتك في الكتب. تسافر لتلقي محاضرات.. تعيش مع الموتى، تكلمهم..

- الموتى يأسَون لمن لا يسمع حديثهم ولا يُحدّث عن أساهم.

- الأحياء أشد أسى لمن لا يسمع شكاتهم..

- أنت أيضاً تعيشين مع الموتى..

- الأندلس؟

- تماماً.

- ولكن الأندلس ما تزال حية..

نظرت حولها، ثم أضافت:

- ينبغي أن أبحث عن هاتفي المحمول في السيارة...

- اسمعي ليلي، المتنبي يُخرّف. اسمعي لقصيدته:

وعذلت أهل العشق حتى ذقته

فعجبت كيف يموت من لا يعشق..

- عزيزي، أنت مرهق، وترى المتنبي في كل مكان..

- أراه على شاشة هاتفك ورسائلكما المتبادلة. حجة بالغة.

نعم، قرأت قوله لك:

وما انسدّت الدنيا عليّ لضيقها

ولكن طرْفاً لا أراكِ به أعمى

وجوابك له بالفرنسية كما لو هو يفهم الفرنسية، أو يعرف لامارتين، وشعره...

Un seul être vous manque, et tout est dépeuplé.

أنكرت ليلي كل شيء.. أريتُها قوله:

لعينك ما يلقى الفؤاد وما لقي

وللحب ما لم يبقَ مني وما بقي

وما كنت ممن يدخل العشق قلبه

ولكن من يبصرْ جفونك يعشقِ

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربُّه

وفي الهجر فهو الدهر يرجو ويتقي

وإطراق طرف العين ليس بنافعٍ
إذا كان طرف القلب ليس بمطرق

ثم قوله:

الحب ما منع الكلامَ الألسنا
وألذُّ شكوى عاشق ما أعلنا
ليت الحبيب الهاجري هجْر الكرى
من غير جُرم واصِلي صِلة الضّنى

نازعتني الهاتف.. أمام الملأ.. كسرتُ الهاتف وأخذت أصرخ:

- اهدموا كل شيء. لغتكم المحنطة، تراثكم المأفون، أنتم ضحايا نصب. الموتى يعيشون فيكم، ويسلبونكم أعز ما لديكم. يسلبونكم الحلم، فتستبدلونه بالحنين، وتجترون الماضي، ولا تنتقلون البتة إلى الفكر.

أمسكني نادلان يا دكتورة كمجرم. أمسكاني وأحكما قبضتهما علي حتى كدت أختنق. كنت أكلِّم الحضور بما أعلم، لأني أسكنتُ طيفَ ميت بيتي فسكنني وصرفني عن الحياة. كانوا يعيشون في الحاضر، وأنا، أنا من يعيش في الماضي.. المطعم أميركي، وأغلب مرتاديه من الأميركيين ومن رجال الأعمال ممن يتكلم لغة «بيزنس». نظروا باستخفاف إلى من عكّر صفو يومهم، وأزعجهم عن صفقاتهم.. حضر الميتر دوتيل، وسأل ليلي إن كان يتوجب أن ينادي على سيارة إسعاف.. تواطأت هي الأخرى ورأتني بمنظارهم.. اعتذرتْ للميتر دوتيل ونادت على زجاجة ماء.. سقتني من كأس ماء. أشارت علي بأن أستنشق الهواء بعمق. فعلت..

وتظاهرت بأني استعدت هدوئي.. أحنيت برأسي، ثم فجأة انفلتت من ليلي إلى بهو المطعم.. نسيت أن أقول لك إن المطعم بيت قديم، على الطراز الأندلسي حُوّل إلى مطعم... هناك في الباحة، نهضت وأخذت أصرخ بالإنجليزية كي يفهمني مرتادو المكان:

- Shame on you. Money is bullshit. You are doomed 'cause in money you trust... I don't want to be one of yours... I am longing for heroes not merchants, and you are merchants...

كانوا يُصعّدون النظر في ويصوِّبونه، ويصيخون السمع كما لو يستمتعون بما أقول.. استرسلت في الكلام:

- كما بروما ينخركم اللهو. كما بروما تهُدُّكم الدعة... حياتكم عبث. كلٌ سلعة، ولكل شيء ثمن... ومستعدون أن تبيعوا كل شيء، حتى الحبل الذي به تُشنقون.. أضحيتم من دون أن تدروا سلعة. أغرّكم انتصاركم إذ سقط حائط برلين فأخذتم تنشرون دينكم في الخافقين. دين المال.. ونصبتم كهنوتاً جديداً وحواريين جدداً، ومتناً مقدّساً تُبشّرون به وتفرضونه على رؤوس الأشهاد.. كلامي لا ينفذ إليكم، لأنكم أصممتم آذانكم واستغشيتم ثيابكم ووثقتم في تخرصاتكم... وأنا أشد خطراً عليكم لو تعلمون. لأنني أعكس صورتكم... كما في الغرفة السوداء. ترهلتم، وطليتم المساحيق كما قد تتلفع بها امرأة عجوز. تَكذبون الأغرار، من يتولى الرقاب.. المستقبل للأبطال لا للتجّار. المستقبل للأفكار.. وتعبثون بالشعوب، من خلال تكنوقراط لا يعلمون إلا ما علّمتموهم. وتهزؤون من الحكّام. إليك أيها النادل الذي كاد أن يزهق روحي، وأنت أيتها الخادم، من لا تسمعين قولي ولا تفقهينه، وأنت يا حارس السيارات، من يَعُدُّ قِطع النقود، ويعنّفني إن لم أرفه

عليه، أنتم أملي. ينبغي أن تقوموا بثورة ثقافية. . . وإلا ستخرجون من الجغرافيا بعد أن خرجتم من التاريخ. نسغ التاريخ ما يزال يسري فيكم.

كان مرتادو المطعم من العِلية يستمعون إلي، حتى إن أنهيت قولي، انصرفوا إلى أكلهم. . لم يبْدُ أن قولي أزعجهم. ولعله أن يكون سلّاهم وقطع عليهم رتابة حياتهم، كفاصل الإشهار في التلفزيون. ثم انصرفوا للأهم. صفقاتهم، كراكبي التيتانيك، يستمعون إلى حفل موسيقي، وهم ذاهلون عن الخطر المحدق. .

وجدتُني في سيارة الإسعاف. لِمَ؟ لأن أردت الحق والحق أقول. زعمت ليلي أنْ كسرتُ هاتفي الذي كان يحوي مقتطفات من شعر المتنبي، وأن نوبة عرتني أفقدتني رشدي. رمتني بدائها وانسلّت. تسترت عن فعلتها، وتصرفتُ كأني لم أدرك شيئاً. . . أخذوني إلى مصحة الأندلس بأنفا كما لو أني مجنون.

فرغ النزلاء من العشاء بالمطعم. ما أن أنهوا الأكل حتى هبّوا كالتلاميذ ينفرون من القسم، قاصدين قاعة النادي. . . تقدّم الركبَ كافور، وهو يمشي مِشية الجمل، يحرّك رأسه إلى الأمام والخلف. تلاه المتنبي وقد وضع جريدة في شكل مخروط على رأسه، وهو يعزف بأصابع يده كمن يعزف على ناي. تمسك به الفتى ابن جني وقد انحنى، ودسّ رأسه في ظهر المتنبي وهو يردِّد:

- فين هي دارنا؟

ثم يجيب:

- ها هي قدامنا. . .

تتبعهم الزهرة، منسلخة عن الركب وهي تصدح:

- إخوتنا يا لاسلام، ارفعوا بنا الاعلام، زيدوا بنا لقدام. . إلا ما صفات، دابا تزيان. .

داروا عدة مرات في ردهة النادي كما في طواف، والفتى يردِّد السؤال:

- فين هي دارنا؟

ها هي قدامنا. .

بعدئذ صفر كافور فتفرق الجمع. . انسلخ ابن جني عن المتنبي. وتقدّم المتنبي يُقلّد منشد بوغانيم، ويعبث بأصابعه كمن يغني بالناي، وهو يدور حول نفسه من الشمال إلى اليمين ومن اليمين إلى الشمال. صفّر كافور، فكفّ المتنبي عن الدوران، أراد أن يترنم شعراً بالأمازيغية فتوسلت إليه الزهرة:

- ها العار، ما نعرف لسانك، قل لي من الكلام المرصع اللي راه ساكنك.

استدار كافور إليه يستجديه:

- در الخاطر. في سبيل الله. قلب الزهرة بدا يرطَب.

أخذ المتنبي في الإنشاد:

قد بلوتُ الخطوب مُراً وحُلواً
وسلكت الأيام حزْناً وسهلا
وقتلتُ الزمان عِلماً فما يُغـ
ـرب قولاً ولا يجدِّد فعلا
ولقد رامك العداة كما را
م فلم يجرحوا لشخصك ظلا
إن خير الدموع عوناً لَدمعٌ
بعثته رعاية فاستهلا
وإذا لم تجد من الناس كُفأ
ذات خدر أرادت الموت بعْلا
ولذيذ الحياة أنفسُ في النفـ
ـس وأشهى من أن يُمل وأحلى

وإذا الـشـيـخ قـال أفٍ فـمـا مـ
ـل حـيـاة وإنـمـا الـضـعـف مـلا
آلـة الـعـيـش صـحّـة وشـبـاب
فـإذا ولـيـا عـن الـمـرء ولّـى

استمسكت الزهرة بكافور تستجديه كي يشرح لها شعره. ردّ عليها:

- وخلينا نحشمو. راه حنا نوقروك.
- أنت تعرف الحشمة ألخفونس؟
- كلام صعيبب.
- عافاك قل لي أش كيقول؟
- اعطني أمان الله، هو الأول.
- عليك أمان الله.
- قالك إلا المرأة ما لقت اللي. . زعم. . . اللي ما يكون ش بها، اللي ما يأتيها ش، وما يبرد الجوف، ويسكت جنونها. فهمتِ؟ تبي (تبغي) تتزوج بالموت، زعم تموت. واللي في الدنيا زين ما ك يمل ش منو ابن ادم، هو ذاك الشي اللي على بالك. . وألا سمعت شي شيباني قال أح، راه مات له الحوت، وبغي يموت. ماشي الحياة اللي ما بّاش (بغى ش)، ولكن مشات له عصا الرحى. وبلا عصا، الرحى ما تدور. الرحى هي الدنيا، وعصاها راك عرفت، دروك. المتنبي عاق قبل من فرويد بذاك الشي. أنت ما عندك ش مع فرويد، نسيت، بحال جماعة «اخوتنا يا لسلام، زيدو بنا لقدام».

ثم أضاف:

- صافي، اتهنتِ؟..

انتفضت الزهرة وقرصته. أخذ يصرخ:

- أنا المُوتُور (المحرك) عندي نْحيلة (جيد). ما تخافي ش.

- الله يمسخك.

- الله يمسخني، حيث قلتها أنا. وعلاه ما تقولي والوا اللي قالها.

صفّر بعدها كافور الذي كان يقوم بدور المايسترو، فانسحب المتنبي من وسط الحلقة. تقدّم ابن جني وسط الحلقة. وقف كتلميذ يسرد محفوظة، في هيئة منضبطة، ويداه مسدلتان كجندي:

- أجرادة مالحة، فين كنت سارحة، في جنان الصالحة، أش اكلت، واش شربت، غير التفاح والنفاح. جا بابا قادر بعصاتو، والمنديل فوق رأسو، أنى دار فين يبات، واش هاذي ولا هاذي...

صاح كافور على أثَر ابن جني:

- صاحّة أليشير.. الربطة بدأت تنحل.. أنى دار فين نباتو، هي المشكلة كيما قال شكسبير. ما عرفنا فين نحطو، في الشرق، ولا في الغرب.

ردّ المتنبي:

بالشرق والغرب أقوام نحبهم

فطالِعاهم وكونا أبلغ الرسُل

عقب كافور:

- ثَم وقف الشيخ في العقبة. ما عرفنا راسنا من الشرق ولا من الغرب. نخرجو من الرباط، هي الأولى، ونشوف من بعد اللي نبغيو

واللي يبغينا. Case by case. دراسة كل حالة. ياك أليشير؟

حرّك ابن جني رأسه بالإيجاب.

ردّدت الزهرة تدعو للفتى:

- سر أو لوليد، الله يكوّن منك.. الله يعمي عليك العين الشينة. الله يحفظك بالشبة والحرمل، ويفك حزامك، ويخرجك من دار العيب اللي حنا فيها بلا عيب.

صفّر كافور، فتقدّم المتنبي وسط الحلقة وأخذ ينشد:

ما الخِلّ إلا من أود بقلبه

وأرى بطرف لا يرى بسِوائه

لا تعذل المشتاق في أشواقه

حتى يكون حشاك في أحشائه

والعشق كالمعشوق يعْذُب قربه

للمُبتلى وينال من حوبائه

صفّر كافور. توقّف المتنبي عن الإنشاد. تقدّم كافور وسط الحلقة. شرع في الرقص، الرقصة المعروفة في زاكورة بالركبة، وهو يُقدّم ركبته ويرفعها.. أخذ المتنبي ينقر على طنفسة كما لو هي طبل. شجّع ذلك كافوراً، وأخذ يمشي جيئة وذهاباً وهو يقدّم ركبته، ثم يصرخ صرخة مدوية، يعقبها نداء الزهرة:

- العز والرضى...

حمى وطيس التطبيل على الطنفسة من قِبل المتنبي. كان كافور ينضح عرقاً وهو يحرّك رأسه بشكل انفعالي، كما لو هو في حالة وجد أو حيرة كما يُسمّى في المغرب... تقدّم وسط الحلقة، ورفع ذراعه اليمنى. أدرك المتنبي الإشارة، والتحق به. أخذا كما لو

يتراشقان بالسيف، يمثّلان رقصة ضربة السيف بمنطقة درعة.. يشفع كافور بصيحات مرافقة للرقص يهتز لها المكان. الزهرة تزغرد وابن جني ينظر إليهم وهو يكرِّر:

- المجد للسيف ليس المجد للقلم المجد للسيف ليس المجد للقلم المجد للسيف...

فجأة عنّ الماجور. صاح على أثرهم بأن وقت الاستراحة انتهى. صفق إيذاناً على النهاية. توقفوا للتو. وقف كل واحد خلف الآخر وهو يقدّم ذراعه للماجور. حقنهم. خفَت صوتهم، وأخذوا يردِّدون:

- قولوا لي يا ناس، ماذا تعرفون؟

أخذوا يكررونها كلازمة دون أن يتحولوا عنها. غاروا في دهليز المصلحة نحو المرقد. تناهى صوتهم خفيتاً:

- قولوا لي يا ناس، ماذا تعرفون؟

ثم ما لبث أن انقطع.

دعيني آسى بشعر المتنبي ولو هو شفرات تقدّ جسدي. لست أرى تعبيراً أبلغ عن الهجر الذي بلوته ممّا قاله في هذين البيتين:

وما صبابة مشتاق على أمل

من اللقاء كمشتاق بلا أمل

والهَجر أقتلُ لي مما أراقبه

أنا الغريق فما خوفي من البلل

ويا ليته كان هَجراً. بدأ هَجراً وانتهى صرْماً. كأن اقتراني بليلي لم يكن إلا حلماً أو خلسة المختلس... أُبْلغتُ الأمر من قِبل البوليس. النداء المعلوم. الرجاء الالتحاق بمفوضية الشرطة لأمر يهمك. وهرعت إلى المفوضية. أخبرني ضابط بالحدث المفجع. ماتت ليلي. ماتت سليلة الأندلس. ماتت من حملت نفحها الطيب. ماتت جرّاء حادثة سير. كنت في حالة من الذهول كي أثبت على شيء أو أقف على أمر. لا يمكن لليلي أن تغيب. لا يمكن للموت أن يغيّب ليلي قبل أن تسفر عن أسرارها أو تقول كلمتها. لا يمكن لمن سكنتها الأندلس أن تذوي أو تغور.. وإذ ذهبت ليلي فقد ذهبت الأندلس... وهل أنكر هيامي بالأندلس؟ بعمرانها، بجمالها،

بجنانها، بعقلانيتها. . تناسيت إذّاك مجونها واقتتال حكّامها. . لم أكن أفكر إلا في هذه الروح التي اغتالتها الأقدار. ذهبتُ إلى مستودع الأموات بمستشفى ابن رشد بالدار البيضاء. الإجراءات الإدارية المقيتة. المؤلم ما أطلعني عليه ضابط الأمن. زاغت سيارة ليلي على الحافة وارتطمت بعمود كهربائي. . تلك هي الأقدار. وكانت مصحوبة بشخص. وهل ذلك من الأقدار؟ تبدّد الشخص. انفلت. هرب. كان باب السيارة المجاور مفتوحاً وآثار بصمات شخص ممّا أكّده البوليس العلمي. . وأفادت شهادات من عين المكان أن شخصاً فرّ فور ارتطام السيارة. شوهد وهو يهرع في اتجاه حي شعبي. سألني الضابط إن كنت أريد أن تقوم عناصر الأمن بمسح وتطويق الحي للإلقاء القبض على الشخص المشبوه. ما الفائدة؟ هي الفضيحة. ولست محتاجاً إلى البوليس العلمي كي أعرف جلية الأمر، ولا إلى تحليل آثار البصمات كي أدرك حقيقة الأشياء. . كانت لي تحليلات أخرى غير تحليلات البوليس العلمي، وكانت بصمات المتنبي ماثلة للعيان. هو المسؤول عن مقتلها. ما كان للسيارة أن تزيغ لو لم يُغوِ أميرتي الأندلسية بسحر قريضه. . تصوّرت الأسوأ. تصوّرته يضع يده على فخذها، أو يضغط على يدها. صرفها عن التركيز فزاغت عن السبيل. . لم يمت وهو من كان ينبغي أن يموت. . لا يزال حياً، يعيش في حي شعبي. . أراه وقد تقنّع يبيع السجائر بالتقسيط على كارتون. أو على عربة يبيع الخضر. . ويصيح: الدلاح أحلى من العسل، والطابع من عندي، لهلا يغلّيها على مسكين، أو باللهجة المصرية: بطيخ زي العسل، أو يشتغل ميكانيكياً في كراج. . حتى لا يطّلعَ أحد على أمره. حتى

يتستر على جريمته. إلى أن تُنسى، ثم يعود بعدها. . حيث لا يمكن أن يتوقع أحد الأمر. في بوتلميت أو توزر أو أم درمان، أو بصنعاء أو القطيف، أم يعود إلى الكوفة مسقط رأسه، أو ينزل حلب. لهفي على حلب. . . لهفي على الشهباء وأهلها، وعلى الفيحاء وأريجها، وحمص وحماة، وكل شبر من الشام. . قد يرتحل الوغد إلى باريس. . ومن يدري؟ بلغني أنه يختبئ في مراكش، عند أستاذ جامعي يأويه في حي الداوديات. راودتني نفسي أن أتعقبه. . ما الفائدة. فضيحة بجلاجل كما يقول المصريون.

أخبرت فابيوس الأمر. خبر وفاة أمه، أو مقتلها على الأصح. أتى للتو من باريس. قرّ قراري أن أدفنها بالمقبرة غير البعيدة عن قصبة شالة، المعلمة التاريخية التي تحمل ميسم عمران الأندلس وروحها. في مكان حمل آثار الفينيقيين، وبعدها الرومان، وجعله المرينيون مقبرة لملوكهم. في مكان يطل عليه مكتب ليوطي، منشئ المغرب الجديد. . هناك أردت لليلي أن ترقد الرقاد الأبدي.

ليلة الدفن، رافقت فابيوس إلى الكنيسة. كنيسة القديس بطرس في الساحة التي كانت تُسمّى باسم الأب بطرس، وأضحت تُسمّى بساحة الجولان. كي يصلّي على روح أمه. لم يكن لأمه أن تتأذى من الاسم الجديد للساحة. أحبت الشام، هي بنت الأندلس. أوقدنا الشموع، ونكس فابيوس رأسه متبتلاً فيما كنت أسترق النظر يميناً وشمالاً، من فوق وتحت. كنت قررت أن أدفنها وفق طقوس المسلمين. فأنا أقرب الناس إليها. هناك، فابيوس، ولكن الناس لم تكن تعرف حقيقة فابيوس ويعرفونه بسامي. ولم يكونوا يعرفون أني وروبرتو نشترك في أبوة فابيوس. ولم يكونوا ليعرفوا أن فابيوس نفسه

لم يكن يعرف. اكتشف مسيحيته حين ماتت أمه، وكان يمكن أن آخذ بيده ليكتشف يهوديته الراسبة في وجدان أمه، ممّا لم يكن ليخفى علي. كان فابيوس أقرب إلى تراث الرومان والإغريق منه إلى المسيحية واليهودية. . حضر روبرتو الجنازة، وذابت خلافاتنا آنذاك. كنا نحمل حزناً صادقاً لميراث أثير اعتلقنا به. أضحينا أسرة واحدة، أنا وروبرتو وفابيوس. جمعتنا ذكرى ليلي. كنت أعرف ما لا يعرفه روبرتو ولا فابيوس. كنت أعرف الجاني. المتنبي. أنا والأمن. وكنت أعرف ما لم تعرفه ليلي قيد حياتها، وما لن يتأتّى للأمن أن يعرفه، أن جذورها الثقافية لاتينية، وأن ما زعمته من عروبة تدليس، وأنه لم يكن لها أن تقترن بأجنبي حسبته من بني جلدتها. ولكنها ماتت ويصعب أن نراجع الموتى فيما كانوا يعتقدون.

هل تريدين الحقيقة؟ وهل يمكن أن نتستر عن الحقيقة في هذا البوح؟ أخبرني الضابط عن إجراءات أخرى قامت بها الشرطة القضائية. كانت ليلي حاملاً. سألني الضابط إن كنت أريد أن يُجروا تحليل الحامض النووي للجنين؟ كان نصلاً آخر ينغرز في صدري. كانوا يوحون بأن ليلي لم تكن لي لوحدي، وأن الجنين قد لا يكون من صلبي. ألا يوحي المتنبي بذلك في هذا البيت الذي يفضحه:

وقد طرقت فتاة الحي مرتدياً
بصاحب غير عِزْهاة ولا غَزِلِ

والصاحب الذي يعني هو أداته، والعزهاة من لا يقرب النساء، والغزِل من يكتفي بالكلام، أو ما نسميه نحن في المغرب بـ «الشفوي».

ما الفائدة أن أعرف أن الجنين كان ابني أنا أم ابن المتنبي ما دام أن الجنين قد مات، وأمه قد ماتت. ما الفائدة أن أعرف حقيقة ممضّة. يكفي أن أعرف أن ليلي لم تكن لي لوحدي.. وعزائي في فابيوس. ابن ليلي، حامل تراث اللاتينيين، ومن أصبح لي ابناً بالتبني.. مَن صالحني مع عمقي التاريخي ومرحلة الرومان منه..

لماذا أدخل في صراع مع روبرتو ولماذا لا أتصالح مع روبرتو؟

ولكنكم لم تتركونني أتصالح معه، ولا أن أتعهّد فابيوس أو سامي، ولا أن أحزن على رفيقتي في الحياة. منذ وفاة ليلي، أو مقتلها، ولا أدري متى. تختلط علي التواريخ، 1212، 1492، 1609، أو 2017، تاريخ هذا البوح. أعلنتموني مجنوناً وأحكمتم قبضتكم علي وسجنتموني في هذا الرباط، وسيّجتموني، ومنعتموني لُقيا ذويي ولقاء من أحب.

كان لا بدَّ أن أعيد تمثيل الجريمة. أعدت قراءة شعر المتنبي. غزله بليلي. اعتداده ما سحر ليلي، لفظه الفخم ما خدع ليلي. وما انفكّ يخدع الأغرار.

والذي حدث أني نفسي وقعت تحت سحر المتنبي. أحسبه حين يتحدث فكأنه يحدث بخواطر الناس.. لماذا أعادي المتنبي وقد ذهبت ليلي؟ لِم أعادي أهل ليلي، ومن تحسبهم أهلها، وقد أحببتها، وأضحى حبها لأهلها وصية أو أمانة في عنقي... لا أعادي أحداً، ولكني أريد أن أخرج من هذا الضيق الذي أنا فيه. ذكرى الأموات تثقل علي.. تكلّمني وتلحُّ علي أن أبعث فيها الحياة.

دعيني أسلُ بهذا الرثاء الصادق والقول الجزل ممّا قاله في خولة وأقوله في قرينتي التي غابت إلى غير رجعة:

لا يملك الطَّربُ المحزون منطقَه
ودمعه وهما في قبضة الطرب
يُظنُّ أن فؤادي غير ملتهبٍ
وأن دمع جفوني غير منسكب
بلى، وحرمةِ من كانت مُراعية
لحُرمة المجد والقُصّاد والأدب
ومن مضت غيرُ موروث خلائقها
وإن مضت يدُها موروثةَ النشب
يعلمن حين تحيا حُسن مبسمها
وليس يعلم إلا الله بالشنب
غدرت يا موت كم أفنيت من عددٍ
بمن أصبت وكم أسكت من لجب
كأن خولة لم تملأ مواكبها
ديار بكر ولم تخلع ولم تهب
أرى العراق طويل الليل مذ نعيت
فكيف فتى الفتيان في حلب
فليت طالعة الشمسين غائبةٌ
وليت غائبة الشمسين لم تغب
وليت عين التي آب النهار بها
فداء عين التي زالت ولم تؤب
ولا ذكرتُ جميلاً من صنائعها
إلا بكِيت ولا ودّ بلا سبب

ولا ودّ بلا سبب.

العالم قحِل وقد غابت أميرتي الأندلسية، وقد اغتالها صناجة العروبة حين استدرجها واستغواها بلغته وسحرها. الحياة بعدها سمجة، يا نجيّة.

قولي لي دكتورة، هل ستنبعث أميرتي الأندلسية من رقادها الأبدي؟ سأغفر لكم إن عادت. إن أنتم بعثتموها. سأغفر لها كل شيء.

كان الجو خريفياً، إلا أن الشمس كانت محرقة والجو حاراً. خرج المجانين في جولة الصباح. كانوا يدورون في حلقة، الواحد تلو الآخر... كان الصمت يلفّهم والحزن يشملهم، كما لو أنهم في مأتم. سوى ابن جني الذي كان يزمزم باللازمة نفسها كما لو ينادي حياً:

- يا زمان الوصل، يا زمان الوصل، يا زمان الوصل...

كانت الدكتورة فنيش ترقب المشهد، مصحوبة بامرأة مسنّة ترتدي جلباب نسوة على الطريقة المغربية، وتضع على رأسها غطاءً يلف رأسها ويبدو منها الوقار والحزن...

انبرى كافور في غضب:

- حُلُما في الخرى..

ثم أردف في اتجاه ابن جني:

- باركة، صدعتينا..

عقب ابن جني:

- خلسة المختلس..

ثم أخذ يردّدها:

- خلسة المختلس، خلسة المختلس، خلسة المختلس...

ردّ كافور في حنق:

- أجّا ما يسكتو.

تدخّلت الزهرة، وهي تدور خلف المتنبي، متوجّهة بالحديث إلى كافور:

- خليه يفوج على قليبو، راح مقروح..

- گاعنا مفجوعين...

ردّت عليه:

- أنت اسكت، لو كان فيك الخير، كنت تقرا كلام الله...

- ما رانيش على وضو ألزهرة..

- اقرا الدعاء المستجاب.

- واش اللي مفاقم يقرا شيء حاجة، وتستجاب لو شي حاجة.

- إو اسكت...

كان ابن حني لا يزال يتلو اللازمة:

- خلسة المختلس، خلسة المختلس...

كانت الدكتورة فنيش تتابع المشهد. تُرى، تساءلت الطبيبة، هل حزنهم راجع إلى العمل الإرهابي الذي ضرب برشلونة؟ هل لهم وعي بما يجري؟ هل لذلك أخذ ابن جني يرثي زمان الوصل بالأندلس... لا يمكن ألا يكونوا على علم بما جرى حينما أقدم إرهابي على دهس مواطنين ببرشلونة في أغسطس 2017. كيف ينظرون إلى الأندلس وهم يردّدون لازمة الوصل؟ هل الوصل هنا يحيل إلى فترة انقضت، أما ترقّب لشيء سيأتي؟... شعرت لحظتها

أنها مثلما يقول كافور شامبر نوار، أو الغرفة السوداء لهم، مثلما هم الغرفة السوداء للمجتمع. . . هم مرآة مجتمع. وأخذت تنظر إلى ذاتها من خلالهم. . . من خلال هلوساتهم وزمزماتهم، بل صمتهم. . . الأندلس فكرة وليس لحظة تاريخية. . . فكرة تصاغ دوماً. لا يمكن أن تستقيم من دون احترام الإنسان في كل أشكاله وضروبه: نزوعه العقلاني، ميله الروحي، كلفه بالحياة ومباهجها. في احترام عقائده. المتنبي الشاعر، أو ما تعرفه عنه، من خلال ما استقته من نزيلها الذي يَكْلف به ويتلبس شخصيته، لا يقول بذلك. . المتنبي نخلة فارعة في فلاة. الأندلس حديقة غنّاء، برياحينها وورودها وأزهارها المختلفة ألوانها وأشكالها، وسواقيها وخرير مياهها.

ثم تذكرت المرأة التي بجانبها. أعادها الواقع إلى نفسها. انفتحت إليها في أدب:

- سيري أللا عند الأستاذ وكلميه. .

ردّت السيدة في انكسار:

- كلمتو وما عرفني ش. من الوقت اللي مات امراتو وهو بحال هكذا.

كانت المرأة محجوبة الخادم وقد نادت عليها الطبيبة كي تحدث رجة في المتنبي، أو من يحسب نفسه المتنبي، مذ ماتت زوجته، عسى أن يستفيق ويسترد وعيه.

ألحّت الطبيبة على محجوبة أن تعاود الكرّة. كان المتنبي يدور في المكان ذاته بلا انقطاع، ورأسه منكس على الأرض. وقفت محجوبة بنقطة وهو يدور في المكان ذاته دون أن يتلفت إليها. لم

تثبت فنادت عليه. رفع رأسه. توقف. تفحّصها. انقشعت أساريره، ثم انبرى فجأة يغني:

محجوبة اش هاذ شي يا خيتي
محجوبة أش هاذ الشي اللي درتي
درت الصاية فوق الركبة مقزبة
كتجلسي وتنوضي معذبة
واش هاذ الموضة مواتيك قولي لي
تقلدي الغرب زعم قولي لي
وعلاش
علاش خليتي الهمة والشان
أمحجوبة..

التحق به كافور. أخذ يغني على منواله:

محجوبة اش هذا الشي أخيتي
محجوبة أش هاذ الشي اللي درتي
درت الدرة فوق الراس محجبة
كتمشي وتجي معذبة
واش هاذ الموضة مواتيك قولي
ومقلدة الشرق زعم قولي
وعلاش
علاش خليتي العصر والزمان
أمحجوبة.

انبرى المجانين يغنون أغنية محجوبة، على المنوالين. تغيّرت

الكلمات دون أن يتغير الإيقاع. تغيّر المحتوى دون أن يتغير القالب. يمكن تغيير المحتوى من دون تغيير القالب، رددت الدكتورة مع نفسها. القالب معهود لدى النزلاء. لسوف يخبطون العشواء إن ضاع منهم الوعاء الذي عهدوه أو انكسر. ليس المهم الوعاء ولكن المحتوى. ينبغي الحفاظ على الوعاء لأنهم من دونه سيتيهون وتغيير المحتوى. لم تتمالك محجوبة فأخذت دموعها تنهمر على خديها. لم تكن تتصور أن تؤول الأمر بسيدها إلى الحالة التي لم يعد يميز شيئاً. لم يكن يبدو لها أن أموره تحسّنت منذ أن أُدخل المصحة.

سحبتها الدكتورة فنيش في رفق. ردّت محجوبة:

- الكتابة ترد به.

عقبت الدكتورة فنيش:

- اش من كتابة؟

- السادات والاولياء.

- ما نعرف.

ثم توجّهت إلى الماجور بالفرنسية:

- اتركهم وحالهم. لا تدخلهم إلى غرفهم. دعهم بالساحة ولا تحقنهم.

اصطحبت بعدها محجوبة إلى مكتبها.

ألا تكون الأسماء دالات لمدلول أعشقه، وأبحث عنه؟. . .

هي الأميرة الأندلسية التي لم يطمر الزمن ذكراها. تعود صورتها، في غياهب اللاشعور، في كهولتي، كي أستأنف الحياة والأمل، وأبعث الرجاء والأمل. توجد كفكرة لا تني تتحول. من شخص إلى شخص. ومن صورة إلى أخرى. ومن زمن إلى آخر. تنتقل من الذكرى، ومن الحنين، إلى الأمل. ما أشد صمود الأحداث وقد تولت، والأشخاص وقد تواروا أو قضوا، حين يتحولون إلى فكرة. الفكرة مادة الصمود أمام عوامل تعرية الزمن. الذكرى حدث محنّط، والفكرة بذرة تحمل رواء الحياة. الذكرى مادة، والفكرة روح.

أرفض أن أُحقن. أرفض أن أتناول الدواء. دائي خير ممّا تزعمون أنه الدواء.

تزعمين أن ليلي لم تمت لأنها لم توجد، وأنني ضحية هلوسات وذهان واختلاق. وهل تريدينني بلا حلم؟ وهل نحيا بلا أمل؟ وهل يُفصل الإنسان من ذاكرة ويُنزع من حلم؟ وهل ينبني الحلم من غير مادة الذاكرة؟ انظري حولك، هذا الجسم الذي أصابه الصَّرع،

وعالَماً يخلط بين الداء والدواء، وبين العَرض والسبب، وهو إلى ذلك مصاب بسكيزوفرينيا مُثبطة. لا يقوى أن ينظر في شؤونه، ويرمي بالتعلّة على الآخر ويجعله مسؤولاً عن أوصابه. أروم الانعتاق. أسعى أن أنفلت من هذا الرباط، كي أميّز ما بين الدال والمدلول، الواقع والصورة، والعرض والسبب، والحقيقة والتوهمات.

ألا يجوز أن أحنَّ لشيء مضى، وأشرئب لشيء يأتي، أو أريده أن يأتي؟ وكيف سيأتي إن لم أبعث الذاكرة، ولم يسعفني في ذلك الجنون كي أصوغ منه فكرة؟

من جسدي شيء انسلخ، سيدتي، لقرون، هذا الذي يسميه الإغريق بالروح الأخت... وأنا البربري، أبحث عن الروح الأخت، لأنها من ضلعي خرجت، أسكن إليها، وفيها أودع بذرتي. وقد تصالحني مع العالم، وقد تهدئ من الاضطراب الذي ما انفك يشملني.

تزعمين أن المتنبي هلوسة وتوحين بأنه سراب. وهبْه سراباً.. تصوري لو لم يوجد. تصوري للحظة، هذا الفراغ المهول الذي كان سيحدثه فراغه. كعقد بلا واسطة.. وهل نستطيع أن نعيش من دون رموز. لازمني المتنبي خلال وحدتي وسرّى علي. بدعائه للقوة، لأن العالم بلا قوة «حجة لاجئ إليها اللئام». بدعوته للتمرد، لأن لا افتخار إلا لمن لا يضام، لأن الرضى بوضع مأفون ذل، بل هو ممات، بالذهاب إلى أبعد مدى في كل خيار، كما في قوله:

ولم أرَ في الناس عيباً
كعجز الكاملين على التمام

بإيمانه بالعقل، وبلغته. . . اللغة جزء من هذه الصحبة. من هذا البناء. هي موثق.

أحب الأميرة الأندلسية وما تحمله، وما توحي إليه. وإن هي ضاعت مني. . . أو تبدّدت. ويبقى أريجها أو نفحها الطيب. ثم جراح ونكبات، نسعى جهدنا أن نجعل منها معراجاً عوض مشجب وحائط مبكى. أحِنُّ لهذا السرّ الثاوي من العبقرية الإغريقية الذي حفظته الأندلس وحملته الأميرة الأندلسية. من العقل، من التدليل. . وهذا ما انتهيت إليه في هذا الرباط الذي أوثقتموني فيه، وزعمتم فيه أني مجنون ينبغي أن يُعالَج كي يطابق ما تواضعتم بشأنه. وأنا لا أريد أن أكون على شاكلة هؤلاء الذين ترونهم أصحاء العقول والأذهان. . . مَن تحكمهم المصالح أو تحركهم الأحقاد، أو من لا يزاوجون ما بين الوجدان والعقل، أو من أحكموا رقابكم وخنقوا أنفاسكم، وسلبوكم روحكم. بلا ذاكرة، بلا معرفة، بلا تصور.

وهل كل أرواح الأسْد ضراغم، كما يقول المتنبي؟ أليست تسكنهم قلوب الكلاب، ولو تبدّوا في صور أُسْد غلاب؟

فمتى تخرجونني من هذا الرباط الذي أوثقتموني فيه، من خلال تصور جاهز وحكم مسبق؟ لأنكم أنِستم بالأشكال والأشباح، أو بالمادة من غير روح؟

أسرّت لك الخادمة بأن لا بشرى ولا ليلي سكنتا بيتي وشاركتاني حميميتي، وأن لم ترهما عينها قط، ودفعت أن زوجتي ماتت، وأن حزنها هو الذي أناخ علي وأثقل، فلم أعد أبصر. . .

كل ذلك ظاهر الأمر، وينبغي أن ننظر إلى مآسينا في باطن أنفسنا ونغور فيها. اشتركت أنا والمتنبي في حبّ امرأة، أو إن تريدين كلاماً غير كلام المجانين، اشتركت وامرأة في حب المتنبي، وكانت تحمل روح الأندلس، وكانت تريدني أن أفتح لها مغاليق فردوس انغلق. وكانت تحمل أملاً في الانعتاق، وكانت تلظى لما تراه.

كانت عينها على ذويها، أو من تحسبهم ذويها، وكان قلبها يستعطفني، في كل لحظة: إياك أن تعرض عن أهلي، إياك أن تشيح عنهم... وأصبت بتوزّع شديد. خشيت التناقض، ثم انثنيت بعد تملي أردِّد: وما الحياة من غير تناقض، وما الإنسان إن لم يُجرِ ترتيباً لما يبدو متضارباً ولم يحسن تدبير ما هو مختلف؟ لأن الحياة تطفح بالتضارب، وتمتلئ بالتمايزات، وجمالها في اختلافها، وحركيتها في تضاربها. لماذا نروغ لصورة منمطة، ولون واحد، وفكر جامد، إن كان للفكر أن يكون جامداً؟ لِمَ أنظرُ بعين واحدة وقد أُتيتُ عينين، ولمَ أمشي برِجل ولي رجلان، ولمَ أبترُ يدي، وقد وهب لي التاريخ يدين؟... نعم أنا عربي أمازيغي، أو أمازيغي عربي.

وليس يهم أن تكون تلك المرأة قد وُجدت أم أني اختلقتها، وأوجدتها بعدة أسماء، أو أنها سَكَنٌ لفكرة، ولا يهم أي اسم تحمله، أو قد تحمله، والمهم هو تلك الروح التي سكنتها... أنا من أنشأها. كآدم لا يستقيم له العيش من دون صاحبة أخرجها من ضلعه. أنا من طهّرها من لغة مقعّرة، ومن كَلَف بالمُلح والجري وراء المتع. كي تصبح فكرة. فكرة محرّرة.

حملتْ أو حمّلتُ روح الأندلس مَن أوجدت. في حبها للجمال، في كلفها بالمعرفة وميلها إلى العقل، وكانت تجسّدها وقد

كسبت اختبار الاجتياز، من خلال معرفتها للغرب، لسانه وشؤونه. . ومن خلال إتقانها لمهنتها. وهو الأمر المهم في السعي إلى الانعتاق. أن نتقن ما نضطلع به. أياً كان.

لا تستبد بي الذكرى، سيدتي، ولا الحنين، لأني أريدهما رفقة ليس إلا، أو وقوداً للفعل. . لا مُعدّى من الكدح والجهد. ثم التلقيح بما انتهت إليه التجربة الإنسانية. والعيش مع قد يظهر تناقضاً، بل تضارباً. الحياة ليست ميكانيكية. الحياة تطفح بالتضاربات. الحياة ليست نهراً صافياً، بل طميه هو ما يحمل الخصب. ولذلك لا أهوى الصفاء. صفاء الأجناس، وصفاء المعتقدات، وصفاء الأيديولوجيات. .

تصوري دكتورة، لو لم تجد أنّتي من يحملها، هل كنت أستطيع أن أبوح بها، فتبلغك، وتجعلين منها مادة تحللينها كي تقفين على مواطن اختلال منظومة وتُشخّصين أدواء جسم جماعي. . كانت الأميرة الأندلسية قابلة ساعدتني على الوضع. عالجت مخاضي، حتى استوى الوليد. ارتحلتْ أو ارتحلتُ، لا أدري، وكان من تلك العلاقة أمشاج وليد يضطرب في وجداني. وهل يبقى الوليد من غير حاضن؟

هل لك أن تصيخي لهذه الأبيات من شعر المتنبي:

أُسَرُّ بتجديد الهوى وذكر ما مضى

وإن كان لا يبقى له الحجر الصلدُ

سهاد أتانا منك في العين عندنا

رقاد وقلام رعى سربكم ورد

مُمثلة حتى كأن لم تفارقني

وحتى كأن اليأس من وصلك الوعد

وحتى تكاد تمسحين مدامعي

ويعبق في ثوبي من ريحك الند

ولكن حُباً خامر القلب في الصبا

يزيد على مرّ الزمان ويشتد

أفضّل وضع مجنون، على تصور جامد في قالب جاهز. العالم الحديث يضع الأشياء والتصورات والأشخاص في قوالب... ينبغي معرفة أسراره، لتجاوزه، ولا تجاوز له من غير معرفة له. هو عالم من غير سحر، مثلما انتهى إلى ذلك ماكس فيبر. هي ضريبة العقلانية، ولكن ما الحياة من غير سحر، ومن غير حلم؟ العالم أرحب من تصورنا، والحياة أوسع من رؤانا، والتاريخ أخصب من خيالنا، فلمَ نحبس أنفسنا في تصورات قائمة وقوالب جاهزة، ولمَ نلقي عرض الحائط بما لا يطابق أحكامنا؟ ينبغي أن نحسن الحلم، لأن لا حياة من دون حلم، ولا ينبغي أن نلقي بالذاكرة، لأنها ما يؤثر في تصرفنا، وينبغي أن نروضها حتى لا تشطح بنا، وينبغي أن نحسن التفكير البارد... ليس هناك تفكير من عدم. التفكير يحمل الذكرى والحلم دون أن يجافي الحاضر وقراءة الواقع. التفكير هو الوسيلة لمعانقة العالم. كل حالة من هذه الحالات مفصولة عن الحالتين الأخريين تفضي إلى اضطراب، مثل حلم بلا ذكرى، أو ذكرى بلا فكر، أو فكر بلا حلم، أو ذكرى بلا حلم ولا فكر.

ويعجبني قول المتنبي إذ يقول:

أغالب فيك الشوقَ والشوق أغلب

وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

ويـوم كـلـيـل الـعـاشـقـيـن كـمـنـتُـه
أراقـب فـيـه الـشـمـس أيّـان تـغـرب
وعــيــنــي إلــى أُذُنَــيْ أغــرّ كــأنــه
مـن الـلـيـل بـاقٍ بـيـن عـيـنـيـه كـوكـب

دكتورة، أنا كذلك أرقب الشمس في هذا الليل البهيم، من هذا الرباط الذي سقتموني إليه، وكمنت به، وعيني على التاريخ، وعلى دينامية المجتمعات كما كان المتنبي يرقب أذني فرسه، تخبره الخطر حيث يكون، وكأن فرسه أو فراسته كوكب ينير في الظلماء.

يوم الاثنين صباحاً على الساعة الثامنة والنصف، حضر الماجور كالمعتاد مصلحة المرضى النفسيين بمصحة بوسيجور. استفاد من الجسر، إذ كان يوم الخميس عطلة، ولم يشتغل ليوم الجمعة. أجازت له الطبيبة العطلة، ونفحته نائلة، كي يأخذ عطلة بإفران. يزدان إفران في الخريف. دخل مكتبه منشرحاً. فتح دفتر البرمجة. ثم وضع أمامه ملف كل نزيل، ونوعية الدواء، ومقداره وحصص الاستشفاء وبرمجتها.

سيحقن المجانين بعد الفطور مباشرة، من أجل تهدئتهم، حتى لا يبدر منهم تصرف غير محتسب، وسيخرجون للنزهة الصباحية. وبعد الظهر سيهيّئ حصة الاستشفاء للمتنبي مع الدكتورة فنيش. سيحقنه بحقنة قوية. كان رفض أن يحقن في المرتين السابقتين بتواطؤ من الدكتورة فنيش. لن ينصاع الماجور لتعليمات الدكتورة فنيش وقد أخذ الوعي يزيح الجنون من النزلاء كما الفجر يطرد الظلماء.

كان الماجور على صلة بالأمن، ويمد عناصره الرابضة قرب المصحة بمعلومات عن النزلاء، وكان على خلاف ما تأمره به

الدكتورة يضاعف من الحقنة المسكنة، لا لكي تُحدّث البنية العميقة عن ذاتها، وتبوح بأسرارها كي تسهم في ترتيب الذهن، وفرز الواقع عن التوهمات، ووضع حدّ لاضطراب الأزمنة، بل لكي يأتي عليها. كان يأتمر ظاهرياً بما تأمره به الدكتورة فنيش، ولكن صلته بالأمن جعلته يروم غير ما تروم الدكتورة فنيش. لم تكن غايته العلاج لأن الأمن لم يكن يريد العلاج. كانت فنيش تأمر بمسكنات تُحْدث هلوسات من أجل الدفع بالبوح، في أفق العلاج واستعادة الوضع الطبيعي. أما الأمن من خلال الماجور فكانت غايته هي محو القرص الصلب، ومحق الذاكرة، والقضاء على الحلم، من أجل التدجين النهائي للنزلاء.

لم تكن الدكتورة قد حضرت بعد. لن تتأخر. هي منضبطة كساعة سويسرية.

قطع تفكّر الماجور وهو يقلب كل ملف رنة هاتفه المحمول من رسائل «واتساب». لم يأبه به. توالت الرسائل. فتح هاتفه. كانت رسالة من الممرضة جميلة.

نظر إلى الرسالة. أمعن النظر في شاشة تليفونه. الرسالة من جميلة مع صورتها. الرسالة واضحة. «هرب المجانين».

هل تمزح جميلة؟ علاقته بها مهنية، ولماذا تمزح الممرضة بشيء مستحيل أصلاً. الأبواب موصدة. الأمن متربص. الكاميرات مثبتة في المعابر. المسكنات التي يتناولونها لهم تجعلهم غير قادرين على المبادرة والمغامرة فبالأحرى الفرار.

من أجل أن يزيح أي لبس، قصد المرقد. وجد الغرف فارغة

ليس بها من أحد. ذهب إلى المطعم، لم يجد به إلا الطبّاخين والنُّدُل. لم يجرؤ أن يسألهم لأنه سيظهرهم على تقصيره. قصد النادي. كان فارغاً. أسرع الخطو في اتجاه مكتب الدكتورة فنيش. كان مغلقاً. حمل هاتفه كي يتصل بها. وجد سلسلة من رسائل جميلة عبر الواتساب. فضّل أن يتصل بالطبيبة أولاً قبل أن يقرأ رسائل جميلة. يا لدهشته حين ردّت عليه الآلة: لا يوجد مشترك في الرقم الذي تطلبونه.

كان هادئ الطبع، ولذلك لم يرد أن يُقْدم على شيء قبل أن يتأكد. عاد إلى مكتبه، وفتح رسائل جميلة.

الرسالة الثانية: أنا جميلة التحقت بالمجانين.

الرسالة الثالثة: أنا كافور، هذه رسالتي إليك الماجور:

لا جدوى أن تبثوا إعلان بحث. نحن فكرة ارتدينا تصورات وتقنَّعنا برؤى، ولذلك استعصى على الأمن أن يضبط حركتنا. سنستجم مرحلياً قبل العودة والانغمار في المجتمع.

من العلبة السوداء يمكن أن نغيّر الواقع. من تصور للعالم. من الفكر. الرأي قبل شجاعة الشجعان كما يقول المتنبي. هو البداية.

الرسالة الرابعة: أنا منى فنيش. أحتفظ بذكرى مهنية طيبة على العموم بك السيد الماجور، ولو كنا من حيث الطبع والمقاربة مختلفين. من أجل الانعتاق ينبغي أن نقطع مع العلائق السابقة، أن نفك الأغلال، مثل «المجانين» الذين ما كانوا ليدركوا الحقيقة لو لم يقطعوا الحبال التي توثقهم.

مجتمعات لا تصيخ السمع لـ «مجانينها» لن تذهب بعيداً.

أهم شيء في الحياة، مثلما كان يقول «المتنبي» مستشهداً بسبينوزا الفهم، ولا يستقيم الفهم بلا عقل، ولا يقوم العقل بالهوى والظن والمصلحة. ونحن مجتمعات تشكو خصاصاً في الفهم، وتخمة في الحكم، بلا روية، ولا تبصر، ولا بحث ولا تفكر.

كان للرباط الذي كنا به أن يكون ثقيلاً بلا معنى، وسمجاً بلا نكهة، لو لم يفرز «المتنبي»، و«ابن جني»، و«كافور»، والزهرة.. هم من يستطيع تعقب الأشباح والبرء منها. تلك الأشباح التي تحدّث عنها من تلبّس بالمتنبي. من هنا نبدأ. نعيد تلك الصرخة التي نطق بها خالد محمد خالد قبل جيلين. مواطنون لا رعايا.

المجنونة فنيش.

الرسالة الخامسة: أنا جميلة مرة أخرى وقد وجدت من يحبني وأحبه، إنه الوليد، أو اليشير أو ابن جني. هشام، هو اسمه. فتى رائع. دمث الطبع. له إحساس مرهف. الدكتورة فنيش تعيش علاقة حب مع «المتنبي». كانت تضمر حبها له، ولكنه كان بادياً للعيان. لا أفهم ماجور لمَ أثقلت على النزلاء بالمسكنات والحقن؟ ينبغي قول كل شيء. إنكم ترتكبون جريمة في الرباط في حقّ نزلائكم بتخديرهم. ولم أكن أعرف ذلك إلى أن التحقت بالمجانين، ووجدت أنكم من خدّرهم.

الدكتورة فنيش امرأة رائعة. اختارت أن تفضح الزيف. ضحّت بكل شيء. بوضعها. ومكانتها. من أجل الحقيقة. وفضّلت المجانين.

الرسالة السادسة: جميلة دائماً. لم أُنهِ رسالتي السالفة. ما

كانت تبديه زهرة حيال كافور، كان تدلُّلاً. كانت تحبّه وتخفي حبّها له. حبّها «للمتنبي» من نوع عاطفي، أو أفلاطوني حسب التعبير الذي استعمله كافور/ حمّان. لا تفترق الزهرة عن حمّان. بينهما حب عارم.

الرسالة السابعة: غادرنا المطار بفضل الدكتورة فنيش. وتجد رفقته صوراً لنا. وقد بلغنا مقصدنا في جزيرة.

نفضنا عنا ألقاب الرباط. لا متنبي ولا ابن جني ولا كافور ولا ممرضة. تجد رفقته صوراً لنا.

الصورة الأولى: من أقصى اليمين هشام (ابن جني) وهو يضع ذراعه على كتفي، وبقربي الدكتورة فنيش وهي ماسكة بيد الأستاذ (المتنبي)، وعن يمينها الزهرة وذراع حمّان على كتفها (كافور)، وبقربه محجوبة بجلابية مغربية، وحجاب على الرأس. أصرَّ المتنبي أن يصطحبها معنا في نُفرتنا.

الصورة في المطار قبل الإقلاع.

الصورة الثانية: حمّان (كافور)، بمقصف في المطار رفقة الزهرة، بمسّاكة شعر ونظارة من ماركة ريبان.

الصورة الثالثة: المتنبي في قاعة الضيوف قبل الإقلاع يقرأ الجرائد، مع الدكتورة فنيش وهي تقرأ من لوحة آيباد. أُخذت الصورة على غفلة منهما.

الصورة الرابعة: فور وصولنا الجزيرة. علامة التعب بادية على الوجوه من طول الرحلة.

الصورة الخامسة: الأستاذ مع محجوبة. تبدو مسرورة في

الصورة. وهو يخصها بعطف سابغ. امرأة طيبة، تحب الأستاذ كثيراً، وهو يبادلها الشعور ذاته.

الصورة السادسة: غداة وصولنا. حمّان بتبان سباحة والزهرة بشورت ورداء عليه علامة Love.

الصورة السابعة: الأستاذ والدكتورة على الشاطئ يتأملان غروب الشمس. الصورة من الظهر. الأستاذ بقبعة واقية للشمس. يمسك يد الدكتورة فنيش.

الصورة الثامنة: «سيلفي» مع هشام بالمطعم.

الصورة التاسعة: «سيلفي» أخرى مع هشام بالشاطئ وهو يتناول حمّام شمس.

الصورة العاشرة: هشام يتزحلق بخشبة شراعية.

بعدها أخذ الماجور يقلّب بإصبعه الرسائل ويمررها. لا ريب أنهم هربوا. هل سيخبر الأمن بالأمر؟ سيجعلونه مسؤولاً عن الفرار ويعاقبونه من أجل ذلك. فهِم لِم دفعته الدكتورة فنيش للعطلة يوم الخميس والجمعة والسبت والأحد، ولِمَ نفحته نائلة، كي ترتب كل شيء، في غفلة منه من أجل الفرار. أدركتُ من دون شكّ تواطؤه مع الأمن. كان يعتبرها ساذجة، مهنية، في عملها، ولكنها لا يمكنها أن تذهب أبعد من ذلك. تبيّن أنه كان مخطئاً. كانت منعته من حقن النزلاء لأكثر من أسبوع، وكانت تعمل على أن يعودوا لوضعهم الطبيعي. الغريب هو جميلة. لم يكن يتوقع أن الممرضة التي كانت تبدو مستكينة ستُقدم على المغامرة.

لن يخبر الأمن بشيء. وسيمد عناصره بتقارير كاذبة عن نزلاء

لم يعودوا نزلاء ونفروا عن الرّباط الذي وضعهم فيه الأمن. سيقول للأمن ما يريد أن يستمع له عن الرباط كما لو أن به مجانين، مخدّرين، تحت السيطرة. ستنكشف اللعبة يوماً. ولكن لا خيار له على المدى القصير. على المدى الطويل، لا يمكن للحقيقة ألا تنكشف. حقيقة المجانين والرباط و. . . ماجور الرباط.

حسن أوريد

رباط المتنبي

«المتنبي هو سبب المأساة، أو جزء منها. سحَر الجميع بقوة نظمه وجزالة شعره... آويته وقد أعرض عنه الجميع.. آويته ولم يجد حاضناً ولا مُؤْنساً.. ومَن ذا يُؤوي شخصاً مُعتدّاً بنفسه، يملأه الزُّهو ويستبد به العُجب؟!... رقّ قلبي له وقد أتاني لاجئاً.. كنت أرى ما حلَّ بالعراق من تمزق، وما لحق بسوريا من دمار، وكان ذلك يُدمي قلبي... خشيت أن يندثر لسانه ويغور شعره... كنت زرت العراق ووقفت بعيني على ما استحدثه التتار الجدد. هلهلوا سدى كان قائماً. الناس أفراد منفصلون بعضهم عن بعض أو شيع وميليشيات. حتى اللغة العربية لم يعودوا يحسنونها.. بل لم يعودوا يحسنون الحياة.. يعادون بعضهم بعضاً، ويقيمون المتاريس، وأضحوا كما في سالف الزمن حِلّاً لكلِّ غازٍ. للبويهيين الجدد والسلاجقة الجدد.. ثم كنت أرى ما حلَّ بسوريا.. دمشق جريحة، وحلب خراب، وحمص أنقاض، ودرعا حطام...

لم أكن أعرف عاقبة أن تستضيف شخصاً منفلتاً من الماضي، ولم أكن أقدّر مغبّته.

كنت أحسب المتنبي مَن يمسك مفاتيح الحلِّ لوضعٍ معضل... كنت أعُدّه نيتشه عربياً.. نيتشه من فصيلة أخرى يحقّق الإنسانَ الأسمى.. يبرئ قومه من لعنة الميتافيزيقا والخمول والتواكل والتفسيرات الغيبية...».



حسن أوريد، كاتب وأديب من المغرب. حائز على جائزة بوشكين للآداب لسنة 2015 من اتحاد كتّاب روسيا. من أعماله الأدبية: **ربيع قرطبة، الموريسكي، سيرة حمار، الأجَمة.**

ISBN 978-9953-68-908-1



9 789953 689081



المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com

لوحة الغلاف للفنان تيودور شاسوريو